

التناسب القرآني عند الإمام البقاعي
دراسة بلاغية

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع: التاريخ: / /

إعداد الطالب

مشهور موسى مشهور مشاهرة

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي

قُدِّمَت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

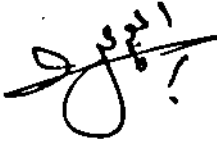
الجامعة الأردنية

C. 112
ع

كاتون الثاني ٢٠٠١

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ: ٤ / ١ / ٢٠٠١ م

التوقيع




أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور محمد بركات أبو علي/ مشرفاً
أستاذ في البلاغة العربية



الدكتور محمد حسن عواد/عضواً
أستاذ مشارك في النحو العربي



الدكتور عبد الكريم أحمد الحيارى/عضواً
أستاذ مساعد في البلاغة العربية



الدكتور سمير شريف ستيتية/عضواً
أستاذ في اللسانيات

الإهداء

إلى من قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من
الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾
﴿الأنعام: ١١٧﴾.

وإلى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم
فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾
﴿آل عمران: ١٧٣﴾.

وإلى الذين قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما
عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما
بدلوا تبديلاً﴾ ﴿الأحزاب: ١٢﴾.

شكر وتقدير

روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (من لا يشكر الناس لم يشكر الله)^(١)، واستنانا بهذا القول فقد لزمنا أن أشكر أستاذي الدكتور محمد بركات أبو علي لتفضله بالإشراف على هذه الرسالة، وأن أشكر أيضا الأساتذة العلماء الأفاضل أعضاء اللجنة المناقشة: الأستاذ الدكتور سمير ستيتية، والدكتور محمد حسن عواد، والدكتور عبد الكريم الحيارى فلهم جميعا خالص الشكر والإجلال والتقدير. على ألا يفوتني شكر العالمين الفاضلين: الدكتور صلاح الخالدي، والدكتور أحمد نوفل - جزاهما الله عني كل خير - لما أبدياه من ملحوظات كان لها أثر واضح في منهج هذه الرسالة. مع جزيل الشكر والعرفان لمن أسهم في إخراجها على هذه الهيئة من الأخ الدكتور خالد النسور، والدكتور وليد العناتي، والأخ عبد القدوس القضاة، وسيف الشامسي، وعلي بن تميم، وعيسى فلاح، ومن قبلهم جميعا صاحب اليد الطولى - الذي لن أنسى صنيعة - المهندس كمال أبو داود - جزاهم الله جميعا عني كل خير - .

٥٣٥١١٣

(١) رواه أحمد والترمذي. وأرقامه في مستند أحمد هي: (٧٤٩٥، ١١٣٠٠، ١٨٦٤٠، ١٨٦٤١، ١٩٥٦٥، ١٩٥٦٦. وعند الترمذي برقم: ١٩٥٥.

فهرست المحتويات

ب	قرار لجنة المناقشة
ج	الإهداء
د	الشكر
هـ	فهرست المحتويات
ط	ملخص الرسالة باللغة العربية
٨-١	المقدمة
٥٤-٩	الفصل الأول: (وفيه سبعة مباحث)
٣٥-١٠	المبحث الأول: البقاعي وتفسيره "نظم الدرر".
١٢-١٠	المطلب الأول: ترجمة البقاعي.
٣٥-١٣	المطلب الثاني: "التعريف بنظم الدرر"
٣٧-٣٦	المبحث الثاني: التعريف بعلم التناسب أو المناسبة.
٤٢-٣٨	المبحث الثالث: التناسب وفن الإعجاز.
٤٣	المبحث الرابع: أدلة علم التناسب.
٤٧-٤٤	المبحث الخامس: الإشكالات على علم التناسب.
٤٩-٤٨	المبحث السادس: من آراء العلماء في علم التناسب.
٥٤-٥٠	المبحث السابع: تاريخ علم المناسبات.
١٤٢-٥٥	الفصل الثاني: قواعد منهج البقاعي في بيانه التناسب (شرح وتفصيل):
٦٣-٥٦	المبحث الأول: (وفيه مطلبان)
٦١-٥٧	المطلب الأول: بيانه لمقصود كل سورة مع بداية تفسيره لهذه السورة.
٦٣-٦٢	المطلب الثاني: تفسيره للبسطة أول كل سورة بما يتناسب مع مقصود هذه السورة.

٩٦-٦٤	المبحث الثاني: اهتمامه البالغ بإظهار التناسب بين الآيات القرآنية (وفيه اثنا عشر مطلباً)
٧١-٦٧	المطلب الأول: التناسب بين الآية وما قبلها مباشرة.
٧٧-٧٢	المطلب الثاني: التناسب بين الآية وما قبلها عموماً.
٨٠-٧٨	المطلب الثالث: التناسب بين الآية وما بعدها من نفس الموضوع.
٨٣-٨١	المطلب الرابع: التناسب بين الآية وأول السورة.
٨٥-٨٤	المطلب الخامس: التناسب بين جزء الآية و صدرها.
٨٧-٨٦	المطلب السادس: التناسب بين ختام الآية و صدرها.
٩٠-٨٨	المطلب السابع: التناسب بين صدر الآية وخاتمة التي قبلها مباشرة.
٩١	المطلب الثامن: التناسب بين ختام الآية والآية التي قبلها مباشرة.
٩٣-٩٢	المطلب التاسع: التناسب بين صدر الآية وما قبلها من الآيات عموماً.
٩٤	المطلب العاشر: التناسب بين جزء الآية وما قبلها من الآيات عموماً.
٩٥	المطلب الحادي عشر: التناسب بين ختام الآية وما قبلها من الآيات عموماً.
٩٦	المطلب الثاني عشر: التناسب بين ختام الآية وبين ما قبلها وما بعدها.
١٤٣-٩٧	المبحث الثالث: اهتمامه البالغ بإظهار التناسب بين السور القرآنية (وفيه أربعة مطالب)
١٠٦-٩٨	المطلب الأول: التناسب في ارتباط نجوم السورة الواحدة بعضها ببعض.
١٢٩-١٠٧	المطلب الثاني: التناسب بين أوائل السور وأواخر ما قبلها.
١١٠-١٠٧	١ - التناسب على أساس التفصيل بعد الإجمال.
١١٢-١١٠	٢ - التناسب على أساس الدليل أو البرهان.
١١٦-١١٣	٣ - التناسب على أساس السبب والنتيجة.
١١٨-١١٦	٤ - التناسب على أساس السؤال والاستفسار.
١٢١-١١٨	٥ - التناسب على أساس التقابل والوصف.

- ٦ - التناسب على أساس التكميل والتوضيح. ١٢٤-١٢١
- ٧ - التناسب على أساس التعجب والإعجاب. ١٢٦-١٢٥
- ٨ - التناسب على أساس التعليل والتخصيص. ١٢٧-١٢٦
- ٩ - التناسب على أساس التأكيد. ١٢٩-١٢٧
- المطلب الثالث: التناسب بين آخر السورة وأولها. ١٣٦-١٣٠
- المطلب الرابع: التناسب بين مجموعة سور. ١٤٣-١٣٧
- الفصل الثالث: التناسب وبعض الظواهر السياقية في**
الخطاب القرآني: (دراسة تطبيقية) - وفيه ستة مباحث -
المبحث الأول: التناسب في الترتيب أو التقديم والتأخير. ٢١٠-١٤٤
- المطلب الأول: الترتيب في القصص القرآني. ١٦٣-١٤٥
- المطلب الثاني: كلمات قدمت في آيات و أخرت في أخرى. ١٥٠-١٤٨
- المطلب الثالث: الترتيب في الفواصل والظروف. ١٥٨-١٥٠
- المبحث الثاني: التناسب في الحذف والذكر.** ١٦٣-١٥٨
- أ - التناسب في الحذف. ١٧٥-١٦٤
- المطلب الأول: حذف الأسماء والضمائر. ١٧٤-١٦٤
- المطلب الثاني: حذف الحروف. ١٦٨-١٦٥
- المطلب الثالث: الحذف في القراءة القرآنية. ١٧٠-١٦٩
- ب - التناسب في الذكر. ١٧٤-١٧٠
- المبحث الثالث: التناسب في التكرار.** ١٧٥-١٧٤
- المطلب الأول: التكرار المفرد أو البسيط. ١٨٦-١٧٦
- المطلب الثاني: التكرار المشكل أو المركب. ١٨٠-١٧٧
- المبحث الرابع: التناسب في التنكير والتعريف.** ١٨٦-١٨١
- أ - التناسب في التنكير. ١٩٨-١٨٧
- ١٩٢-١٨٧

١٩٣-١٩٢	ب - التناسب في التعريف.
١٩٥-١٩٣	المطلب الأول: التعريف باسم الإشارة.
١٩٧-١٩٥	المطلب الثاني: التعريف بأل.
١٩٨-١٩٧	المطلب الثالث: التعريف بالإضافة.
٢٠٤-١٩٩	المبحث الخامس: التناسب في الأفراد والجمع.
٢٠١-١٩٩	أ - التناسب في الأفراد.
٢٠٢-٢٠١	ب - التناسب في الجمع.
٢٠٤-٢٠٢	ج - موازنة بين الأفراد والجمع في سياقين مختلفين.
٢١٠-٢٠٥	المبحث السادس: التناسب بين اللفظ والمعنى.
٢١٤-٢١١	الخاتمة.
٢٢٢-٢١٥	فهرست المصادر والمراجع.
٢٢٣	ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية

ملخص الرسالة باللغة العربية

التناسب القرآني عند الإمام البقاعي دراسة بلاغية

إعداد الطالب

مشهور موسى مشهور مشاهرة

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي

لقد بُنيت هذه الرسالة على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. تحدثت في المقدمة عن دوافع الكتابة في هذا الموضوع، ثم تفسير عنوان الرسالة "التناسب القرآني عند الإمام البقاعي دراسة بلاغية"، فمنهجتي فيها، مع التنويه ببعض الصعوبات التي واجهتني في أثناء إعدادها.

أما الفصل الأول: فقد ترجمت فيه للإمام البقاعي وكتابه نظم الدرر، ثم فصلت القول في أمر التناسب والمناسبة وخاصة علاقة ذلك بفن الإعجاز، فالإشكاليات على هذا العلم، فأراء العلماء فيه ثم تاريخه.

وفي الفصل الثاني من الدراسة عرضت لقواعد منيخ البقاعي في بيانه التناسب، وكان ذلك في ثلاثة مباحث ومجموعة من المطالب التي اعتمدت فيها التمثيل والتحليل والتعليق، الأمر الذي كشف لي النقاب عن عناية البقاعي الفاتقة بمختلف وجوه التناسب القائم على تعدد الروابط والعلاقات.

أما الفصل الأخير فقد درست فيه جملة من الظواهر السياقية في الخطاب القرآني، وذلك بستة مباحث هي: التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتكرار، والتكبير والتعريف، والإفراد والجمع، واللفظ والمعنى. إلى أن تبين لنا في نهاية هذه المباحث وما قبلها اعتماد البقاعي السياق عاملاً رئيساً في تخريج أي وجه من وجوه التناسب الذي أسبغ عليه من نظراته ولمساته البيانية الشيء الكثير.

وفي خاتمة الرسالة بسطت ما واجهني من صعوبات في أثناء إعدادها، ومن ثم ما توصلت إليه من نتائج واقتراحات ووصايا تهم مختلف الباحثين .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

(رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ و أن
أعمل صالحاً ترضاه و أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)^(١)

الحمد لله الذي جعل كتابه معجزة للعالمين، فأفاض عليهم - بحمده ومنه - من كنوزه ما جعلهم على قسمين: حائرين مبلسين وحامدين شاكرين. والصلاة والسلام على أستاذ البلاغة، أفصح من نطق بالضاد؛ حبيبنا محمد - صلى الله عليه وسلم -، وعلى آله وأصحابه - نجوم الهدى ومصابيح الدجى - أجمعين، وبعد،

فإن دراسة كلام الله وتحليله، ومحاولة استجلاء معانيه - تلك المعاني التي جعلت القسوم يُحكّمون وسائلهم اللغوية والبلاغية، حتى لا يفوتهم منها شيء، وفي نفس الوقت ألا يخرجوا فيستخرجوا غير المراد - لهي الغاية وراء كل فروع الدراسات اللغوية والبلاغية - الجادة - وبمختلف مذاهبها كذلك.

أقول: لقد استوقفتني هذا الأمر طويلاً، فقد كنت يوماً أفكر في كيفية الإسهام أو المشاركة في إعادة توظيف علوم العربية في خدمة كتاب الله الخالد - ذلك الكتاب الذي استودعنا الله إيّاه؛ أمانة نحملها ونؤديها؛ لنسأل عنها، إلى أن كان اليوم الذي استمعت فيه إلى دروس ومواعظ للدكتور أحمد نوفل. فرأيت - جزاه الله خيراً - يعظ الناس بكلام أدبي نفيس، منه: إن القرآن حلقة واحدة، مترابطة ومتسلسلة، كل سورة أخذة بخُزّة أختها، وكذلك آياته وجملته... فاتحة السورة: مفتاح لهدفها ومقصدها، ومقصدها أساس جميع آياتها... البقرة وآل عمران تكمل كل منهما الأخرى؛ فأيات الجهاد في البقرة مبنوثة، ولكنه لم يقع فيها جهاد بمعنى الوقائع والمعارك. وإنما كان في آل عمران؛ سورة غزوة أحد... تحدث النص القرآني في البقرة عن الابتلاءات والقتل والأذى، ثم طوّر الخطاب في آل عمران إلى الجهاد والشهادة.

هذا الكلام وغيره كثير، أسعفتني في بداية مرادي ونيل مطلوبي، فدفعني إلى النظر والتفكير، إلى أن يسر الله فقرأت بحثين حديثين في علم المناسبة للدكتور نور الدين عتر. هذان

البحثان وإن كانا من وجهة نظر أهل علوم القرآن، إلا أنهما وبين الفينة والأخرى يكتنفهما نظرات أدبية أو حتى بيانية. الأمر الذي جعلني على وشك القطع بدراسة مثل هذه الموضوعات أدبيا. حتى كان الحسم بأن قدر الله لي فاطلعت على كتاب للدكتور محمد أبو موسى- وأحسبته نفيسا في باب- بعنوان: " البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري". تحدث فيه بكلام أطفأ حر صدري، وطمأنني للدخول بتؤدة وأمان إلى مثل هذه الدراسات. فقد كشف في مقدمته النقاب عن كون حقل التفسير وعلوم القرآن من الحقول الغنية بالحقائق ذات الصلة القوية بالدراسات الأدبية، ولكن-لسوء الحظ- غير منتفع بها على الوجه الذي يرام. وعزا كل ذلك إلى عدم نقلها إلى هناك؛ أي إلى حقل الدراسات الأدبية. إذ إن نقل المعلومات من حقل من حقول المعرفة إلى حقل آخر له أثر كبير في هذه المعلومات وهذه المعارف، وخصوصا إذا كانت مما يتلاءم و الحقل الجديد. فما زلنا نذكر أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد قدم لنا خير شاهد على تحريك الأفكار، وإدخالها في حقول علمية جديدة، وذلك حين كان ينقل كثيرا من أفكار سيبويه إلى البيئية البلاغية. وقد رأينا كيف كانت هذه الأفكار تتسع فتصير خصبة، وذات مذاق متميز وآثار مختلفة.

لقد ضرب الأستاذ أبو موسى في مقدمة كتابه أمثلة تصلح لأن تكون أساسا لرسائل علمية جادة ومحكمة. وذلك حين بين أن كثيرا من مفاهيم علوم القرآن يصلح لأن يكون فكرا أدبيا جديدا إذا نقل إلى حقل الشعر أو الأدب بعامة. فموضوع النسخ-مثلا- وهو من أبعد المواضيع من الشعر يمكن أن يستوحى منه دراسة تطور الوسائل اللغوية في ديوان شاعر من الشعراء. ولما كان التناسب أقرب بكثير من النسخ-على ما ذكر الدكتور أبو موسى في مقدمته- وكذلك وثوق صلته بروح النص القرآني، وبالتالي توظيفه في مجال الدعوة أكثر من أخيه، هذا فضلا عن كونه اهتمامي الأول.لما كان ذلك كذلك، وقد وجدت نفسي فيه - على لطافة الموضوعين- فقد غلب على ظني الكتابة فيه.

ربما كانت هذه هي المحطة الأولى والرئيسة وراء بعض دوافعي لاختيار هذا الموضوع، ولكن هذه المحطة- على عظمها و جلالها- لم تكن إلا بداية فاتحة لمحطات، كل واحدة منها- وإن تنوعت- أصعب من الأخرى.

و لما كان المفسرون شيوخ لغة وشعر ورواية وبلاغة، وكان العلم بذلك أصسلا للعلم بالتفسير والفقه وأصول الدين وغيرها. لما كان ذلك كذلك، فقد فكرت كثيرا في اختيار مادة التناسب، أنكون من كتب التفسير أم من كتب الفقه وأصوله؟ ولقد سارت المادتان فسي ذهني

زمنًا طويلًا جنبًا إلى جنب، إلى أن قرأت جزءاً من تفسير الإمام البقاعي، وبالفعل فقد كان كتابه بدلالة عنوانه: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" آية منقطعة النظير في دراسة التناسب القرآني خاصة.

بعد ذلك شمريت عن ساعد الجد والعزم؛ لأخوض غمار بحر متلاطم الأمواج المعرفية التي ضُمّت في اثنين وعشرين مجلداً-وهي النسخة التي اعتمدها لتداولها بين الأوساط العلمية- وربما كان حجم الكتاب وعدم تحقيقه - وغير ذلك مما سيفصل في الخاتمة - من العقبات الأولية التي كفاني الله همّها بملزمة النص، وطول وقت الاعتكاف. هذا موجز- سيفصل لاحقاً- عن مادة الدرس. فماذا عن عنوان الدراسة؟.

"التناسب والمناسبة"- كما سيُتضح لاحقاً- مصطلحان نوا دلالة واحدة عند من كتب في علوم القرآن. فيصلح أن يكون العنوان بذلك: التناسب أو المناسبة، ولكن ميلي لأول تيمنا بالعنوان الذي طبع به الكتاب. وهو "قرآني" نظراً لكون مادته هي آيات الله و سورته وجملته، فضلاً عن كونه في أحد كتب التفسير المعتمدة أيضاً. وهو عند "الإمام البقاعي" لكونه ممن تفرد في دراسة موضوع التناسب في جميع كتاب الله، وبالتالي فهي محاولة متكاملة، لم أجدها- أنا ولا غيري، حسب اطلاعي- عند أحد من قبله ولا حتى من بعده. وأما كونها "دراسة بلاغية" فهو من قبيل الاستيحاء من عنوان كتاب الدكتور أبو موسى الذي تأثرت به أولاً. وعلى أي حال فإن البلاغة هي العمود الفقري أو الرئيسي لموضوع التناسب؛ لأنه يقوم على مراعاة المقام والمقال، وهذا هو البلاغة بعينها. هذا فضلاً عن كون الدراسة والتطبيق من الأمور التي تستحق أن يوليها الباحثون مزيد عناية، وربما أكثر مما تستحق إذا استعملت في الدراسة النحوية؛ لأنها تعني هنا: الاختيار والتفسير والشرح والتحليل والتعليل.

هذا فيما يتعلق بعنوان الدراسة. أما منهجي فيها؛ فإنه يقوم على الاستقراء والاختيار، ثم محاولة التحليل والتعليق؛ فقد اعتمدت المثال إلى جانب التنظير، بل غلبته أحياناً عليه -على التنظير-. ولكن الصعوبة تعود لتبرز من جديد، الأمر الذي جعلني أقتصر على عينات - أحسبها ممثلة - تكثر أحياناً وتقل في أخرى، وما ذلك إلا تبعاً لشيوع أمثلة الظاهرة المتحدثة عنها، ووضوحها أو غموضها. مع محاولة الميل للاختصار- غير المخل- ما استطعت لذلك سبيلاً، وخاصة ما كان منه في الفصل الأول؛ حيث سيرى القارئ كثرة الإحالات. على أن تحت كل منها مادة إذا كُشف النقاب عنها وجمعت كوّنت دراسة مستقلة وحدها. أما المادة المدروسة فقد جعلتها في ثلاثة فصول، هي على النحو التالي:

الفصل الأول: (وفيه سبعة مباحث)

المبحث الأول: البقاعي وتفسيره "نظم الدرر".

المطلب الأول: ترجمة البقاعي.

المطلب الثاني: "التعريف بنظم الدرر"

المبحث الثاني: التعريف بعلم التناسب أو المناسبة.

المبحث الثالث: التناسب وفن الإعجاز.

المبحث الرابع: أدلة علم التناسب.

المبحث الخامس: الإشكالات على علم التناسب.

المبحث السادس: من آراء العلماء في علم التناسب.

المبحث السابع: تاريخ علم المناسبات.

الفصل الثاني: قواعد منهج البقاعي في بيانه التناسب

(شرح وتفصيل):

المبحث الأول: (وفيه مطلبان)

المطلب الأول: بيانه لمقصود كل سورة مع بداية تفسيره لهذه السورة.

المطلب الثاني: تفسيره للبسملة أول كل سورة بما يتناسب مع مقصود هذه

السورة.

المبحث الثاني: اهتمامه البالغ بإظهار التناسب بين الآيات القرآنية

(وفيه اثنا عشر مطلباً)

المطلب الأول: لتتناسب بين الآية وما قبلها مباشرة.

- المطلب الثاني: التناسب بين الآية وما قبلها عموماً.
- المطلب الثالث: التناسب بين الآية وما بعدها من نفس الموضوع.
- المطلب الرابع: التناسب بين الآية وأول السورة.
- المطلب الخامس: التناسب بين جزء الآية وصدرها.
- المطلب السادس: التناسب بين ختام الآية وصدرها.
- المطلب السابع: التناسب بين صدر الآية وخاتمة التي قبلها مباشرة.
- المطلب الثامن: التناسب بين ختام الآية والآية التي قبلها مباشرة.
- المطلب التاسع: التناسب بين صدر الآية وما قبلها من الآيات عموماً.
- المطلب العاشر: التناسب بين جزء الآية وما قبلها من الآيات عموماً.
- المطلب الحادي عشر: التناسب بين ختام الآية وما قبلها من الآيات عموماً.
- المطلب الثاني عشر: التناسب بين ختام الآية وبين ما قبلها وما بعدها.

المبحث الثالث: اهتمامه البالغ بإظهار التناسب بين السور القرآنية (وفيه أربعة مطالب)

- المطلب الأول: التناسب في ارتباط نجوم السورة الواحدة بعضها ببعض.
- المطلب الثاني: التناسب بين أوائل السور وأواخر ما قبلها.
- ١ - التناسب على أساس التفصيل بعد الإجمال.
 - ٢ - التناسب على أساس الدليل أو البرهان.
 - ٣ - التناسب على أساس السبب والنتيجة.
 - ٤ - التناسب على أساس السؤال والاستفسار.
 - ٥ - التناسب على أساس التقابل والوصف.
 - ٦ - التناسب على أساس التكميل والتوضيح.
 - ٧ - التناسب على أساس التعجب والإنكار.
 - ٨ - التناسب على أساس التعليل والتخصيص.
 - ٩ - التناسب على أساس التأكيد.

المطلب الثالث: التناسب بين آخر السورة وأولها.

المطلب الرابع: التناسب بين مجموعة سور.

الفصل الثالث: التناسب وبعض الظواهر السياقية في الخطاب

القرآني: (دراسة تطبيقية) – وفيه ستة مباحث –

المبحث الأول: التناسب في الترتيب أو التقديم والتأخير.

المطلب الأول: الترتيب في القصص القرآني.

المطلب الثاني: كلمات قدمت في آيات و أخرت في أخرى.

المطلب الثالث: الترتيب في الفواصل والظروف.

المبحث الثاني: التناسب في الحذف والذكر.

أ – التناسب في الحذف.

المطلب الأول: حذف الأسماء والضمائر.

المطلب الثاني: حذف الحروف.

المطلب الثالث: الحذف في القراءة القرآنية.

ب – التناسب في الذكر.

المبحث الثالث: التناسب في التكرار.

المطلب الأول: التكرار المفرد أو البسيط.

المطلب الثاني: التكرار المشكل أو المركب.

المبحث الرابع: التناسب في التنكير والتعريف.

أ – التناسب في التنكير.

ب – التناسب في التعريف.

المطلب الأول: التعريف باسم الإشارة.

المطلب الثاني: التعريف بأل.

المطلب الثالث: التعريف بالإضافة.

المبحث الخامس: التناسب في الإفراد والجمع.

أ - التناسب في الإفراد.

ب - التناسب في الجمع.

ج - مقارنة بين الإفراد والجمع في سياقين مختلفين.

المبحث السادس: التناسب بين اللفظ والمعنى.

وقد سجلت في الخاتمة أبرز ما انتهت إليه هذه الدراسة على سبيل الإجمال، مع بسط بعض الصعوبات التي نوهت إليها في هذه المقدمة، إضافة إلى ذكر بعض الوصايا، وكذلك المواضيع المقترحة التي وجدت لها عند البقاعي مادة طيبة، وعناية فائقة، وبالتالي يمكن للباحثين دراستها، أو الاطلاع عليها من خلال "نظم الدرر".

وعلى كل حال فلقد كانت رحلة طويلة، لكنها شائقة جداً - حتى وإن كانت شاقة -، فلقد بذلت فيها طاقتي ووسعي، فأرجو - والحال ما ذكرت - أن تكون حلقة مكملة أو مجسدة لتلك الدراسات الأدبية المعاصرة التي تخدم الدعوة بعامة، واللغة العربية خاصة. ومن الجدير بالذكر أن أنهه هذه الدراسة وما شاكلها تحتاج - بتقرير البقاعي - إلى حس مرهف، وإلى ذوق متمرس وبصير؛ إذ الذوق من أصح المناهج وأقومها - عند الإمام البقاعي - في دراسة البلاغة العربية. فإذا فقد القارئ ضاع، وإذا فقد من المادة موضع العرض أو الدرس، فسيتربها شاحبة - كما هي في كتاب المفتاح - جسماً بلا روح. لكن إذا قدر الله وحصل مع القارئ ما ذكرت، فخفي عليه وجه من التناسب، أو رأى أن الأمثلة المضروبة متباعدة الأغراض، متناهية المقاصد فليطلع على مقدمة تفسير البقاعي؛ فلقد أودعها حلولاً لهذه المشكلة، وغيرها من المشكلات الطارئة. فعلم التناسب على ما قرر أهل المعرفة والنظر، علم يقوم في أغلبه على الربط المنطقي أو العقلي. وعليه إذا حصل ما ذكرت، فلا تتزعج أيها القارئ الكريم، فما فتى صاحبنا ينادي - لا أدري مشفقاً أم واعظاً -: أيها الناظر إن قرع سمعك ما لم تألفه، أو مثل في عينك ما لم تعرفه؛ من عرائس أباكّر ونفائس أسرار، فلا تعجل إليه رداً وإنكاراً، وحاول أن ترجع النظر - مرة أو مرتين - فنعكك تجد من جانب الطور ناراً.

أما أنا فأختم - متواضعا - بقولي: يا شيخى، يا صاحبي، ما عليك لو تذكرت مقولة الشافعي^(١)، أو مقولة العماد، فكل ما تقدم وما سيكون ما هو إلا نزر يسير من عاجز مقصر. وعندنا في المثال: أن المرء دهرًا لا يزال، في فسحة من عقله ما لم يقل شعرا، كذا إذا ما ألف نقل. حاصله أن الفتى إن ألفا، أو قال شعرا فيه قد تكلفا، عرض عقله لدى الأمرين، إذا أزيلوا ما يرى من رين، جزاكم الله عن الإخوان أحسن ما يجزى من الإحسان.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

والله ولي التوفيق، فهو حسبي ونعم الوكيل.

(١) إشارة إلى قول الشافعي: " لقد صنعت هذه الكتب وما ألوت فيها جهدا، وإني لأعلم أن فيها الخطأ؛ لأن الله تعالى يقول: " (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء: ٨٢. انظر البقاعي، نظم الدرر، ١٠٨/٢٠.

* ملاحظة: حيث ذكرت عبارة المصدر نفسه فإن المقصود بذلك المصدر الأخير الذي رجعت إليه، فإن كان ذلك مع الاسم مثل: البقاعي، المصدر نفسه، فإن المقصود به آخر مصدر استخدمته لهذا المؤلف. فإن تغيرت أشرت إلى ذلك. وهناك إشارة أخرى تتمثل في كتاب الإتيان للسيوطي فإذا ذكر بجانب "الإتيان" رقم الجزء، فالمراد طبعة دار الحيل بتحقيق الحرستاني، وإن ذكر الكتاب خاليا من الإشارة إلى أي جزء، فالمراد الجزء الذي حققه رايق اصعيدي.

الفصل الأول

وفيه سبعة مباحث

المبحث الأول: البقاعي و تفسيره "نظم الدرر"

المطلب الأول: ترجمة البقاعي.

المطلب الثاني: التعريف بنظم الدرر.

المبحث الثاني: التعريف بعلم التناسب أو المناسبة.

المبحث الثالث: التناسب وفن الإعجاز.

المبحث الرابع: أدلة علم التناسب.

المبحث الخامس: الإشكالات على علم التناسب.

المبحث السادس: من آراء العلماء في علم التناسب.

المبحث السابع: تاريخ علم التناسب والتأليف فيه.

المبحث الأول: البقاعي وتفسيره "تظم الدرر".

المطلب الأول: ترجمة البقاعي: (١)

أ - اسمه و نسبه و نشأته:

هو الإمام الكبير، الحافظ المتقن، المفسر المقرئ المحدث المؤرخ، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط- بضم الراء، بعدها موحدة خفيفة- ابن علي بن أبي بكر الروحاني - نسبة إلى خربة روحا، و لذا يقال في نسبه كذلك: الخرباوي- البقاعي الأشعري الشافعي.

ولد بقرية خربة روحا - من عمل البقاع، بلبنان- سنة ٨٠٩هـ، و نشأ بها، و لما بلغ الثانية عشرة من عمره، خرج هو و أهله من تلك القرية، على إثر قتال نشب بين عائلتهم و عائلة أخرى، فتنقلوا حتى بلغوا دمشق، فكان ذلك سببا في بداية طلبه العلم.

(١) من مصادر ترجمته، انظر ما يلي:

السخاوي، (ت ٩٠٢هـ)، للخواهر و الدرر، ٣٢٥-٣٢٦.

السخاوي، الضوء اللامع، مج ١، ج ١/١٠١-١١١.

السخاوي، وجيز الكلام، ٩٠٩/٣-٩١١.

السيوطي، (ت ٩١١هـ)، نظم العقيان، ص ٢٤-٢٥.

الطليبي، (ت ٩٣٦هـ)، القيس الحاوي، ٧٦/١-٧٧.

ابن العماد، (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب، ٥٠٩/٩-٥١٠.

الزبيدي، (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس، مادة "بقع".

الشوكاني، (ت ١٢٥٠هـ)، البدر الطالع، ١٩/١-٢٢.

الزركلي، الأعلام، ١-٥٦.

كحاله، معجم المؤلفين، ٥٩/١-٦٠.

شاكر مصطفى، التاريخ و المؤرخون، ١١٧/٤-١١٩.

مجلة الزهراء، ع ٢، شعبان، ١٣٤٥هـ، ص ٥١٣-٥١٥.

مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٢، ج ١، شوال ١٣٧٥هـ، مايو ١٩٥٦م، ص ١٣١.

مجلة تفكر الإسلامي، لبنان، ع ٣، مارس ١٩٧٩م، ص ٥٣-٥٧.

هذا إضافة إلى كتابي حاجي خليفة، والتبادي، و كثير من فيارس المخطوطات العربية أيضا.

ب - طلبه للعلم و شيوخه:

و في دمشق جود القرآن و جدد حفظه، و أفرد القراءات و جمعها على بعض المشايخ، ولما قدم دمشق سنة ٨٢٧هـ قرأ جمعا للعشر على الإمام ابن الجزري، و ذلك إلى أثناء سورة البقرة، و قد اشتغل بالنحو و الفقه و غيرهما.

و أخذ عن فحول العلماء في عصره، كتاج الدين بن بهادر في الفقه، و لازم القاياتي كثيرا و قرأ عليه في أصول الدين و المنطق، و سمع دروسه في الفقه و أصوله و النحو و المعاني و البيان، و حضر دروسه في الكشاف، و أخذ عن الإمام الزاهد تقي الدين الحصني، و بالقاهرة عن الشرف السبكي، و الإمام الكبير كمال الدين بن الهمام الحنفي، و العلاء القلقشندي، و أبي الفضل المغربي المالكي. و أكثر من ملازمة الحافظ ابن حجر في الحضر و السفر. فسافر معه إلى حلب، و أخذ عن شيوخها، كالحافظ برهان الدين الحلبي. و كسان تخرجه بالحديث بالحافظ ابن حجر، و بحافظ الشام ناصر الدين دمشقي، و سمع كذلك من خلق آخريسن، يجمعهم معجمه المسمى: "عنوان الزمان في تراجم الشيوخ و الأقران".

ج - سيرته و رحلاته:

و اشتغل البقاعي - رحمه الله - و جد و اجتهد حتى مهر و برع في الفنون، و فاق الأقران، و قد دأب في طلب الحديث و رحل، و خرج العالي و النازل، و ضبط أسماء الرجال، و نظم الشعر - و له فيه ديوان -، و تميز و ناظر. رقاہ شيخه الحافظ ابن حجر حتى جعله قارئ البخاري في القصر بقلعة الجبل، بحضور السلطان في دولة الظاهر جقمق، و كان يثني على قراءته و فصاحته.

و قد صنف الإمام البقاعي - رحمه الله - التصانيف الحسنة الكثيرة - في التفسير، و القراءات، و الحديث، و الفقه، و التوحيد، و النحو، و الأدب، و التاريخ و المغازي و غيرها - التي تشهد بإمامته و تفننه و اقتداره^(١). الأمر الذي يستدعي دراسته دراسة مستقلة من خلال كل علم برز فيه و صنف. كما أنه يستحق آراء العلماء؛ مدحا و إطراء، لا كما فعل السخاوي في

(١) لقد أحصيت للإمام البقاعي سبعين مصنفا ما بين مطبوع، و مخطوط، و مفقود؛ (أعني لم أقف أنا ولا غيري - حسب اطلاعي - على مكان وجود المصنف، وإنما اقتصر ذكره في كتب التراجم، أو كتب البقاعي نفسه)، هذا ومن الجدير بالذكر أنني حصلت وصفا لكثير من مخطوطاته، التي لم يقف عليها أحد - حسب اطلاعي - وكذلك زيادات كثيرة أخرى لم أجدّها عند محققي كتب البقاعي، ولا حتى عند مترجميه، ولكن قدر الله ألا يكون هذا مقامها.

كتبه؛ قال الإمام الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ): "الإمام الكبير برهان الدين ... برع في جميع العلوم، وفاق الأقران، لا كما قال السخاوي: إنه ما بلغ رتبة العلماء، بل قصارى أمره إدراجه في الفضلاء، وانه ما علمه أتقن فنا، و تصانيفه شاهدة بما قلته. قلت: بل تصانيفه شاهدة بخلاف ما قاله، و أنه من الأئمة المتقنين المتبحرين في جميع المعارف. و لكن هذا من كلام الأقران في بعضهم ... و من أنعم النظر في كتاب المترجم له في التفسير، الذي جعله فسي المناسبة بين الآي و السور، علم أنه من أوعية العلم المفترطين في الزكاء، الجامعين بين علمي المعقول و المنقول...^(١). و انتقد حتى على شيوخه، و أخذ عنه الطلبة أيضا في فنون عديدة.

رحل في طلب العلم و في غيره إلى بيت المقدس، و القاهرة، و دمايط، و الإسكندرية... إلخ، و حج و أقام بمكة يسيرا، و زار الطائف و المدينة، و سافر إلى حلب بصحبة شيخه الحافظ ابن حجر و ركب البحر في غزوات عدة، و رابط غير مرة، و كان آخر أمره بدمشق.

كان رحمه الله - شديدا في نقده، قوي النظر، حاد المقال، لا يعبأ بمخالفيه، و لذلك فقد حصلت بينه و بين جماعة من أهل عصره مناظرات و مناقرات، و على رأسهم الإمام السخاوي، الذي ترجم له ترجمة طويلة مظلمة - في كتبه - كلها سب و شتم و تلب - سامحهم الله جميعا- و قد رد الشوكاني في بدره على ترجمة السخاوي هذه، و ذكر أنها من الأمور التي تقع بين الأقران. و عليه فإن من يقرأ ترجمة البقاعي في كتب السخاوي، أو مختصر كتبه، لا بد أن يقرأ من ساعته غيرها من الترجمات، وأولاها بالقراءة ترجمة الشوكاني له في البدر الطالع.

د - وفاته:

توفي - رحمه الله تعالى- بدمشق، في الثامن عشر من شهر رجب سنة ٨٨٥ هـ، عن ست و سبعين سنة، و صلي عليه بالجامع الأموي، و دفن بالتربة الحميرية من جهة قبر عاتكة، و قد رثى نفسه قبل موته بمدة قصيرة، و هو بالقاهرة و ذلك بأبيات من جيد شعره، على ما ذكره السخاوي في "الضوء اللامع"، و الشوكاني في "البدر الطالع".

(١) الشوكاني، البدر الطالع، ١/ ١٩ - ٢١.

المطلب الثاني: التعريف بنظم الدرر وموقعه من علم التناسب، وكتب التفسير

بعمامة.

يعد كتاب " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور " من أوسع المراجع - قاطبة - في علم التناسب؛ ولذلك فلا يكاد يخلو بحث من البحوث التي عرضت للتفسير الموضوعي ونشأته، أو حتى أي دراسة يعرض فيها صاحبها لعلم المناسبة إلا ويذكر كل منهم البقاعي وكتابه^(١). أما كتب التراجم فلم تغفل هي الأخرى الإشارة لهذا؛ فحاجي خليفة قال مثلاً حينما وصف "نظم الدرر": " وهو كتاب لم يسبقه إليه أحد، جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير منه العقول... وأتقن فيه المناسبات وأوضح المعاني المشكلات، ثم نص على بيان فضله قائلاً:

هل رأيتم يا أولي التفسير من صاغ تفسيراً كنظم الدرر
دق معنى جل سبكا لفظه في وجوه الفكر مثل الغرر"^(٢).

أشار الإمام البقاعي إلى أنه بدأ تصنيف هذا الكتاب بالفعل سنة إحدى وستين وثمانمائة من شهر شعبان، وكان وصوله إلى تفسير سورة الشورى سنة إحدى وسبعين وثمانمائة في شهر شعبان أيضاً - على ما ذكر أثناء تفسيره للحروف المقطعة مطلع سورة الشورى^(٣) - هذا التصنيف الذي كان بالدعاء وطلب العون من الله، حيث سهل ببركة رؤيا رآها من آثار النبوة في صباه^(٤).

يصرح الإمام البقاعي في مقدمة تفسيره أن أحداً لم يسبقه في هذا العلم. ويعني بذلك التصنيف التام من لدن سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وكذلك بالعرض التفصيلي لترتيب السور والآيات وجمالها كما فعل هو في هذا الكتاب؛ هذا الكتاب الذي أطال فيه التدبر والتفكير لآيات الله تيمناً واستجابة لقوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو

^(١) انظر: فضل عاشق، إتيان البرهان، ٢/ ٤٩٠.

^(٢) حاجي خليفة، كشف الظنون، ٢/ ٧٦٣-٧٦٤. وانظر أيضاً: بعض ما قاله تلامذة البقاعي، ٢٢/ ٤٥٠ من نظم الدرر.

^(٣) انظر تفسيره حروف التبحر مطلع سورة الشورى، فإن له في جمعها وحسابها وربط ذلك بتفسير الكتاب كلاماً طيباً. ١٧/ ٢٣٦ وما بعدها.

^(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١/ ٤-٥.

الألباب^(١)، واستأننا بمجموعة من الأحاديث وبما جاء في الأثر، وما جاء عن الأئمة الأعلام في هذا الشأن مما ذكره بنصه في مقدمته^(٢).

ويرى الإمام البقاعي أن تفسيره هذا؛ التفسير الأنف في بابهِ الذي لم يسبقه إليه أحد، يرى أنه رديف لتفسير القاضي. وإذا كان تفسير القاضي البيضاوي قد احتضنته العلماء شرحاً وتفصيلاً، فإن إطناب الإمام البقاعي في كتابه واسترساله فيه - إلى حد كبير - لم يدع مجالاً لمستزيد بالمعنى الذي تركه القاضي. حيث كانت عبارة الأخير موجزة مقتضبة، مما أدى إلى ما هو معروف من جعل كتابه مشغلة لكثير من الأئمة بعده شرحاً وتعليقاً وتعليقاً^(٣).

وأما اسمه المختار فهو: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، ويناسب أن يسمى بـ: "فتح الرحمن في تناسب أجزاء القرآن"، أو بـ: "ترجمان القرآن ومبدي مناسبات الفرقان" ولكن التسمية الأولى هي المختارة.

أما موضوعه: فأجزاء الشيء المطلوب علم مناسباته من حيث الترتيب؛ ويعني بذلك آيات الله وسوره. وثمرته: هي الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب، وأس ذلك هو تبيان رتب التناسب بين أجزاء الآيات من حيث ارتباطها بما قبلها وما بعدها. وهذا لا يكون إلا بالوقوف على مقصود السورة أولاً، ثم النظر في جزئياتها^(٤).

ولقد أفاد الإمام البقاعي في تصنيفه لهذا الكتاب؛ الذي ضمنه علماً هو من التفسير كعلم البيان من النحو، لقد أفاد من كتاب العلامة ابن الزبير الغرناطي " البرهان في مناسبة ترتيب سور الفرقان "؛ حيث لا يكاد يخلو مطلع سورة من النقل الحرفي المعزو إلى العلامة المذكور.

(١) "ص": ٢٩.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤/١ - ٢/٤.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤/١.

(٤) انظر هذا وما تقدم من حديث حول التسمية من: البقاعي، المصدر نفسه، ٦/١ - ٥/٦.

ومن الجدير بالذكر أن الإمام البقاعي لم يقف على ما تقدم فقط، بل إن المتصفح لتفسيره يجده قد ضم معجماً لغوياً كبيراً إذا سمت خاص؛ من حيث دراسته لتصريف وتقاليب كل كلمة على حدة. هذا في اللغة، فإذا كان في النحو أو الصرف أو الأدب أو التاريخ فهو كذلك عالم مبرز .

ولقد جعل الإمام البقاعي منهجه في نظم الدرر هذا على قسمين: قسم شعاع واطرد؛ بمعنى أنه استعمله في طول الكتاب وعرضه بشكل مستمر، بحيث إنه لم يتخل عنه في موقف من المواقف التي يتطلبها، ويتمثل هذا في بيانه للتناسب بعامة^(١). وآخر - وهو الذي سأعرف به الآن - قد اشتمل على أسس كثيرة، ولكن لم يبلغ الاهتمام بها، والعناية بإبرازها مبلغ الأول، ويتمثل هذا القسم فيما سيأتي من مراعاته للتفسير بالمأثور، وتوجيهه للقراءات القرآنية وغير ذلك مما سألينه.

لقد جمع البقاعي بين التفسير بالمأثور و التفسير بالمعقول - وهي إشارة سابقة ذكرها الشوكاني في ترجمته -^(٢). أما التفسير بالمأثور فقد كان عرضاً - إلا ما جاء خدمة للثاني -، وفيه أتحدث عن تفسيره للقرآن بالقرآن، وتفسيره للقرآن بالأحاديث النبوية مع الوقوف على عنايته بالسند و التخريج، و تفسيره للقرآن بأقوال الصحابة و التابعين . وفي تفسيره بالرأي و الاجتهاد يكون لي وقفة على عنايته بالفقه و أصوله، وعلم القراءات، و اللغة، و النحو، و للشاهد و كل ذلك في خدمة المناسبة القرآنية؛ إذ جل حديثه عن التناسب - كما سألينه لاحقاً - هو من قبيل التفسير بالرأي وبالاجتهاد .

^(١) وسأني تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(٢) انظر ترجمته عند الإمام الشوكاني في البدر الطالع، ١/١٩-٢٢.

أولاً: التفسير بالمأثور:

(أ) تفسيره القرآن بالقرآن:

قال تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ... ﴾^(١).

(ذهب الله بنورهم) أي الذي نشأ من تلك النار بإطفائه لها، و لا نور لهم سواه، ولم يقل: بضوئهم ؛ لئلا يتوهم أن المذهوب به الزيادة فقط، لأن الضوء أعظم من مطلق النور. ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورا ﴾^(٢) فذهب نورهم، وبقيت نارهم ...^(٣).

فالبقاعي في هذه الآية يفسر لفظة بشاهد من القرآن، وهو نمط شائع من تفسير القرآن بالقرآن .

وقال تعالى: ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين ... ﴾^(٤).

"(إنما الصدقات) أي هذا الجنس بجميع ما صدق من أفراده ... (للفقراء) أي الذين لا شيء لهم أو لهم شيء لا يقع موقعا من كفايتهم، (و المساكين) أي الذين لا كفاية لهم بدليل: ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ... ﴾^(٥) وأما: ﴿ أو مسكينا ذا متربة ﴾^(٦) فتقيده دل على أن المطلق بخلافه " ^(٧) .

نلاحظ أن الإمام البقاعي يستشهد في هذه الآية على مصطلح شرعي، ثم يورد ما فيه من إشكال فيؤوله حسب سياق الآية .

(١) البقرة: ١٧

(٢) يونس : ٥

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ١١٩/١

(٤) التوبة : ٦٠

(٥) الكهف : ٧٩

(٦) البلد: ١٦ .

(٧) البقاعي، المصدر نفسه، ٥٠٢/٨ - ٥٠٥ .

هذان مثالان لعناية الإمام البقاعي بالتفسير بالمأثور، وأعلاه تفسير القرآن بالقرآن، على أن استقصاء منهجه في هذا بشكل وحده بحثا مستقلا، ولما كان هدفي هنا هو التمثيل على عناية الرجل بهذا اللون من التفسير، فقد اقتصررت على هذين المثالين مع الإحالة على بعض الأمثلة الأخرى. (١)

(ب) تفسيره القرآن بالأحاديث النبوية الشريفة:

اتبع الإمام البقاعي منهجا واضحا في تفسيره القرآن بالأحاديث النبوية الشريفة، فمرة يذكر تفسير النبي - صلى الله عليه وسلم - للآية، و أخرى ينقل مجموعة من الأحاديث عن الشيخين وأصحاب السنن، وله في الحالتين طرق مختلفة ليس هذا مقام الكشف عنها. ولكن من باب التمثيل أورد ما يلي:

قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَأَنْ شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتُوفَّاهُنَّ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٢)

يقول الإمام البقاعي: " ولما ذكر أمر النساء، أتبعه حكم الرجال على وجه يعم النساء أيضا ... (يأتينها منكم) أي من بكر و ثيب، أو رجل أو امرأة ... و يؤيد أن المراد بهذا، البكر و الثيب من الرجال و النساء: تفسير النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله فيما رواه مسلم و الأربعة و الدارمي عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه -: قد جعل الله لهن سبيلا ؛ البكر بالبكر: جلد مائة و تغريب عام، و الثيب بالثيب: جلد مائة و الرجم. فالحديث مبين لما أجمل في الآية من ذكر السبيل " (٣).

في هذا النص يبدو واضحا أن الإمام البقاعي يستشهد على تبيان حكم مجمل في هذه الآية بتفسير النبي - صلى الله عليه وسلم - له من خلال الحديث الذي أورده. كما يلاحظ -

(١) انظر على سبيل المثال: البقاعي، المصدر نفسه: ٩٣-٩٠/٢، ٢٦٠-٢٥٩، ٢٦٩/٥، ٢٨٧، ٢٩٨، ٣٦٥، ٢٩٣/٧، ٢٨٥/١٠.

٢٢٩-٢٣٠ و غير ذلك.

(٢) النساء: ١٥-١٦.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه: ٢١٧/٥-٢١٨.

وهذه سمة تتسحب على جميع كتابه - عنايته الفائقة بتخريج كل حديث يورده، و هذا يؤكد ما جاء في كتب التراجم من استحقاقه الفعلي للقب "محدث".

و قال تعالى: ﴿و لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ...﴾ (١) .

"... (سيطوقون) ... (ما بخلوا به)، أي يجعل لهم - بوعد صادق لا خلف فيه بعد الإملاء لهم - طوقا بأن يجعله شجاعا: أي حية عظيمة مهولة، تلزم الإنسان منهم، محيطه بعنقه، تضربه في جانبي وجهه (يوم القيامة) ؛ لأن الله - سبحانه و تعالى - يرثه منهم بعد أن كان خولهم فيه، فيجعله بسبب ذلك التخويل عذابا عليهم. روى البخاري - رضي الله عنه في- التفسير عن أبي هريرة - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعا أقرع، له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه- يعني بشدقيه - يقول: أنا مالك ! أنا كنزك! ثم تلا هذه الآية(٢).

فالبقاعي في هذا النص يستشهد على تفسيره للآية بحديث رسول الله - صلى الله عليه و سلم - الذي أورده الإمام البخاري في صحيحه، باب التفسير(٣) .

و لكثرة عناية الإمام البقاعي بالحديث النبوي الشريف؛ سندنا وحكما، فلا بد أن أمثل على ذلك، ثم نخرج بملخص هو خلاصة طرقة في ذكر السند و التخريج(٤).

١. ومن الأحاديث التي أوردها في عداوة بني يهود لجبرائيل، حديث رواه اسحق ابن راهويه في مسنده، قال في آخره: " قال شيخنا البوصيري: و هو مرسل صحيح الإسناد"(٥).

(١) آل عمران : ١٨٠ .

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١٣٧/٥-١٣٨.

(٣) و للمزيد من هذا النمط و غيره، ينظر على سبيل المثال: البقاعي، المصدر نفسه، ٥٣/٣، ٣٧٣، ٤١٨/٥، ٤٥٨، ٤٥٩، ١٣٥/٦، ١٤١/٧.

١٦٧، ٢٤٤-٢٤٥، ٣١٤/٨.

(٤) لقد أكثر في هذه العينة اليقف الفارئ على استحقاق البقاعي للألقاب التي أطنقها عليه المرحوم، كما نعرف عن عتابه بعنه حديث و غيره . على أن جمع الأمانة التالية تنظر في أجزاء "نظم اندرز".

(٥) ٤٣/٢

٢. وفي الحديث عن الغلول يقول: " روى الطبراني في الكبير - قال الهيثمي: و رجاله ثقات - عن ابن عباس...^(١) .
٣. " روى البزار، قال الهيثمي: و رجاله رجال الصحيح، عن عبدالله، يعني ابن مسعود: أنه سئل عن الكبائر فقال:..."^(٢) .
٤. " روى البزار، قال بين الله- سبحانه و تعالى- أن غير المستثنى من التناجي لا خير فيه، وكل ما انتفى عنه الخير كان مجتنباً، كما روى أحمد و الطبراني في الكبير بسند لا بأس به، و هذا لفظه...^(٣) .
٥. أورد حديث الإسلام ثمانية أسهم، ثم قال في آخره: " قلت: و هذا الحديث أخرجه البزار عن حذيفة -رضي الله عنه-، عن النبي- صلى الله عليه و سلم - قال: الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم، و الصلاة سهم، فذكره و صحح الدارقطني وقفه، و رواه أبو يعلى الموصلي عن علي- رضي الله عنه- مرفوعاً...^(٤) .
٦. " وفي سنن أبي داود - يتحدث عن أمر الشاة المسمومة -، و ذكر النبي- صلى الله عليه و سلم- من وجه مرسل أنه قتل اليهودية، و الأول هو الأصح " ^(٥) يعني عدم قتلها.
٧. و عند عرضه لحديث: " دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد و البغضاء قال: "...أخرجه الترمذي و الإمام أحمد و أبو داود الطيالسي في مسنديهما و البزار. قال المنذري و البيهقي: بإسناد جيد. و قال: لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا. رواه الطبراني و رواه ثقات " ^(٦) .
٨. و عند عرضه لأحاديث الرجم، و خاصة عند اليهود قال عقب أحدها: " و سكت عليه أبو داود و الحافظ المنذري في مختصره، و سنده حسن...^(٧) .
٩. و في حديثه عن أمر الشاة المسمومة قال أيضاً: " زاد الدارمي: فقال في مرضه، ما زلت من الأكلة التي أكلت بخبير، فهذا أوان انقطاع أبهري، و هذا مرسل...^(٨) .
١٠. و في الحديث عن المائدة قال: "... و قد اختلف المفسرون في حقيقة هذه المائدة و في أحوالها؛ قال أبو حيان: و أحسن ما يقال فيه: ما أخرجه الترمذي في أبواب التفسير

(١) ١١ / ٥ .

(٢) ٢٦١ / ٥ .

(٣) ٤٠٠ - ٤٠١ / ٥ .

(٤) ٥ / ٦ - ٦ .

(٥) ٦ / ٦ .

(٦) ١١٦ / ٦ .

(٧) ١٤٩ - ١٥٠ / ٦ .

(٨) ٢٣٣ / ٦ .

عن عمار بن ياسر...قلت: ثم صحح الترمذي وقفه على عمار و قال: لا نعلم للحديث المرفوع أصلاً، غير أن ذلك لا يضره لكونه لا يقال من قبل الرأي، و لا أعلم أحداً ذكر عماراً فيمن أخذ عن أهل الكتاب، فهو مرفوع حكماً...^(١).

١١. و في حديث من أحاديث السيرة قال: " روى الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما...قال الهيثمي: وفي سنده النضر؛ أبو عمر وهو متروك"^(٢).

١٢. أورد حديثاً برواية أبي داود و الحاكم في المستدرک ثم علق عليه بقوله: " قال الحافظ أبو شامة: هذا حديث حسن..."^(٣).

١٣. ذكر حديث إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات و الأرض ثم قال: " و هو حسن إن شاء الله تعالى، ثم رأيت الهيثمي في مجمع الزوائد قال: رجاله ثقات فأكد ذلك الجزم بما فهمت من أنه حسن"^(٤).

وفي وصف لما مثلت به، نلاحظ أن الإمام البقاعي قد يورد الحديث ويحكم عليه من جهة سنده: مرفوع^(٥)، رجاله رجال الصحيح^(٦)، حسن^(٧)، مرسل^(٨)، جيد^(٩)، إسناده لا بأس به^(١٠)، ضعيف^(١١)، متروك^(١٢)... الخ. وقد يورده وحكمه من قبل من رواه في سننه أو مسنده^(١٣)، وفي أحيان أخرى يتعقب حديثاً سكتوا عنه فيحكم عليه^(١٤)، و لا يكفي بذلك بل في كثير من الأحيان أيضاً يحكم على الحديث بشهادة نقاده مثل: المنذري (ت ٦٥٦هـ)^(١٥)، الحافظ أبو شامة (ت ٦٦٥هـ)^(١٦)، النووي (ت ٦٧٦هـ)^(١٧)، الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)^(١٨)، شيخه البوصيري

^(١) ٣٥٩ / ٦

^(٢) ٦٣ / ٧

^(٣) ٣٥٩ / ٨

^(٤) ٤٦٨ / ٨

^(٥) ١١٩٤ / ٦، ١١٩٤ - ٥ / ٦، ٣٥٩، ٦ - ٥

^(٦) ٢٦١ / ٥، ٦٦

^(٧) ١٤٩ / ٦، ١١٥٠ - ٧ / ٣٥، ٣٦ - ٢٢ / ٤١٨ - ٤١٩

^(٨) ٢٣٣ / ٦، ٤٣ / ٢

^(٩) ٢١٩ / ٥

^(١٠) ٤٠١ - ٤٠٠ / ٥

^(١١) ٣١، ٢٧ / ٦

^(١٢) ٦٣ / ٧

^(١٣) ٦٨ / ٧، ٤٣ / ٢، ١١٩٤ / ١

^(١٤) ٤٦٨ / ٨، ٣٥٩، ٦ - ٥ / ٦

^(١٥) ١٥٠ - ١٤٩، ١١٦ / ٦

^(١٦) ٣٥٩ / ٨

(ت ٨٤٠هـ)^(١). على أن هذا النقل لتلك الشهادة أو ذاك الحكم، قد يكون مباشرا دون ذكر العلة، وقد يكون بذكرها كما لاحظنا.

وعلى كل هذا ما يسعني أن أقدمه في هذه العجالة التي أود أن أختتمها، وبعد الاطلاع التام على نظم الدرر بالتقرير، والدعوة إلى الاهتمام بمنهج الإمام البقاعي في عرضه للأحاديث النبوية وطرق الحكم عليها. وربما يكون من الطيب أن أنبه أهل الحديث خاصة، والباحثين بعامة إلى ضرورة قيام رسالة علمية مثلا بعنوان: الصناعة الحديثية عند الإمام البقاعي في نظم الدرر: دراسة نقدية؛ إذ تبدو هذه الأهمية في تكامل عناصر هذه الصناعة عنده، ناهيك عن كونه من أنجب تلاميذ الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني؛ صاحب الفتح.

(ج) تفسيره للقرآن بالصحابي والتابعي:

يعد التفسير في عصر الصحابة والتابعين من المرتبة الثالثة بعد تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالأحاديث النبوية الشريفة، والأول - أعني التفسير في عصر الصحابة - أعلى رتبة من الثاني، لقربه من عهد النبوة، ومعاصرتهم لكثير من أسباب نزوله، على أن الصحابة أنفسهم - رضوان الله عليهم أجمعين - ليسوا سواء في ذلك، بل هم متفاوتون في أمر التفسير، فأشهرهم بذلك: الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب (ت ٢١هـ)، وابن مسعود (ت ٣٢هـ) وأبو موسى الأشعري (ت ٤٤هـ)، وزيد بن ثابت (ت ٤٥هـ)، وابن عباس (ت ٦٨هـ)، وعبد الله بن الزبير (ت ٧٣هـ). وأشهر هؤلاء جميعا، صاحب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم - حبر هذه الأمة؛ عبد الله بن عباس، يليه في ذلك الإمام علي، وابن مسعود. ورغم علو شأن هذا التفسير، إلا أنه من القلة بمكان، ليس غفلة منهم عن كتاب الله، بل لسلامة لغة القوم، وصفاء عقيدتهم آنذاك.

أما عهد التابعين خير العصور بعد عصر الصحابة، فقد تميز بكثرة الخلافات المذهبية، واعتماد أخبار الأمم السالفة عند بعضهم، وكذلك انفلاق بذرة التفسير بالرأي، على أن أشهر مفسريهم آنذاك: سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ)، ومجاهد (ت ١٠٤هـ)، وعكرمة (ت ١٠٥هـ)، وطاووس (ت ١٠٦هـ)، وعطاء (ت ١١٤هـ) وكلهم في مكة؛ من قادم لمجاورة البيت العتيق، أو تلميذ لمدرسة ابن عباس. أما المدينة - على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم - فقد اشتهر فيها: أبو العالية (ت ٩٣هـ)، ومحمد بن كعب القرظي (ت ١١٨هـ) وزيد بن أسلم

-- (١) ٢٢ / ٤١٨ - ٤١٩.

(١) ٥ / ١١١ / ٨، ٤٦٨ / ١٥، ٤٢ / ٢٢، ١٢٣ - ١٢٥.

(١) ٢ / ٤٣.

(ت ١٣٦هـ). وفي الكوفة والبصرة كان علقمة بن قيس (ت ٦٢هـ)، ومسروق (ت ٦٣هـ)،
والحسن البصري (ت ١١٠هـ)، وقتادة (ت ١١٨هـ)، وغيرهم ممن تفرق في البلاد لنشر دين
الله^(١)، وهم خلق كثير، ليس هذا مقام حصرهم، بل هو مجرد ذكر؛ ليعرف القارئ إذا فتح
موسوعة "تظم الدرر" أن الإمام البقاعي قد اهتم بهذا الأمر، فيقف على الصحابي، والتابعي،
ويرى طريقة إفادته من تفاسيرهم - رضي الله عنهم أجمعين -^(٢).

(١) أنظر: فضل عباس، إتقان البرهان، ٢/٢٢٥-٢٢٨، ٢٣٢-٢٣٦.

(٢) ينظر على سبيل المثال لما تقدم هذه الصفحات - فقد نقل عنهم كثيرا ولا حاجة لاستعراض الأمثلة -:

٣٧/٢، ١٤٣، ٢٤/٣، ٢٩، ٩٢، ٢١٩، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٩٧، ٥٧/٥، ١٩٤، ٥٨/٦، ٢٢/٨، ٩٣، ٣٣٢، ٣٣٩،
٣٨٣، ٣٨٨، ٣٩٠، ٤٠٠، ٢٩/٩، ٣٧، ٢٨٦، ٣١/١٠، ٦٨، ٧٨، ٢١٦، ٢٤٧، ٣٦٢... الخ

ثانياً: التفسير بالرأي أو الاجتهاد:

أ- عنايته بالمسائل الفقهية والأصولية:

يستعين الإمام البقاعي في تفسيره للآيات القرآنية، وخاصة آيات الأحكام، بأراء الشافعي، وشيوخ المذهب أيضاً، على أنه يناقش بعض هذه الآراء، وقد يرددها، وله في نقله هذا منهج واضح، رصدت منه هذه العبارات^(١):

١- قال الشافعي^(١).

٢- جوز الشافعي^(٢).

٣- وهي من أدلة إمامنا الشافعي^(٣).

٤- ومذهب الشافعي^(٤).

٥- قال البغوي، أو ذكر ذلك البغوي^(٥).

٦- قال شيخ الإسلام محيي الدين النووي^(٦).

وكما أشرت، قد ينقل الإمام البقاعي رأي الشافعية مع تعليق وحيث عليه^(٧)، ولكنه قد

ينقد أيضاً ويناقش ويرجح، أو حتى يجتهد فيعطي الحكم بنفسه دون الحاجة للنقل^(٨).

^(١) تنظر جميعها عند البقاعي، المصدر نفسه، من الأجزاء التالية:

(١) ٣٢٦/٢، ٢٧١/٥، ٢١٦/٦، ٤٣٦/٨، ٥٠٤، ١٠٨/٢٠.

(٢) ٢٨٨/٥.

(٣) ١٥٥/٢٢، ٦٥/٥.

(٤) ٢٣٦/٥.

(٥) ٣٧١/٣، ١٢٨/٦، ٤٣٠/٨، ٤٣١-٤٣٠، ٥١٥/١٩.

(٦) ٢٤٨/٧، ٢٥٠.

(٧) انظر على سبيل المثال دراسته للآيات التالية "في نظم الله":

- (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام... أياما معدودات) البقرة: ١٨٣-١٨٤، ٤٦/٣.

- (والمطلقات يترصن بأنفسهن ثلاثة قروء، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن...) البقرة: ٢٢٨، ٢٩٨/٣-

٢٩٩.

- (إنا خفتم فرجالاً أو ركبانا...) البقرة: ٢٣٩، ٣٧١/٣.

- (ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح اغصنات فمن ما ملكت إيمانكم من فتياتكم المؤمنات) النساء: ٢٥، ٢٣٦/٤.

- (يسألونك ماذا أحل لهم، قل أحل لكم الطيبات، وما علمتم من الجوارح مكيلين...) المائدة: ٤، ٢١/٦.

- (إنما جزاء الذين يحاربون الله...) المائدة: ٣٣، ١٢٩/٦.

- الأنعام: ١٩، ٤٢/٧، ٧٦-٦٩.

- الأنعام: ١٢١، ٢٤٦/٧، ٢٤٨-٢٥٠.

- براءة: ٦٥، ٥٠٤/٨، ٥٠٧.

- النور: ٣، ٢٠٧/١٣، ٢١٠.

(٨) انظر مثلاً عرضه للآيات التالية: =====

هذا بالنسبة للمسائل الفقهية، أما فيما يتعلق بأصول الفقه، فإنه يشير إلى أدلة ومصطلحات أصولية حين يعرض للآية التي تحمل ذلك، ولا يقتصر على هذا بل يناقش ويرجع ويرد^(١).

-
- =====
- (١) انظر على سبيل المثال:
- «ويسألونك عن المحيض... ويجب المتطهرين» البقرة: ٢٢٢، ٢٧٦/٣.
 - «وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله...» النساء: ٩٢، ٣٦٣/٥.
 - «يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع...» الجمعة: ٩، ٦٥/٢٠-٦٦.
 - «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء... ومن يتق الله يجعل له مخرجاً» الطلاق: ١-٢، ١٤٧/٢٠-١٤٩.
- «الحديث عن مسألة التكليف» ٩٤/١.
- «الحديث عن قاعدة أصولية» ٢٢١/١.
- «دلالة تعبير ما في النص على حكم شرعي» ٣٢٤/٣.
- «عرضه للمباح والمنطوق والمفهوم» ٦٩/٥.
- «حديثه عن التخصيص والإجمال» ١٧٩/٥.
- «استدلّاه من الآية على أن القياس حجة» ٣٤٣-٣٤٢/٥.
- «حديثه عن الإجماع» ٣٥١/٥.
- «استدلال من الآية على أن الإجماع حجة» ٤٠٣-٤٠٢/٥.
- «إشارة إلى إمكانية استخدام اللفظ في الحقيقة والحجاز» ٢٨/٦.
- «إشارة إلى أن دلالة الظاهر دلالة ضمنية» ٧٥/٧.
- «استدلال من الآية على حجة قبول خير الواحد» ٤٧/٩.
- «حديث عن الإجماع، وعن الخاص والعام» ٢١٠/١٣.
- «إشارة إلى المشترك اللفظي عند الأصوليين» ١٥٥/٢٢.

(ب) عنايته بالقراءات القرآنية:

أظهر الإمام البقاعي في تفسيره عناية فائقة بالقراءات القرآنية، فقد وظف هذه القراءات في خدمة المعنى التناسبي أيما توظيف، حيث إنه ليقف على التناسب في أي وجه من القراءات ويظهره، ومن منهجه في عرض القراءات القرآنية ما يلي:

- ١- تخريجه للقراءة القرآنية اعتمادا على اللغة والنحو^(١).
 - ٢- تأويله للمعنى حسب القراءة القرآنية^(٢).
 - ٣- أحيانا يرجح قراءة على أخرى^(٣).
 - ٤- ذكره للقراءة القرآنية دون التعليق عليها^(٤).
- وغير ذلك مما يستخرج من تتبع ذكره للقراءات القرآنية وهو كثير جدا.

(١) انظر على سبيل المثال: ١٢٩/٢-١٣٤، ٢٠٠/٢٦٩-٢٧٠ عند الآيتين ١١٧، ١٥٨ من سورة البقرة، انظر ذلك ترى مثالا واضحا على اعتماده النحو، ونقائه، وترجيحه، واستخراجه لأكثر من معنى تناسبي بناء على توجيهه للقراءة القرآنية. وانظروا أيضا على سبيل المثال:

٣٠١/٦، ١٩٥/٨-١٩٦، ٢٣٤-٢٣٥، ٣١١، ٣٧٣، ٣٨٩/٩، ١٥/١٠، ١٣١/١٤، ١٧٠، ١٧٩، ١٨٥، ٢٠١-٢٠٢، ٢٠٤، ٢٢٢/٤، ١١٦، ٢٦٤.

(٢) انظر على سبيل المثال:

٩٤/٢، ٢٣٣/٢، ٢٦٣/٤، ٢٣٣/٥، ٤٩٩، ٩/٦، ٢٠٧/٧، ١٣٦/٨، ٢٠٦، ٣١٣، ٤٥٣، ٢٦/١٠، ١٥٣-١٥٢، ١٢٣/١٢-٢٣٤، ١١٠/١٤، ١١٣، ١٥٠/١٤، ١٥١، ١٩٢، ٢٦٥، ٢٩٣، ٤١٤، ٤٢٣، ٤٦٤، ١٥٤/١٦، ٢٤٦/١٨، ٤٩٢-٤٩١/٢٠، ٢٣/٢٢، ٢٤، ٥٤، ١٨١، ٢٤٥، ٢٥٠، ٣٥٥.

(٣) انظر على سبيل المثال:

١٢٦/٢، ١٦٦، ٤٧٠/٤، ٤١١/٥، ١٧٤/١٢، ٤٠٠/١٣، ٣٠٩/١٤، ٣١٠، ٩٧/١٧، ٩/٢٢، ٤١-٤٢، ٤٤، ٨٤، ٣٤٢.

(٤) انظر على سبيل المثال:

٢٣٨/٥، ٢٧٩/١٠، ٣٥٩/١٣-٣٦٠، ١٦/١٤، ٧٢، ٩٠، ٢٨٢، ١٩/٢٢.

(ج) عنايته باللغة:

للإمام البقاعي اهتمام واضح باللغة؛ إذ لا نكاد نسير معه بعيدا في تفسيره إلا ويظالنعسا بنقاش لغوي لمفردة من المفردات، فإذا أنعمنا النظر في عرضه للمفردة، تداعى إلى أذهاننا ابن جني في خصائصه، عندما طرق بابا أنفا في الفصل بين الكلام والقول؛ وذلك من خلال الاشتقاق والتصريف مع تقلاب حروف كل كلمة، وبمنهج واضح أيضا وسبيل قوامه الشاهد والدليل، وبالتالي فهو موضع: "يتجاوز قدر الاشتقاق، ويعلوه إلى ما فوقه، وستراه فتجده طريقا غريبا، ومسلكا من هذه اللغة الشريفة عجيبا"^(١).

ولقد اعتمد الإمام البقاعي هذا المنهج -وبكل وضوح- في عرضه لجل المفردات، حتى كانت المفردة الواحدة تأخذ منه صفحات وصفحات -كما سنرى بعد قليل-، فيبدوك بتقرير مفاده: إن الكلمة مهما تقلبت وتصرفت فإنها تدل على معنى كذا وكذا، ثم يستعرض تلك التقلبات معتمدا في ذلك أقوال أئمة اللغة؛ من علماء المشرق والمغرب على السواء، وفي أحيان أخرى قد يذكر لك كل تقلب المفردة من محفوظه وحده دون الإشارة إلى أي إحالة تنكر^(٢)، وهو إذ يقول بهذا فإنه يقف وقوفا تاما على حروف الكلمة، فأنها وعينها ولامها، ويكشف ما يعثور كلا من إشكال^(٣). وقد يبدو هذا المنهج غريبا مستوحشا كما ألمح إلى ذلك ابن جني^(٤). لكنه وبمزيد تأمل ودقة نظر كليل بأن يريك البعيد قريبا، والقريب جميلا:

"وعلى أنك إن أنعمت النظر ولاطفته، وتركت الضجر وتحاميته، لم تكد تعدم قرب بعض من بعض، وإذا تأملت ذلك وجدته بإذن الله"^(٥).

وقد تتبعت الإمام البقاعي في تفسيره، فألفيته قد تناول أكثر من مائة كلمة على هذه الشاكلة، مما أخذ مساحة كبيرة جدا من تفسيره، الأمر الذي جعله يحذف هذه المفردات؛ -أعني تناوله لتقاليبها- من مختصره على نظم الدرر.

(١) ابن جني، الخصائص: ٥/١.

(٢) انظر: أجل: (٣٧٦/٩-٣٨٠)، شري: (٣٧/١٠-٤٦)، صلصال: (٤٤/١١-٤٨)، عمير: (٩٩/١٠-١٠٩)، علا:

(١٨٢/٥-١٩٠)، فراء: (٤٨٠/١١-٤٨٦)، القري: (٢٤٧/١٠-٢٥٢)، المنقشة: (٣٥٠/٨-٣٥٥)، الخال:

(٢٩٦/١٠-٣٠٠).

(٣) انظر على سبيل المثال وقوفه على كلمة (فراء): (٤٨٠/١١-٤٨٦).

(٤) انظر ابن جني، المصدر نفسه: ١٢/١.

(٥) انظر: ابن جني، المصدر نفسه، ١٣/١.

وعلى كل، فإني أمل أن يفيد القارئ من بديع عرضه لتغاليب هذه المفردات، ووقوفه التام على معانيها، وتصاريغها، وليس هذا بالنشاز؛ إذ هو أحد أركان الأدب؛ فيه يعرف سعة كلام العرب، ويتدرج من خلاله إلى اللغة العربية، ويتوصل إلى حال العويصات الأدبية^(١).

أقول: إذا ضمنت إلى هذا الذكر، حديثي في مقدمة عنايته باللغة، وفتت على معجم طيب- إن شاء الله تعالى - يشي بجليل عنايته بمفردات العربية في نظمه، وهذا ما أحصيت له:

أجل: (٣٨٠-٣٧٦/٩)	شدد: (٥٥/١٠)	قرأ: (١٠-٦/١٠)
أذن: (٣٢٨-٣٢٢/٨)	شرب: (٢١١-٢١٠/١٠)	تقر: (٢٥٢-٢٥١/١٤)
بدأ: (٤١٥/١٤)	شرد: (٣١١-٣١٠/٨)	قرض: (٢٨-٢٦/١٢)
برج: (٣٢-٣٠/١١)	شري: (٤٦-٣٧/١٠)	قري: (٢٥٢-٢٤٧/١٠)
بطر: (٣٢٨-٣٢٧/١٤)	شغف: (٧١/١٠)	قشقس: (٣٥٥-٣٥٠/٨)
بلى: (٢٤٤/٨)	شكر: (١٤٨-١٤٥/٢٢)	قصد: (١١٥-١١٢/١١)
بال: (١٢٥-١١٧/١٠)	صعق: (٥٥٧/١٦)	قنت: (٣٧٠-٣٦٧/٣)
بيع: (١٣٠-١٢٦/٤)	صل: (٤٨-٤٤/١١)	كتب: (١٠-٤/١١)
تقف: (١٠٩/٣)	الصنوان: (٢٨٠-٢٧٩/١٠)	كظم: (١٩٨-١٩٧/١٠)
جند: (٤٥/١٦)	صلا: (٣١٠-٣٠٣/١٠)	الكهولة: (٣٩٩/٤)
جفا: (٣٢٤-٣١٩/١٠)	الضحى: (٧٠/٢٢)	لحن: (٢٥٥-٢٥٤/١٨)
جرم: (٢٦٣-٢٥٩/٩)	الضريع: (٧-٥/٢٢)	لقم: (٤٠-٣٧/١١)
خرج: (٢٦٢-٢٥٩/٧)	ضعف: (٤٨٨-٤٨٧/١١)	محل: (٢٠٠-٢٩٦/١٠)
حفد: (٢١١-٢١٠/١١)	طغى: (٣٩٣-٣٩٢/٩)	معن: (٢٨٣/٢٢)
حمد: (٢١٨-٢١٧/١١)	طلح: (٢٠٨-٢٠٧/١٩)	الميسر: (٢٥٩-٢٤٣/٣)
حاق: (١٥٣-١٥٠/١١)	عبر: (١٠٩-٩٩/١٠)	النجد: (٥٨/٢٢)
الدمنة: (٨٢/٢٢)	عسى: (٤١٥-٤٠٤/٨)	نجس: (٤٧-٤٦/١٠)
رتب: (٣٣٤-٣٣١/٢٢)	العقر: (٣٦٩-٣٦٨/٤)	النصيب: (٣٤٩-٣٤٨/٥)
رود: (٦١-٥٦/١٠)	علا: (١٩٠-١٨٢/٥)	ويق: (٨٧-٧٩/١٢)
زيد: (٣١٦-٣١٥/١٠)	عال: (١١٠/٢٢)	وثق: (٤١١-٤٠٧/١٤)
زقم: (٢٠٦/١٩)	غسق: (٤١٠-٤٠٩/٢٢)	ورق: (٣٨-٣٢/١٢)
سبح: (٢٤٦-٢٤٣/١٠)	غفل: (٩/١٠)	وزع: (١٤٥-١٤٤/١٤)
سرق: (١٧٦-١٧٣/١٠)	غل: (١١٢/٥)	وسط: (٢١١-٢٠٧/٢)
سقم: (٢٥٦-٢٥٤/١٦)	غنى: (١٦٦-١٦٣/١٠)	وفر: (٤٦٩-٤٦٤/١١)
سن: (٥٣-٤٨/١١)	فتى: (٢٠٣-٢٠٠/١٠)	وقر: (٤٣٦-٤٢٩/١١)
شجر: (١١٨-١١٧/١١)	فرق: (٢٦٥-٢٦٣/٨)	ويل: (٣٥٧/١٤)
الشح: (٣١٩-٣١٥/١٥)	فرا: (٤٨٦-٤٨٠/١١)	

(١) انظر شرح هذا الكلام -الذي يسب لنجداني- من: أبو علي، دراسات في الأدب، ص ١٦٧.

(د) عنايته بالمسائل النحوية والصرفية:

من المعلوم أن التمكن في هذين العلمين من الأسس الرئيسية التي تعين المفسر في تفسيره، بل هما شرطان رئيسان للتصدي لعلم التفسير. وعلى كل فقد عرض الإمام البيهقي لمسائل نحوية وصرفية في كتابه، وكان عرضه لهذه المسائل على هيئة نقاش وترجيح، إذ إن أغلب المسائل التي وقف عليها، فيها خلاف طويل بين النحاة أنفسهم^(١).

(١) وللإطلاع على نقاشه هذه المسائل النحوية الصرفية، ينظر على سبيل المثال ما يلي من "نظم الدرر":

١. عند عرضه لقوله تعالى: «وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» (البقرة: ١١٧) فقد فصل القول نحويا وصرفيا، وحتى قراءة في كلمة (يكون) ١٢٩/٢-١٣٤.
 ٢. وعند عرضه لقوله تعالى: «فلا جناح عليه أن يطوف بهما» (البقرة: ١٥٨) انظر هذا الجزء من "الآية"، ترى نحوه وقراءة تفصيلية تامة لب (أن يطوف) ٢٦٨/٢-٢٧١.
 ٣. وعند عرضه لقوله تعالى: «وكأين من نبي قاتل معه ربيون» (آل عمران: ١٤٦) فقد ناقش هذا الجزء من الآية وخاصة كلمة (كأين) نحوه وقراءة، بل لقد صنف فيها مؤلفا منفردا، ٨٥/٢-٨٦.
 ٤. نقاشه لأل الجنية والمهدية، ٣/٧.
 ٥. نقاشه لكلمة (أرأيت)، ١١١/٧-١١٢.
 ٦. ونقاشه الطويل نحوه وقراءة لقوله تعالى: «فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين» (الأعراف: ١٩٤) ١٩٥/٨-١٩٦.
 ٧. نقاشه لقضية وضع النحو العربي من قبل أبي الأسود الدؤلي: ٣٧٥/٨-٣٧٧.
 ٨. نقاشه الطويل لكلمة عسى، لغة ونحو، وذلك في قوله تعالى: «فعمى أولئك أن يكونوا من المهتدين» (براءة: ١٨) ٤٠٣/٨-٤١٦.
 ٩. نقاشه وترجيحه للأراء النحوية في كلمة "رب" من قوله تعالى: «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» (الحجر: ٢) ١١/١١-١٥.
 ١٠. عرضه لـ (إن) في قوله تعالى: «وإن نظنك لمن الكاذبين» (الشعراء: ١٨٦) وبيانه للفرق بينهما وبين إن الثقيلة، ٨٩/١٤-٩٠.
 ١١. وانظر دراسته للاشتاء في قوله تعالى: «قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله» (النمل: ٦٥) ٢٠١/١٤-٢٠٢.
 ١٢. وعرضه لمسألة (ويكأن) من قوله تعالى: «وأصبح الذين آمنوا يكلمون ويكأن» (القصص: ٨٢) ٣٦٠/١٤-٣٦١.
 ١٣. وانظر أيضا نقاشه للعدد، وهل السعة هي آخره، وذلك في قوله تعالى: «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» (الحاقة: ١٧) ٣٥٥/٢٠-٣٥٩.
- وينظر أيضا: ٤٠/١، ١٣٨/٢، ٣٧٦/٣، ٢٩٤/٥، ١٠٩/٧، ١١٢، ٣٥٩، ٣٢٧/٩، فهذه اختيارات أخرى، للوقوف على منهجه في التعامل مع المسائل النحوية. وينظر من جهة "الصرف" أيضا: ٨٤/١، ١٠٦/١، ٤١٠، ١٥١/٢-١٥٢، ٣٦١/٧، ٢٧٧/٩، ٢٧٤/٨، ٢٨٦... الخ وغيره من قسم عنايته باللغة.

(هـ) عنايته بالشاهد الشعري:

نتعرف في هذا المقام على منهج البقاعي في عرضه للشاهد الشعري من خلال كتابه الموسوم بـ: "نظم الدرر"، فلقد تبين لي من آثار البقاعي أنه صاحب عناية فائقة بالأدب العربي بل ما فتئ أصحاب كتب التراجم ينبهون على كثرة شعره وحسنه^(١).
اهتم الإمام البقاعي كثيره من المفسرين بذكر الشاهد وهو الشعري هنا- في كثير من صفحات كتابه، ولكنها ليست بالكثرة التي عند ابن عادل (ت ٨٨٠هـ) في تفسيره ولا حتى

(١) للتعرف على شعر الإمام البقاعي نقتبس بعض ما جاء في كتب التراجم، فقد ذكر السخاوي والشوكاني جزءا من مرثيته التي مطلعها:

نعم إنني عما قريب لمت ومن ذا الذي يبقى على الحدثنان(الضوء ١٠٧/١-١٠٨)، (البدو: ٢١/١-٢٢)

فهي قصيدة طويلة يرثي فيها نفسه قبل موته على غرار بعض الشعراء أو العلماء، قال السخاوي:

"ومن رثي نفسه قبل موته أبو العباس بن ناقة الكوفي...،

وكم شامت بي إن هلكت بزعمه وجاذب سيف عند ذكر وفاتي

ولو علم المسكين ماذا يصيبه من الذل بعدي مات قبل مماتي" (الضوء ١٠٨/١)

ونقلا عن ترجمة السخاوي له أيضا قوله في الفخر:

"يا من يكلفني بالذل والملق أقصر فديتك ليس الذل من خلق

إننا بنو حسن والناس تعرفنا وقت الزوال وأسد الحرب في حنق

كم جنت فقرا ولم يسلك به بشر غيري ولا أنس إلا اليف في عقي"

(الضوء: ١١٠/١-١١١)

وقوله وقد ضجر الأصحاب:

"ما بال قلبك قد زادت قسارته فما تزال بأدنى الغيظ منتقما

فاكظمه عفوا وأحسن راحا أبدا فرحة الله مخصوص بما الرحا

وفي نفس الغرض أيضا:

إن رمت عيشا صالفا أزمانا فاعمل بمهذي الخمس تعظم شأننا

اصفح، تحب، دار، واصبر، واكتم الشحنة قد أوصى بما عنمانسا

وقوله وقد عبر بكثرة ملازمته للشيوخ:

إذا عاب العذول علي فعلي وقال إلى مني هذا التغالي

تطوف الأرض تجمعها شيوخا أقول له لتحصيل الكمال" (الضوء ١١١/١)

وقوله على ما ذكره السيوطي في نظم العقيان ص: ٢٥

لنعبد يجري الأجر بعد الموت في تسع كما قال النبي المصطفى

إجراء نمر، حفر بئر، غرس نخد ل، نشر علم، والتصدق في الشفا

وبناء بيت لابن السبيل ومسجد ويتركه ابنا صالحا أو مصحفا

ومن لطيف شعره في الغزل على ما ذكر السيوطي في المصدر نفسه ص: ٢٥

ربي زركشي أحيف القد أحور مجياد يزجو بالمدور الطوائع

تعلم جفني من بدائع حسنه فذهب عهدي من دماء مدامعي

وله في التشبيه أيضا:

ولما رأيت البدر ألقى شعاعه على نيل مصر والسفين بنا تجري

تخلنه قمر يسر بسرنا من النضة البيضاء في حة البحر

كالتي عند القرطبي (ت ٦٧١هـ) من قبل. ومع ذلك فقد رصدت له مجموعة من الطرق في هذا المجال. فهو أحيانا يذكر الشاعر، وأحيانا أخرى لا يذكره، على أن له في كلتا الحالتين منهجا واضحا.

فمثلا فيما يتعلق بذكر الشاعر، قد يعطي حكما قيميا، ثم يصرح باسم الشاعر، وينص على الشاهد من شعره^(١). وقد يتكلم في معنى كلمة أو شرح مسألة، أو حتى تفسير آية، أو يعرض لنكتة فيها، ثم يستشهد على ذلك ببيت، أو مجموعة أبيات من الشعر، مع نسبتها لقائلها^(٢). وقد يكون إيراده للشعر، ونسبته لقائله في ثانيا قصة أو حدث، وفي أغلب الأحيان يكون في ذلك إحالة على كتاب^(٣). وقد يورد الإمام البقاعي لغة قوم، ثم يستشهد عليها بأحد شعرائهم. أو يكون ذلك حدثا فيستشهد بشاعرهم عليه لكن دون ذكر اسمه^(٤)، أو يقول: وهذا

(١) مثال ذلك عندما عرض لتفسير قوله تعالى: «ولئن تم أو قلتم لإلى الله تمشرون» آل عمران: ١٥٨ قال عقبها: وما أحسن ما قال عترة في نحوه وهو جاهلي، فالؤمن أولى منه بمثل ذلك:

بكرت تخوفني الخوف كأنني أصبحت عن غرض الخوف بمزل
فأجبتها إن النية منهبل لا بد أن أسقى بكأس النهل
فاقني حياءك لا ابالك واعلمي أني امرؤ ساموت إن لم أقل (١٠٦/٥)
وانظر مثله، ٩٩/١، ١٢٧/٦، ٢١٣/١٤، ١٦٥/٢١، ١٦-١٥.

(٢) مثال ذلك عندما تحدث عن معنى (وسطا) في سورة البقرة قال: أي شريفة خيارا؛ لأن الوسط: العدل الذي نسبة الجوانب كلها إليه سواء، فهو خيار الشيء، قال أبو تمام الطائي:

كانت هي الوسط المحي فاكتفت بما الخواص حتى أصبحت طرفا (٢٠٦/٢)
وانظر مثال ذلك أيضا: ٢٤٧، ٢٢٥، ٢٩٣/٥، ٤٣٤/١٠، ٢٠٧/١١، ٢٦٥، ٢٢٦/١٣، ٢٤٧، ٣٦٠/١٤، ١٧٤، ٣٨/١٥، ٣٦٦، ١٢٤/١٦، ١٦٥، ١٦٩، ٢١٨، ٢٣٢، ٢٠٢/١٧، ٢١٨/١٨، ٢٥٤، ٤٢٢، ١٩٥/٢١.

(٣) مثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: «ولكن الله ذو فضل على العالمين» البقرة: ٢٥١. وما يشتد اتصاله بهذه القصة ما أسنده الحافظ أبو القاسم بن عساكر في الكنى من تاريخ دمشق في ترجمة أبي عمرو بن العلاء عن الأصمعي قال: أنشدنا أبو عمرو بن العلاء قال: سمعت أعرابيا ينشد، وقد كنت خرجت إلى ظاهر البصرة مفرجا مما نالني من طلب الحجاج واستخفاني منه:

صبر النفس عن كل ملم إن في الصبر حيلة الختال
لا تضيقن في الأمور فقد يكشف لأواؤها بغير احتيال
ربما تجرع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقسال
قد يصاب الجبان في آخر الصف وينجو مقارع الأبطال

فقلت ما وراءك يا أعرابي؟ فقال: مات الحجاج، فلم أدر بأيهما أفرح بموت الحجاج أم بقوله: له فرجه، لأنني كنت أطلب شاهدا لاختياري القراءة في سورة البقرة (لا من اغترف غرفة) البقرة: ٢٤٩... انتهى (٤٤١/٣-٤٤٢). وانظر أيضا:

٢٠٨/١١، ٢٦٥/١٢، ٢٩٨، ٢٢٥/١٣، ٤٣، ٣٩/١٥، ٣١٧/١٦، ٣١٨-٣١٧/١٦، ٣٣١/١٦، ٩٦-٩٥/١٨، ٥٦/٢١.

(٤) مثال ذلك: عند تفسيره لمعنى "قارة" فقد ذكر مجيها بمعنى قبيلة قال: "لأن ابن الشداخ أراد أن يفرقهم فقال شاعرهم:

دعونا قارة لا تدعرونا فيجفل مثل إجنال الظنيم

فسموا القارة بهذا، وكانوا رماة. (٣٨/١٢)

من باب قول القائل، أو من وادي قول القائل^(١). وفي أحيان أخرى قد يذكر قضية، أو يؤول مسألة، ثم يستشهد عليها ودون ذكر للقائل أيضا^(٢).

هذا وقد يورد الإمام البقاعي شعرا في كلام غيره^(٣)، وقد ينظر أيضا في الآية أو المسألة، وخاصة إذا كانت تضم مجموعة أو أكثر من شيء فينظمها ليسهل حفظها^(٤).

كل هذه وغيرها أساليب وصيغ يستخدمها البقاعي إذا ما ذكر بيتا من الشعر، منوعا في ذلك كل مرة حسب المسألة التي يعرض لها، وحتى إن ترك اسم الشاعر فإنه يستخدم لذلك صيغا كثيرة أخرى كما سبق وذكر^(٥).

وعلى كل فهذه نبذة قصيرة أرجو أن يتعرف القارئ منها عناية الإمام بالشواهد الشعرية أيضا في كتابه، إضافة إلى محاولته تسهيل حفظ بعض المعلومات بنظمها، أو الاستشهاد عليها

وانظر أيضا: ٣٤٠/٨، ٢١٩/١٦.

(١) مثال ذلك:

عند تفسيره لقوله: «لؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه» الفصح: ٩.

... فهو عن إطلاق الملزوم على اللازم، وهو من وادي ما قيل:

عداي لهم فضل علي ومنة فلا أذهب الرحمن عني الأعادي

هم بحثوا عن زلي فاجتنبها وهم نافسوي فاقنيت المعالي (٢٩٣/١٨)

وانظر أيضا: ١٤٦/٤، ٣/٨، ٢١١/١٣.

(٢) ومثال ذلك: استشهاده على أن الإنسان إذا شاب، ولم يفد من شابهه أمرا، ثم حاول ذلك متأخرا، يقول: فالعرب لم تقل هذا جزاها بل بناء على معرفة،

"ولذلك قالوا: إذا المرء أعيت المروءة ناشئا فمطلبها كهلا عليه شديد (١٦٢/١٦)

وانظر أيضا "نظم الدرر": ٢٥٨/١، ١٢٩/٢، ٢٨٩/٤، ٥٢/٩، ٣٩٧، ٥٥/١٠، ٦٥/١٠، ٢٥٠، ١٨٠/١١، ٢٦٥،

٢٨٤، ٤١٤، ١٢٥/١٣، ١١٢/١٤، ١٤٨، ٩٧/١٥، ٣٥٦، ٣٦٧، ٢٣٥/١٦، ٢٦٥/١٦، ١٨٠/١٨، ٢٤٦

٣٥٧/٢٠، ٧٣/٢٢، ١٨٠، ١٢٦، ١٦٥، ٣٤٢، ٣٨٣، ٤١٢.

(٣) مثال ذلك استشهاده على كلمة (بغنة)... قال الرماني: قال يزيد بن مقسم الثقفي:

ولكنهم بانوا ولم أدر بغنة وأفطع شيء حين يفحوك البغ (٢٤٠/١٠).

وانظر أيضا: ٢٤٥/١٠، ٢٥٨، ٣٦٠/١٤، ١٧٣/١٦، ٢٤٤، ٢٩٢، ٥٠٢، ٣٣٣/٢١، ٢٦١/٢٢.

(٤) فقد نظم أسماء القداح، ونظم معجزات سيدنا موسى عليه السلام، وفي كون السبعة منتهى العدد، ونظم أولي العزم، وغير ذلك.

قال في نظمه لأسماء القداح: "وقد نظمت أسماء القداح تسهلا لحفظها في قولي:

القد والتوأم والرقيب والجلس والنافس يا ضريب

ومبل مع المعلى عدوا ثم مبيح وسفيح وغد (٢٤٩/٣)

وانظر الصفحات التالية: ٥٢٣/١١، ١٩٠/١٨، ٣٥٧/٢٠، ٣٥٨-٣٥٧/٢٠، ٢٨٥/٢١.

(٥) ... ينظر في هذا ما تقدم من استشهاده دون ذكر القائل، فمن مثل هذه الصغ: ===

=== يورد مسألة ثم يقول: وذلك كما قال بعض الأولياء، أو وإليه أوما من قال، أو كما قيل، أو ذلك كما قال، أو كقوليه، أو وأنشدوا في ذلك، أو ومنه قول الشاعر، أو يذكر لغة لقبيلة ثم يقول: وذلك كما قال شاعرهم [ينظر ما تقدم من استشهاده بشاعر القبيلة أو في كلام غيره كما قال الشاعر، وغير ذلك كثير.

بنظم غيره كما سبق. وبالجملة فرغم هذه العناية بالشواهد، إلا أنها ليست على درجة بحيث تدرس مستقلة غيرها مما تقدم، لكنها تبقى -والحال ما ذكرت- ملمحا من ملامح منهجه في هذا الكتاب، حتى يكون الحديث متكاملًا إن شاء الله تعالى.

يذكر أن الإمام البقاعي قد اعتمد مجموعة من المصادر المختلفة التي تغطي جل منهجه، إلا أنها في الغالب - وإن تنوعت و تعددت - مصادر ومراجع غيره من المفسرين.

أما فيما يتعلق بموقفه من التفسير الرمزي أو الإشاري، وكذلك موقفه من النقل عن الكتب القديمة، فقد تتبعت جميع ذلك عند الإمام البقاعي، فوجدته فسي الأول لم يشطح فيه شطحات الصوفية^(١)، بل تقيد بشروطه الشرعية، ووظفه جنبًا إلى جنب مع مقصد السورة التي يتحدث عنها^(٢). وحتى في تفسيره الإشاري القائم على العدد فقد جعل نبراسه فيسه: معنى السورة ومقصدها الرئيسي. وفيما يتعلق بإكثاره من النقل عن الكتب القديمة - التي لو جمعت من نظمه لكونت مجلدا ضخما^(٣) - فقد فصل القول في الحكم قبل النقل، ثم نقل، وما نقل إلا خدمة لإعجاز القرآن، أو تأييدا لما جاء فيه، أو ردا عليهم من كتبهم أنفسهم^(٤).

(١) وذلك من مثل تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي بيوتا من الخيال بيوتا ومن الشجر وما يمرشون﴾ (النحل: ٦٨). قال ابن عطية، ونقله عنه القرطبي "وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية إنما يراد لها: أهل البيت، ورجال بني هاشم وأنهم النحل، وأن الشراب: القرآن والحكمة، وقد ذكر بعضهم هذا في مجلس المصور، أي جعفر العباسي، فقال له رجل ممن حضر: جعل الله ضمامك وشرابك من بطون بني هاشم، فأضحك الحاضرين، وبهت الآخر وظهرت سخافة قوله". انظر تفسير ابن عطية عند تفسير آية رقم: ٦٨، ٤٦٣/٨، والقرطبي أيضا عند تفسيره لهذه الآية: ١٣٦/١٠.

ولمزيد من المعلومات عن هذا التفسير وشروطه بنظر: الموافقات ٣/٣٤٦-٣٥٩، والتفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي ٢/ ٣٧٧.

(٢) انظر مطالع السور التي تستفتح بحروف التبيحي، وكذلك خواتيم جميع فصار السور. (٢)

(٣) لقد اخترت لذلك ما يلي، ليعلم القارئ أي لم أغال حين قلت إن المستقري - وليس المختار جامع - لا شك - مجلدا ضخما في ذلك. من هذه الاختيارات التي أوردتها في "نظم الدرر" انظر ما يلي:

أولا: من نقله عن الزبور:

٤٣٧/٣-٤٣٨، ٢٦٠/٦-٢٦٢، ١٣٨-١٣٥/١٠، ٥٢٥-٥٢٢/١١، ٣٤٠-٣١١/١١، ٤٩٢/١٢-٥٠٨.

ثانيا: من نقله عن التوراة:

٢٦٣/١-٢٧٢، ٤٥٣-٤٢٢/١، ٤٨٤/١، ٨-٥/٢، ٥٦/٢، ١٧٩-١٦٦/٢، ١٩١-١٩٠/٢، ١٩٤-١٩٠/٣، ٣٩٨/٣-٤٠٠، ١٨٥-١٨٠/٤، ٣٧٩-٣٧٤/٤، ٤١٥-٤١٠/٤، ٤٤١-٤٢٨/٤، ٣١-٣٠/٥، ٢٥٦-٢٤٦/٥، ٤٥٧/٥-٤٦١، ٥١٢-٥٨/٥، ٢٩-٢٨/٦، ٥٦-٥١/٦، ١١٢-٨٠/٦، ٢١٣-٢٠٢/٦، ٢٢٨-٢٢٦/٦، ٣٢٢/٧، ٣٢٧-٤٥/٨، ١٠٠-٩٣/٨، ١١١-١٠٧/٨، ١٢٦-١١٩/٨، ١٤٤-١٤٣/٨، ١٦٢-١٦٢/٨، ١٩٩/٨، ٢٠٢-٤٣٠/٨-٤٣١، ٢٩٧/٩، ٣٠٥. ذكر قصة يوسف عليه السلام من التوراة والزبور: (تخللت أغلب صفحات الخلد العاشر)،

بقي أن أقول: إن الإمام البقاعي الذي شرع في تفسيره هذا سنة إحدى وستين وثمانمائة من شهر شعبان، قد أتمه مسودة سنة خمس وسبعين وثمانمائة بمسجده من رحبة باب العيد بالقاهرة. ولم يترك البقاعي كتابه هذا مسودا، فقد فرغ من تبييضه له أيضا سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة من شهر شعبان الخير بمنزله الملاصق للمدرسة البادرانية من دمشق. فتلک أربع عشرة في تسويده وسبع سنين في تبييضه. ليدب بعد ذلك الحسد في جماعة فيكثروا عليه من التشيع بالتشيع، والتقييح والتبشيع، والتخطئة والتضليل. ثم قيامهم عليه بفتنة ابن الفارض وغيره من الملاحدة، حتى صنف في ذلك كتبا كثيرة، قال بعد أن عددها: "أنفقت فيها عمرا مديدا، وبددوا فيها أوقاتي، بددهم الله تبييدا، وهدد أركانهم وأعضادهم تهديدا"^(١).

ولما كان جل مقصود كتاب الإمام البقاعي تبيان ارتباط الجمل بعضها ببعض، حتى تكون كل جملة آخذة بحجزة ما أمامها، متصلة بها، وكانت "لما" طرفا دائما يراد بها ثبوت الثاني مما دخل عليه بثبوت الأول على غاية المكنة. بمعنى أنها كالشرط تتطلب جملتين. لما كان ذلك كذلك، فقد سمي مصنفه بـ: "كتاب لما". وقد ارتجز في آخره مادحا إياه بعد أن نكر تسميته بـ: "لما" -:

لما المعاني لما	هذا كتاب لما
تمد مدا جما	شدت بحور علمه
بأن يموت غما	بشرت من بحسده
علي حتى تما	سهل ربي أسره
من السنين صما	في أربع وعشرة

== ١١٣٩/١١ - ٣٠٦/١١، ٣٧٧-٣٤٣/١١، ٢٦٩-٢٧٠/١٤، ٢٧٦-٢٧٢/١٤، ٢٨٦-٢٩١/١٤، ٣٦٣-٣٧٠/١٤، ٢٧٨-٢٧١/١٦، ٢٩٧/١٦ - ٣٠١.

للك: من نقله عن الإنجيل:

٢٩-٢١/٢، ٧٤/٢، ١٩-٧/٤، ١١٤-١٢٣/٤، ٢٢٧-٢٣٢/٤، ٣٨٠-٣٩٣/٤، ٤٦٧/٥، ٤٩٦-١٦١/٦، ١٧٢-٢٦٢/٦، ٢٦٥-٣٤٣/٦، ٣٥٤-٤٨/٧، ١١٧-١١١/٨، ١٥٤-١٥٠/١٣، ٤٧٤-٤٦٥/١٧، ٣١١/١٩، ٣٢٣-٢٧-١٨/٢٠.

يذكر أن الإمام البقاعي في نقله هذا كله كان ناقدا بصيرا لكل حرف يضعه في كتابه، فيذكر الغرض من كل نقل، ثم يعقب في هامشه على ما يوافق شرعا منه، وما يخالفه إلى غير ذلك من التعقيبات الكثيرة. كما ويذكر أنه اعتمد نسخا كثيرة في هذا النقل، كان يشير إلى كل في موضعه المناسب طبعاً: يلاحظ هذا كل متبع لما ذكرت من نظم الدرر، على أن هذه الاختيارات التي أحسبها تزيد على مجلد، ما هي إلا عينة مما حشده الإمام البقاعي في تفسيره "نظم الدرر".

^(١) انظر تفصيل أحكام النقل عن الكتب القديمة من نظم الدرر: ١/ ٢٧٢ - ٢٧٩.

^(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/ ٤٤٥.

قال لسان عدوها دونك بدرا تما^(١)

وبهذا فإن تفسير الإمام البقاعي ليس حلقة في تاريخ علم المناسبات فحسب، بل هو موسوعة في علم التفسير، وإن شئت قلت: هو جامعة قرآنية لم يهمل فيها صاحبنا أي تخصص في موضوعه^(٢).

^(١) الأرجوزة في تسعة وثلاثين بيتاً، وقد احتوت منها ما ذكرت. تنظر جميعها، وتسميت الكتاب بـ"لما" من البقاعي، المصدر نفسه،

٢٢ / ٤٤٦-٤٤٩.

^(٢) يذكر أن للإمام البقاعي في علم التناسب غير نظم الدرر أربعة معنفات أخرى، دلالة البرهان القويم على تناسب القرآن العظيم، والسور الثلاث من كتاب المناسبات، والفتح نفسه في آية الكرسي، ومساعد النظر للإنتراف عنى مقاصد السور.

المبحث الثاني: التعريف بعلم التناسب أو المناسبة

أقف في هذا المقام: على مصطلح التناسب والمناسبة، وأحاول أن أبين ترادف المصطلحين عند الإمام البقاعي وغيره من العلماء. ثم أنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن التناسب وفن الإعجاز، ثم أدلة هذا العلم، فالإشكالات التي أوردها الإمامان؛ العز بن عبد السلام والشوكاني. وبعد مناقشة هذه الإشكالات، أنكر آراء مجموعة من العلماء في علم التناسب، ثم أردف ذلك بمقدمة تأصيلية في تاريخ هذا العلم والتأليف فيه، معرفاً في ختام ذلك بالبقاعي وتفسيره - نظم الدرر -.

النسب في اللغة: القرابة، والمناسبة بمعنى: المشاكلة والمشابهة؛ يقال بين هذين الشئيين مناسبة وتناسب؛ أي مشابهة وتشابه^(١).

يقول الزركشي: "إن علم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول. والمناسبة في اللغة: المقارنة، وفلان يناسب فلاناً: أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسب الذي هو القريب المتصل، كالأخوين، وابن العم ونحوه"^(٢).

وفي الاصطلاح كما قال الإمام البقاعي: "علم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة"^(٣).

وقريب من هذا أيضاً ما أورده الإمام الزركشي: "ولهذا قيل المناسبة أمر معقول، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول"^(٤).

لكن قد يكون من المستحسن قبل التعليق على هذه التعاريف، أن نقف معاً وقفة سريعة على مصطلح المناسبة والتناسب.

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "نسب"، وانظر أيضاً: الفيروز أبادي، القاموس، المادة نفسها،

وانظر الزبيدي، تاج العروس "المادة نفسها".

(٢) الزركشي، البرهان، ١/١٣١.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ٦/١.

(٤) الزركشي، المصدر نفسه، ١/١٣١.

فلقد استخدم الإمام البقاعي كلا المصطلحين والمعنى نفسه، وذلك في عنوان تفسيره، وفي ثانياً هذا التفسير أيضاً^(١). ومن جهة أخرى فقد أوردت المعاجم هذين المصطلحين في حديثها عن الغرض نفسه^(٢). أما في هذه الرسالة فقد أثرت استخدام التناسب على المناسبة في كثير من الأحيان، وما ذلك إلا تيمناً بالعنوان الشائع^(٣)؛ المطبوع هذا التفسير باسمه. وعلى كلى فسواء أكان التعبير بالمناسبة أم بالتناسب فالمقصد واحد، ولا مشاحة في الاصطلاح.

أعود إلى التناسب لغة واصطلاحاً، فلقد اقترب المعنى اللغوي من المعنى الاصطلاحي. فبين التعريفين تناسب واضح؛ إذ لا تتم المشاكلة والمثابفة إلا بوجود أمر يربط بين الشيين أو يقارب بينهما. ومحك ذلك كله: عدم التصنع والتكلف وقبوله لدى العقول الواعية. فهو أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول. وبالتالي فإن قبولها شرط قبولها.^(٤)

ولمزيد من التعريف بعلم التناسب لا بد أن أقف والقارئ على المعنى التفصيلي لمفهومي للنظم والتناسب عند الإمام البقاعي، وعلاقة كل منهما بالإعجاز القرآني، إضافة إلى ملخص قوله في قضية الإعجاز بعامة.

(١) أما عن عنوان كتابه فقد صرح في المقدمة أنه يتناسب أن يسمى بثلاثة أسماء قال: "وسميته نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ويتناسب أن يسمى: فتح الرحمن في تناسب أجزاء القرآن، وأنسب الأسماء له: ترجمان القرآن ومبدي مناسبات الفرقان" ٥/١. ولكن طبع كتابه كان بالاسم الأول، كما انتشر بين الأوساط العلمية، ومن قبله في كتب التراجم بـ"نظم الدرر". وأما بخصوص ما جاء في "النظم" فإنك لا تكاد تعمد وجود المصطلحين، وبالكررة التي تغني عن التمثيل.

(٢) انظر مادة "نسب" من كتب المعاجم.

(٣) ومن ذلك على سبيل المثال:

١- البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن لابن الزبير الفرناطي (ت ٨٠٧هـ)

٢- دلالة البرهان القويم على تناسب آي القرآن العظيم مختصر نظم الدرر للإمام البقاعي (ت ٨٨٥هـ)

٣- تناسب الدرر في تناسب السور للسيوطي (ت ٩١١هـ)

٤- مرصد المطالع في تناسب المقاصد والمطالع للسيوطي (ت ٩١١هـ).

٥- فخر النحاة في بيان مناسبات آيات أم الكتاب لساجقلي زاده المرعشي (ت ١١٥٠هـ). "لم أقف على هذا المصنف وإنما ذكره محققو "البرهان" في حواشيهم ١٣٠/١-١٣١.

٦- جواهر البيان في تناسب سور القرآن للشيخ الصديق الغماري.

٧- سبق الغايات في معرفة المناسبات للشريف النجارني نقلاً عن هامش أبو موسى، البلاغة القرآنية ص: ٤٤-٤٥

(٤) أي شرط قبولها على أنها مناسبة صحيحة، أن تكون غير متكلفة ومقبولة لدى العقول.

المبحث الثالث: التناسب وفن الإعجاز

من المعلوم -بداية- لأهل هذا الفن، أن قضية الإعجاز القرآني قد شغلت القوم زمنا طويلا، قديما وحديثا، حتى (خيل) إليهم: أنهم قد ذهبوا فيه كل مذهب. وليس كذلك؛ بل إن أقلامهم أعجز من أن تصول في ميدانه، وما أجمل ما قاله الإمام التستري (ت ٢٧٣هـ): "لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته. وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل مقدار ما يفتح الله عليه. وكلام الله غير مخلوق، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهو محدثة مخلوقة"^(١). وبالتالي يكفي أهل البلاغة دليلا على إعجاز كتاب الله -عز وجل- أن هذه القضية ما انفكت مشغلة للدارسين. وهو قول الدكتورة بنت الشاطي حين قالت في مدخل كتابها "الإعجاز البياني": "من إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين العلماء جيلا بعد جيل، ثم يبقى أبدا رحب المدى، سخي المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية، امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمح، عاليا يفوت طاقة الدارسين"^(٢).

لقد ميز الإمام البقاعي بين النظم والتناسب، حيث جعل ما في الدر نظاما، وما في الأيالت والصور تناسبا، وبالتالي كأن عنوان كتابه قد أشار إلى مصطلحين: النظم التركيبي، والنظم الترتيبي. والثاني هو الأعظم والأهم^(٣)، إذ الأول كما يقول: "أقرب تتاولا وأسهل ذوقا"^(٤). كما أن النظم التركيبي يصب اهتمامه -في الغالب، كما نعلم- على الجملة المفردة، سواء أكان ذلك في ركنيها الأساسيين، أم في متعلقاتها وإن تكاثرت. وعليه فإن كل من سمع القرآن من نكي، وغبي، تحصل له -كما يقول الإمام البقاعي- عند سماعه: روعة بنشاط، ورهبة مع انبساط، لا تحصل له عند سماع غيره^(٥).

وكان سهولة هذا النظم التركيبي، تكمن في وضوحه وجلائه. ورغم أهميته، إلا أنه لا يمثل روح البلاغة عند الإمام البقاعي. بخلاف الآخر؛ وهو نظم كل جملة مع أختها بالنظر إلى ترتيبها وأحواتها، بحيث ترتبط كل جملة مع ما قبلها وما بعدها، ارتباطا كلحمة النسب، وتأخيا تاما، بحيث تكون كل واحدة متمكنة في مكانها، ومعتمدة، وأخذة بحجزة ما أمامها، متصلة بها.

(١) الزركشي، البرهان، ١/١٠٢.

(٢) بنت الشاطي، الإعجاز البياني، ص ١٧.

(٣) انظر: ابن كمال باشا (ت ٩٤٠هـ) في رسالته، ضمن كتاب دراسات في الإعجاز البياني للدكتور محمد بركات أبو علي، ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٤) انقاعي: المصدر نفسه، ١/١١.

(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١/١١.

وهو الذي يمتدحه الإمام البقاعي، ويدعو إليه في مصنفه قال - رحمه الله - بعد أن عرض للنظم التركيبي: "ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض، متتائية المقاصد، فظن أنها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط، ربما شككه ذلك بكثير وزلزل إيمانه، وزحزح إيقانه... فإذا استعان بالله، وأدام الطرق لباب الفرج، بإنعام التأمل، وإظهار العجز، والوثوق بأنه في الذروة من إحكام الربط... فانفتح له ذلك الباب، ولاحته له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار، رقص الفكر منه طربا، وشكر الله استغرابا وعجبا، وشاط لعظمة ذلك جنانه، فرسخ من غير مرية إيمانه، ورأى أن المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف، بديعة الرصف، عالية الأمر، عظيمة القدر..."^(١).

لقد تبين لي من هذا الكلام، ومن رحلتي الطويلة مع الإمام البقاعي في كتابه الموسوم بـ "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" أن علم التناسب عنده هو: إدراك المقامات، والأحوال المقتضية الإتيان بكل جزئية في موطنها الملائم لها مع بقية أخواتها، فلقد كان صاحبنا يمهد لكل جملة مهادا يدل على الحال الذي اقتضى حلولها، وأوجب ترتيبها مع ما قبلها من شكلها، وكذلك ما أوجب تأكدها، أو إطلاقها وتقيدها، ونحو ذلك من أفانين الكلام، وأساليب النظام؛ ليتناول التناسب بذلك مقتضيات أحوال التركيب والترتيب، فيتحقق قول صاحبنا: بأنه علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن، وهو بهذا سر البلاغة^(٢).

وعليه، فإني أحسب الإمام البقاعي يرد الإعجاز الجمالي في القرآن الكريم إلى تناسبه البلاغي في ترتيب عناصره. وهي نظرة لها أصولها في تاريخ البلاغة - كما نعلم - فلقد أشار ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) إلى أن علة كل جميل: اتساقه، وتناسب عناصره، كما أن علة كل قبيح: اضطرابه، وتباعد عناصره^(٣). لكن الإمام البقاعي، ربما يتميز من غيره: بتمام محاولته، وتطبيقها على جميع آيات القرآن الكريم وسوره، الأمر الذي لم يحاوله أحد من قبله - فيما أعلم - هذا فضلا عن مشقة عبور هذا البحر التناسبي، وصعوبة ولوجه، وهو ما نص عليه في مقدمته، حيث يقول: فلا تظنن أيها الناظر لكتابي هذا، أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها، والرفع لستورها، فرب آية أقيمت في تأملها شهورا، منها: «وإذا غدوت من أهلك»^(٤)، ومنها: «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن»^(٥)، و«يستفتونك قل الله يفتيكم في

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ١١/١-١٣.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٦/١.

(٣) انظر: ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ١٥.

(٤) آل عمران: ١٢١.

(٥) النساء: ١٢٧.

الكلمة^(١)، ومن أراد تصديق ذلك، فليتأمل شيئا من الآيات قبل أن ينظر ما قلته، ثم لينظره، يظهر له مقدار ما تعبت، وما حصل لي من قبل الله، ومن العون، سواء كان ظهر له وجه لذلك عند تأمله أو لا، وكذا إذا رأى ما ذكر غيري من مناسبات بعض الآيات...^(٢).

لكن، إذا كان القرآن معجزا بتناسبه -كما رأينا-، فأى جزء -يا ترى- وقع به التحدي؟

ثم ما هو القول الفصل في وجه إعجازه بعامة، وللبلغ بخاصة، عند الإمام البقاعي؟

يجيب الإمام البقاعي عن ذلك في صفحات طوال، حيث كشف -رحمه الله- أولا عن إجماع يشمل أقصر سورة، كالكوثر في التحدي، أو حتى ما يعادلها من القرآن. وقد نسب هذا الإجماع إلى العلامة التفتازاني (ت ٧٩٢هـ)، والإمام البرماوي: (ت ٨٣١هـ)، والإمام جلال الدين المحلي: (ت: ٨٦٤هـ)، فقد رأى هؤلاء -فيما نقلوا- أن التحدي يقع في أقصر سورة كالكوثر، أو ما يعادلها^(٣). إلا أن الإمام البقاعي يرى أن التحدي قد وقع بقطعة آية فما فوقها؛ لأن المراد بالسورة عنده هو: مفهومها اللغوي، لا الاصطلاحي. ومن أدلته على ذلك أن القوم خوطبوا بمعانيهم اللغوية، لا المعاني الاصطلاحية الإسلامية^(٤).

ثم استرسل صاحبنا مع قضية الإعجاز، وهو في ذلك قد ذكر كلاما طويلا للجاحظ، وفي أثناءه كان الحديث عن مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - في بيئة متميزة من الفصاحة والبلاغة، وتحديه صلى الله عليه وسلم - للقوم ثلاثا وعشرين سنة، الأمر الذي أثبت عجزهم، وطأطا ذلا كبيرهم وعزهم؛ حتى حملهم ذلك على السيف، فنصبت بينهم حروب دارت رحاها سنين طويلة، حتى قتل من عليه القوم، وأعلام الطرفين خلق كثير^(٥).

ومن ذكره لكلام الجاحظ، إلى اختلاف الناس في هذه القضية، مع ترجيحه لما نقله الزركشي عن الإمام الخطابي، من كون وقوع الإعجاز من جهة البلاغة أولا، بل كونه يعود إلى

(١) النساء: ١٧٦.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١٤/١-١٥.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٦٧/١-١٧٠.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٦٨/١، حيث يرى الإمام البقاعي، أن المراد بالسورة هنا هو: مفهومها اللغوي؛ لأنها من المثل المفروض، وهذا لا وجود له في الخارج، حتى يكون لقطعة اصطلاح في الأسماء معروف، ولأن معرفة المعنى الاصطلاح، كان مخصوصا بالمصدقين، ولو أريد التحدي بسورة من القرآن لقل: فأتوا بمثل سورة منه، انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٦٥-١٦٦. وجاء في سورة يونس - أيضا- نقلا عن الإمام الزماني: "وإن سورة منزلة محيطة بآيات، من أجل الثافتحة والخاتمة، كإحاطة سور البناء" يقول البقاعي: "وهذا نظرا إلى أن المتحدى به سورة اصطلاحية، والصواب: أنها لغوية. وهي - كما قال الحرالي - تمام جملة من التسموع، تحيط بمعنى تام، بمنزلة إحاطة السور بالمدينة". انظر كل ذلك: البقاعي، المصدر نفسه، ١٢٣/٩.

(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٧٢/١-١٧٧.

أجناس الكلام، التي لا تخرج عند الإمام الخطابي: عن بليغ رصين جزل، وفصيح قريب سهل، وجائز طلق رسل^(١). ثم يعود الإمام البقاعي ليؤكد ما قال؛ من عجز العرب عن الإتيان بمثله، وتبيانها لأقوال الناس في ذلك، مع التركيز، والتتويه في كل موطن على أن القرآن معجز ببلاغته، حيث فصاحة ألفاظه، وصحة معانيه، ودقة نظمه، مع إعلائه لشأو الإعجاز النفسي - الذي ما فتئ القوم يتحدثون عنه - مع عدم خلو كل ذلك من اعتراضات وردها^(٢).

وبعد تتبعي للآيات التي ذكر فيها نص التحدي والإعجاز، أنفيت الإمام البقاعي يذكر في آخر سورة العنكبوت -نقلا عن "أصول الدين" للحرالي- قولا، أحسبه توفيقيا بين من يقول: بأن القرآن معجز بنظمه وأسلوبه، ومنع غير ذلك، وبين من يرى: أن القرآن معجز بكل ما فيسه؛ بنظمه وأسلوبه، وآياته العلمية، وبتشريعه، وما فيه من أخبار غيبية مستقبلية وغيره^(٣). فقد ذكر صاحبنا عن الحرالي، ما يشهد بأن جهات إعجاز القرآن إنما تأتي على حظوظ أصناف الخلق حسب إدراكهم، فلا يتعين لظهور الإعجاز فيه جهة، فكل ناظر فيه من أي وجه نظر، وجد بغيته؛ فالبلغ: أمامه البلاغة والفصاحة، وحسن النظم، وعالم الأخبار: أمامه صحة أخبار القرآن، وإن كان المرء حكيما: فبالإعلام الأتم بوجه تقاضي المترنات. وبالجملة فما يكون لأحد أصل من عقل، وحظ من علم -أي علم كان- إلا ويجد له موقعا في القرآن، وفي له بحظ بيان علو مرتبة أنبائه، على نهاية ما يدركه منه، بالمقدار الذي لا يرتاب في وقوعه فوق طور الخلق. وعليه فهو لسان إحاطة وشمول، لا يفقد ناظر فيه حظا يتطرق إليه بمقدار إدراكه منه، إلى يقين وجه إعجازه^(٤).

خلاصة ما تقدم: أرى أن الإمام البقاعي قد ميز بين مصطلحي: النظم، والتناسب. وقد أشار إلى أن النظم الترتيبي أعلى، وأشد وأعقد من صنوه التركيبي، وبالجملة فهذا الترتيبي، هو الذي تتباين فيه الرتب، وتحاك فيه الركب، ويقع فيه الاستباق والتنازل ويعظم فيه التفاوت

(١) لمزيد من الوقوف على تفصيل كلام الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، انظر على سبيل المثال:

أ- فضل عباس، بيان إعجاز القرآن للخطابي -تحليل ومقارنة ونقد- (مقالة) ص ٢٣٧-٢٨١ وهي من أفضل الدراسات التحليلية لبيان الخطابي -فيما أحسب-.

ب- محمد بركات أبو علي، دراسات في الإعجاز البياني، ص ٨٧-١٠٩.

ج- محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ص ٢٣-٨٠.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١/١٧٧-١٨٤، وانظر أيضا: المصدر نفسه، ١٣/٣٧٩-٣٨٠.

(٣) انظر تفصيل آراء الثمانين، والمجيزين من:

أ - كتاب: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص ٢٤٥-٣٥٧.

ب - محمد بركات أبو علي، دراسات في الأدب، ص ٢١٧-٢٢٣ فقد أجمل الأستاذ الحديث عن ثلاثة وجوه من الإعجاز، منها حديثه عن الإعجاز النفسي الذي أعلى من شأوه أهل البلاغة والبيان.

(٤) انظر تفصيل ما ذكرت من: البقاعي، المصدر نفسه، ١٤/٤٥٨-٤٦٠.

والتفاضل^(١). وعليه فإن الإعجاز الجمالي للقرآن الكريم يعود إلى تناسبه البلاغي في ترتيب عناصره.

ثم تحدث -رحمه الله- عن الجزء الذي يقع به التحدي، وبين أنه قطعة آية فما فوقها؛ إذ إن المراد بالسورة عنده هو: مفهومها اللغوي لا الاصطلاحي وهذا جديد-، وهو كلام معقول، فالقرآن، قد خاطب قوما بما عندهم لا بما عنده. ولو كان الثاني -فيما أحسب- لما كانت الحاجة متساوية. إذ كيف يتحداهم بما ليس عندهم!

وقد أكثر-كما سبق وذكر- من استشهاده على كون القرآن معجزاً من جهة بلاغته، الذي منه التناسب وترتيب العناصر. إلا أن هذا هو للخاصة وليس للعامة، حيث كشف في كلام جميل -قلت: أحسبه توفيقياً، وبالتالي نفيد من جميع وجوه إعجاز القرآن التي قال بها القوم. فقد خاطب القرآن كلا حسب فهمه. ويصدق هذا حديث ابن عباس: "أنزل الله القرآن على أربعة أوجه: حلال وحرام، ووجه لا يسع أحداً جهالته، ووجه تعرفه العرب، ووجه تسأويل لا يعلمه إلا الله"^(٢)- أن إعجاز القرآن لا يتعين بجهة واحدة، وإنما ينظر فيه كل حسب علمه وصناعته، أيا كان هذا العلم والصناعة.

(١) هذه الكلمات مستوحاة من: الزمخشري، الكشاف، (المقدمة) ٧/١.

(٢) انظر: هذا الحديث وغيره: الزركشي، المصدر نفسه، ٢٠٤/٢ وما بعدها، وكذلك الحديث عن الأحرف السبعة، وطرق إعجاز القرآن من: المصدر نفسه، ٣٧٨/١ وما بعدها، و٤١٩/١ وما بعدها، ٢١٨/٢-٢٥١، وغيره من المصدر نفسه.

المبحث الرابع: أدلة علم التناسب

ومن أدلة هذا العلم: وصف الله تعالى لكتابه في غير ما موضع بأنه حكيم، وبأنه محكم. والكلام لا يتصف بالحكمة أو الإحكام إلا إذا كان حسن التآلف، وتام التماسق بعضه مع بعض. وبعبارة أخرى فإن تناسقه وتناسبه وإحكام نسجه كلها أدلة توجب أن يكون متآلفاً ومتناسباً.

ثم إن هذا القرآن بعيد كل البعد عن أي غمز أو لمز، ناء عن كل باطل سواء أكان من بين يديه أم من خلفه. فهو غير قابل للنقد، كما أنه لا يتطرق إليه الوهن في نسجه، وانتلاف آياته وسوره بعضها مع بعض. وبما أنه تنزيل من "حكيم" فهو منزّه عن التفكك وتتافر النظم أصلاً. وهو كلام "حميد"؛ أي محمود من جميع الوجوه، ومنها إحكام نظمه وانتلافه.

ومن الأدلة على ذلك: إجماع العلماء الألباء على أن القرآن معجز في أسلوبه وبيانه، وذلك يوجب أن تكون آياته متآلفة. وأن تكون كل جزئية أيضاً من آياته - ناهيك عن سوره - مرتبطة ببعضها؛ لأن حسن تآلف الكلام وتناسبه مما يحسن به كلام البلغاء ويسمو، كما أن تفككه وضعف ترابطه ينزل بمرتبة الكلام ويضعفه. فلا بد إذن أن يكون البيان القرآني مراعيًا للتآلف والترابط الذي يناسب سمو إعجاز القرآن.

وهناك أمر آخر يتمثل في كون جمهور المفسرين المحققين الذين أخذوا بعلم المناسبات - وعلى اختلاف مشاربهم - قد ذهبوا إلى أن ترتيب القرآن توقيفي مأخوذ من الوحي الإلهي في آيات كل سورة، وفي ترتيب السور كذلك. وقد جاء ذلك على خلاف ترتيبه في النزول أيضاً، ليشير فيما يشير إليه إلى أن هذا الترتيب مبني على حكم عظيمة تتمثل في هذا التناسب الكامن بين آيات الله وسوره^(١).

(١) انظر: تفصيل أدلة هذا العلم من: عتر، علم المناسبات وأهميته في تفسر القرآن الكريم "مقالة" ص: ٦٨-٧٠.

المبحث الخامس: الإشكالات على علم التناسب

لقد اشتهر عن سلطان العلماء؛ الشيخ عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)، والإمام الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) إنكارهما لفن المناسبة، وحملهما على كل من دعا إليه.

أما رأي العز بن عبد السلام، فقد أورده الزركشي في برهانه. ومفاده أن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة، في أحكام وأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض.^(١)

وأما الإمام الشوكاني - رحمه الله - فقد انتصب للرد على الأخذ بفن التناسب في القرآن، وأنحى باللوم، بل وبالتقريع على أئمة التفسير، وأطال في الاستدلال لرأيه، وأبدأ في ذلك وأعاد. على أن ملخص جميع ما قال: هو أن هذا العلم ليس له فائدة، وأنه تكلم بالرأي المحض المنهي عنه في القرآن. كما أن المفسرين جعلهم هذا الفن مقصداً للتأليف فقد أتوا بتكلفات غير مقبولة. هذا ناهيك عن نزول القرآن على حسب الحوادث، إضافة إلى ما يثيره هذا الفن أيضاً من الشكوك في قلوب ضعاف الإيمان، إلى أن قال - رحمه الله - ما معناه: إن المناسبة لا تطلب بين القصائد في دواوين الشعر، ولا بين خطب الخطباء، فكيف تطلب في القرآن؟^(٢).

أحسب أن كل من عرض لفن المناسبة، ووقف على آراء المجيزين والممانعين قد رد ما جاء عند الإمامين الجليلين. وأحسن ما وقفت عليه في ذلك وأوجزه: هو ما أورده الدكتور نور الدين عتر نقلاً عن الأئمة الأعلام وفحول هذا الفن الكرام.

وبالإضافة مما كتبه الدكتور عتر وغيره من الباحثين - قديماً وحديثاً - أقول: رأي العز مردود أولاً بنقل الزركشي؛ إذ قال عقب إيراد رأي العز مباشرة: "قال بعض مشايخنا المحققين^(٣): قد وهم من قال: لا يطلب للأي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المنقرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً. فالمصحف كالصحف الكريمة، على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سورته كلها وآياته بالتوقيف. وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعددة، أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية

(١) انظر: الزركشي، المصدر نفسه، ١٣٣/٩

(٢) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ٨٩/١ - ٩٠. عند تفسيره لقوله تعالى: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) النقرة: ٤٠

(٣) قال الإمام البقاعي في مقدمة "نظم الدرر": "أشبه بذلك حصة هو العارف ولي الله محمد بن أحمد الملوي المصطفي الشافعي (ت ٧١٣هـ) البقاعي، المصدر نفسه، ٨١ - ٩.

كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفنى ولا كما نزل مفرقاً، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة...^(١).

وعلى فرض أن الإمام العز بن عبدالسلام قد رام هذا، فإن القرآن كلام الله الأزلي المتصف بالكمال والمنزه عن "النقص"^(٢). ونزول آياته منجمة لأسباب خاصة في أزمنة متباعدة، لا يمنع التناسب بينها فهي متناسبة في اللوح المحفوظ قبل نزولها. ولتقريب الصورة - مع فارق التشبيه - نتخيل معاً أن هناك بناء تاماً، وفي وقت ما تفرق هذا البناء وأخذ منه كل حسب حاجته، ثم جئ بعد ذلك وجمع ورتب على ما كان من قبل. وهو ما كان - بالفعل - من حال آيات الله وسوره، والله المثل الأعلى.

وعن الإمام السيوطي أيضاً: "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي بلا شبهة في ذلك. أما الإجماع فنقله غير واحد، منهم الزركشي في البرهان، وأبو جعفر ابن الزبير الغرناطي في مناسباته وعبارته: ترتيب الآيات في سورها واقع لتوقيفه - صلى الله عليه وسلم - وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين"^(٣).

وأما ملخص بعض ما جاء في الرد على الإمام الشوكاني: أنا ما زلنا نرى دارسي الأدب يعنون بإبراز التناسب بين أبيات القصيدة وارتباط أغراضها ببعضها، وحسن انتقال الشاعر أو الكاتب من غرض إلى آخر بما يصون كلامه عن التفكك وعدم الانسجام - مع فارق التشبيه بين النصين؛ فالنص الأنبي يعكس لنا تصورا كلياً لقضية ما، وأما النص القرآني فإن السورة الواحدة فيها حياة مليئة بكل حركة تفصيلية لشؤون الحياة جميعها - فكيف لا يراد هذا في أفصح كلام وأبلغ نظام، ناهيك عما يفيد هذا التناسب من ترجيح لبعض الأقوال على بعض، وما يفيد أيضاً من تقوية المعنى والحث عليه.

^(١) الزركشي، المصدر نفسه، ١/١٣٣.

^(٢) فقد أورد الدكتور عتر وهم من قال إن العرب - عبدالسلام قد مع شاسية بين الآيات والسورة إذ الصحيح معه التناسب في ترتيب أسباب النزول، وليس الأول. انظر: عتر، المرجع نفسه، ص ٧٢. مع التنويه بأن الذين يقولون بعدم وجود التناسب بين الآيات والسورة لا يقولون إنه نقص، ولا يسمون بذلك، فهم ينظرون إلى الحياة على أنها متغيرة ومتحركة، ولا مد للقرآن أن يمثل ذلك، على أن هذا الكلام - والله أعلم - مرجوح.

^(٣) السيوطي، الإتقان، ١/٢٠٣.

أما الرأي المنهني عنه في تفسير القرآن فهو الرأي الناشئ عن الهوى أو البعس عن الاستدلال المقبول. أما ما كان مستندا إلى دلائل معتبرة فلا غبار عليه. وكما هو معلوم: فإن التفسير بالرأي مدرسة معروفة في تاريخ التفسير لكن بشروطها المنصوص عليها^(١).

وما أكثر المناسبات الذكية اللطيفة المبنوثة في كتب التفسير التي يقبلها العقل ويطرب لها الذوق. فإن وقعت بعض الأخطاء من بعض المفسرين فلا ننفي بها علما، بل يؤخذ ذلك على المفسر نفسه في هذا الجانب.

وأما نزول القرآن منجما حسب الحوادث فقد عرضت له، وذلك في الرد على قول الإمام العز بن عبد السلام فيما أورده الإمام الزركشي في برهانه عن بعض مشايخه من المحققين. إضافة إلى أنه لو كان ترتيب القرآن (المصحفي) من غير فائدة وحكمة لترتب حسب النزول وكان الأول عبثا، ينتزه الله عز وجل عنه في كتابه. ولا يمنع أيضا تنوع أغراض الآيات المتتابعة عن النظر في حكمة قرانها والتأمل في سر تتابعها. فلربما جمع الأديب بين البر والبحر، والمشرق والمغرب في تشبيه يكون في غاية الحسن والجمال مبنيا على دقة تناسب وإحكام ربط. وليس أقل من ذلك كلام الله، بل إن إيراد أشياء متنوعة في سياق واحد - فيما أحسب - لمن أعلى درجات الإعجاز.

كما أن الادعاء بأنه يثير الشك في القلوب مرجوح؛ إذ البحث عن وجه التناسب بالطرق المشروعة في ذلك لمن الأهمية بمكان في مجال الدعوة؛ فيه يرسخ الإيمان في القلوب ويتعزز كما قال الإمام البقاعي^(٢).

وأما نفيه طلب المناسبة بين القصائد في دواوين الشعر... الخ فإنه يحتاج إلى مراجعة، فقد تحدث النقاد والأدباء عن فنون الربط بين أجزاء الكلام المتعددة وأفكاره المتنوعة؛ من حسن تخلص إلى استطراد وغيره؟! فإذا كان هذا مطلوبيا في كلام البشر فمن باب أولى هو في كتاب الله أوضح وأجمع. وقد رأينا الأدباء يجتهدون في تنظيم قصائدهم وإحكام ترتيبها إن جمعوها في ديوان أو كتاب. هذا فضلا عن كون آيات الله وسوره لا تقاس في هذا المقام على القصائد والخطب؛ لأن كل قصيدة أو خطبة - في الغالب - أقيت لذاتها، بخلاف كلام الله؛ فهو مقصود

^(١) انظر مثلا: فضل عباس، إتقان البرهان، ٢ / ٢٤٥ - ٢٤٦.

^(٢) انظر مقدمة الإمام البقاعي، المصدر نفسه، ص ١١ - ١٣.

بجميع سورته وآياته أن يكون بذلك كتابا تاما ومحكما كما وصفه الله تعالى. وعليه فلا بد أن يكون ثمة تناسب بين سورته في ترتيبها.

هذا وما برح البلغاء يضربون به الأمثال؛ من حيث جودة السبك وإحكام السرد، حين ينتقل من موضوع إلى موضوع ومن فن إلى آخر؛ لذا لم نسمع أن أحدا من مشركي العرب - وهم من أعلم الناس باللغة زمن البعثة المحمدية - قد ادعى أن القرآن منفك التركيب، مهلهل البناء، مختلف القضايا والأغراض؛ لا رابطة تربطه ولا سياق يجمعه.

وعليه فإن جميع الشبهات التي استند إليها لا تقوى - أبدا - على الغمز في علم التناسب، ذلك ما دنا نشترط له حسن الربط والبعد عن التكلف والتعسف. فهو من أدق العلوم إذن، بله أعظم الوسائل للتعلم في دراسة بيان القرآن ومقاصده واكتشاف دقة ترابطه^(١).

(١) لمزيد من الوقوف على هذه الإشكالات وتفصيل القول فيها انظر ما يلي:

١. السيوطي، تناسق الدرر (المقدمة).
٢. الغماري، جواهر البيان (المقدمة).
٣. الغباشي، ترتيب آيات القرآن وسوره (مقالة)، ص ١٥ - ٢٨، فقد أشعيا ردا على من قال: إن ترتيب الآيات والسور غير توقيفي، وذلك بالأدلة التفصيلية.
٤. محمد القاسم، الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره، ص ٢٣٦ - ٢٨٦.
٥. الباجفي، علم المناسبات بين السور والآيات (مقالة)، ص ٦٤ - ٧٣، فقد عرض أيضا لشبهات المخدئين والمستشرقين والرد عليهم.
٦. عتر، علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم (مقالة)، ص ٧٠ - ٨١، وقد اعتمدت كثيرا على هذه المقالة في الرد على ما ورد من إشكالات؛ وذلك لشموليتها وتلخيصها لأغلب الآراء.

المبحث السادس: من آراء العلماء في علم التناسب

لقد استحق هذا العلم بتجليته لكيفية ارتباط الكلام بعضه ببعض، وما أعطاه من فكرة عن السورة بتبيان غرضها ومقصودها، إضافة لما أفاده في حل بعض مشكلات التفسير؛ إذ به "يوقف على الحق من معاني آيات حار فيها المفسرون لتضييع هذا الباب من غير ترتيب..."^(١). وما أفاده كذلك في قضايا الترجيح عند تساوي الآراء. فضلا عن كونه لبنة رئيسة في إعجاز القرآن^(٢)؛ لما يبيده من لطائف تدهش الناظر وتحيره. حتى قال الفخر الرازي: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"^(٣). الأمر الذي أقره الإمام البقاعي حين قال عنه: "وهو سر البلاغة؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال... وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين: إحداهما نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثانية - وهي الأهم - تنظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب"^(٤)، "وبه يتبين أيضا أسرار القصص المكررات، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى أدعى في تلك السورة، استدلل عليه بتلك القصة، غير المعنى الذي سيقته له في السورة السابقة..."^(٥). وليس هذا فحسب، بل هو عمدة في فن جديد من فنون التفسير؛ هو التفسير الموضوعي^(٦). ولما كان ذلك كذلك، فقد استحق أقوال العلماء وإطراءاتهم:

يقول الإمام الزركشي: "واعلم أن المناسبة علم شريف، تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول"^(٧).

وعند ذكره لفائدته قال: "وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"^(٨).

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ١٣ / ١.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، (المقدمة) ١١ / ١.

(٣) الزركشي، المصدر نفسه، ١٣٢ / ١.

(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ١٢-٦ / ١.

(٥) البقاعي، المصدر نفسه، ١٤ / ١.

(٦) ومن عرض لهذا على وجه من التفصيل:

أ. حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

ب. النومي، التفسير الموضوعي (دراسة تاريخية نقدية). وانظر أيضا من نفس رسالته: ص ١٨٧-٢٤٣. فقد عرض لكثير من كتب

التفسير الموضوعي في العصر الحديث؛ ما يقرب من خمسة عشر كتابا، ثم حاول تقويمها.

(٧) الزركشي، المصدر نفسه، ١٣١ / ١.

(٨) الزركشي، المصدر نفسه، ١٣١ / ١.

وقد نبه الزركشي على قلة اعتناء المفسرين بهذا النوع من العلوم، وما ذلك إلا لدقته. ثم أورد - رحمه الله - كلام بعض الأئمة في شرطهم لمحاسن الكلام، منه أن يكون مرتبطاً ببعضه ببعض، وألا يكون منقطعاً^(١). قال: "وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم، وفوائده غزيرة؛ قال القاضي أبو بكر بن العربي في "سراج المرئيين": ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله - عز وجل - لنا فيه. فإننا لم نجد له حملة، ولما رأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه"^(٢).

ونقل الإمام البقاعي عن الأصفهاني في تفسيره لقوله تعالى: (أمن الرسول)^(٣) نقلاً عن الإمام الرازي أنه قال: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته. ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير متبهرين لهذه الأسرار. وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل: والنجم تستصغر الأبصار صورته فالذئب للطرف لا للنجم في الصغر"^(٤).

لقد حرصت في هذا الجزء من البحث أن أنقل آراء بعض العلماء بنصها؛ ليعلم القارئ مكانة هذا العلم عندهم، ومن عباراتهم أنفسهم. والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا جزافاً، بل إن من يقرأ في "نظم الدرر"، ويحاول أن يتابع عبارة البقاعي، أو يتعمق فيما يقول - ربما - سيقف على كل ما قالوا أو كثير منه. وعلى كل حال فقد نبين لنا - بعد ذكر أدلة هذا العلم، ورد الإشكالات عنه - أن أغلب العلماء قد أطروه وامتدحوه بما هو أهله، بل جعلوه بالمكان الأسنى من البلاغة القرآنية المعجزة؛ التي لا تحصى فوائدها، ولا يدرك - بحال من الأحوال مهما طال الزمن - سبر غورها.

(١) انظر: الزركشي، المصدر نفسه، ١/ ١٣٢.

(٢) الزركشي، المصدر نفسه، ١/ ١٣٢، والبقاعي، المصدر نفسه، ١/ ٦-٧.

(٣) البقرة: ٢٨٥.

(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ١/ ٩.

المبحث السابع: تاريخ علم المناسبات والتأليف فيه

تبدو قضية التأريخ للفنون من المسائل المهمة التي تحتاج إلى مزيد عناية وطول بحث واستقصاء؛ ذلك لما لها من فوائد في تأصيل العلوم وتقعيدها، ومن ثم تتبع نشأتها وتطورها. على أن اهتمامي في هذا المبحث سيقصر على ذكر عدد ممن اهتم بهذا العلم وصنف فيه، أو حتى ذكره في تفسيره وإن لم يصنف فيه ما استطعت لذلك سبيلا.

لا شك أن لهذا العلم بذورا ضاربة في تاريخ التفسير؛ حيث بدأ ذلك من لدن العهد النبوي لينتقل على هيئة شذرات بعد ذلك -حسب الحاجة- تدريجيا من الرعيل الأول إلى من بعدهم من السلف. خاصة وقد وظفه أئمة التفسير للترجيح بين الآراء، والوقوف على لطائف تعزز قضية الإعجاز؛ التي نمت في أحضان كتب التفسير والمصنفات الأدبية.

على أنني أقول: إن كتب التفسير جميعها لا تكاد تخلو من مناسبة لطيفة هنا أو هناك، من لدن الإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) أو حتى قبله إلى عصرنا الحاضر. ولكن اللافت للنظر: أن يوليه عدد من المفسرين اهتماما ظاهرا، وعن وعي مبكر وتام، مثل الإمام أبي الحسن الشهرستاني حيث قال: * أول من أظهر ببغداد علم المناسبات ولم تكن سمعناه من غيره، هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري (ت ٣٢٤هـ)، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة^(١).

أحسب أن هذا أول تصريح وصلنا عن وعي حقيقي بعلم المناسبات. ثم كان الإمام الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)؛ الذي لا ينكر فضله في ميدان البلاغة بعامة. وبما أن علم المناسبات من أعمدة البلاغة الرئيسة، بله سرها -كما قال الإمام البقاعي - فإنك واجده - لا شك في الكشف - ولكن على هيئة غير تلك التي عند البقاعي كما سنلاحظ لاحقا^(٢).

ثم جاء بعد ذلك القاضي أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ) في تفسيره لأحكام القرآن، ليقول البقاعي نقلا عنه في "سراج المريدين": * ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون

(١) الزركشي، المصدر نفسه، ١/ ١٣٢.

(٢) ومن أحسن ما اطلعت عليه في درس بلاغة الزمخشري: كتاب الدكتور محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري. فقد تحدث في علم المناسبات وفي غيره - بما يقع الناس - كثيرا إن شاء الله تعالى.

كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله - عز وجل - لنا فيه...^(١).

ومن هذا النص الصريح في بكاره هذا العلم، إلى الإمام الرازي (ت ٦٠٦هـ)؛ الذي ضم تفسيره الجليل "مفاتيح الغيب" جملا كثيرة من هذا العلم، فكان بذلك حلقة رئيسة في تاريخه، بله مؤسسيه. قال الزركشي: "وتفسير الإمام فخر الدين فيه شيء كثير من ذلك"^(٢). وهذا هو الذي قاله الإمام البقاعي لاحقا: "وممن أكثر منه: الإمام فخر الدين الرازي. وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"^(٣).

ومن هؤلاء جميعا إلى الإمام الحرالي الأندلسي (ت ٦٣٧هـ)؛ الذي ضم الإمام البقاعي كثيرا من كتبه في موسوعته الضخمة "نظم الدرر"^(٤). إذ بالإمكان - حسب اطلاعي - استخراج أكثر من كتاب له؛ تلك الكتب التي اعتمدها البقاعي كثيرا في نظم الدرر مثل: "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل"، وكتاب "العروة لهذا المفتاح"، وغيرهما على ما صرح به في مقدمته^(٥).

ومن الحرالي المغربي؛ نزيل حماة من بلاد الشام إلى صاحب "التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير"؛ الكتاب الذي جاء في ستين مجلدا. قال البقاعي: "وبعد أن وصلت إلى سورة الكهف، ذكر لي أن تفسير ابن النقيب الحنفي (ت ٦٩٨هـ) وهو في نحو ستين مجلدا يذكر فيه المناسبات، وفي خزانة جامع الحاكم كثير منه، فطلبت منه جزءا، فرأيت الأمر كذلك بالنسبة إلى الآيات لا جملها، وإلى القصص لا جميع آياتها، ومن نظر كتابي مع غيره علم النسبة بينهما"^(٦).

فكتاب ابن النقيب البلخي المقدسي؛ شيخ أبي حيان قد وقف إذن على علم المناسبة، لكن وقفته تلك - رغم حجم كتابه - فقد اتصفت بالجزئية؛ لاقتصاره على التناسب القائم بين الآيات

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٦/١-٧. على أني أعتذر من الفارئ لعدده لمكني من الوقوف على سراج المرديد.

(٢) الزركشي، المصدر نفسه، ١/١٣٠.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ١/٦. لم أقف على هذا النص في تفسير الرازي؛ ربما خفي بموضع ورود.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١/١٠٠.

(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١/١٠٠. وقد ذكر الإمام البقاعي انتفاعه بأكثر كتب الحرالي، وذلك بعد أن أتى عليها وأطرى.

(٦) البقاعي، المصدر نفسه، ١/١٠٠.

لا جملها على ما ذكر الإمام البقاعي. وعلى كل فالكتاب حلقة ضمن حلقات متسلسلة في تاريخ هذا العلم.

فإذا انتهينا من هؤلاء جميعاً، فلا بد من المتابعة الحديثة، لنصل عقب ذلك إلى الإمام العلامة؛ أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي (ت ٧٠٨هـ) صاحب كتاب "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن"؛ إذ إنه من الكتب التي أفردت علم المناسبة بالحديث. قال الإمام الزركشي: "وقد أفرد بالتصنيف: الأستاذ أبو جعفر بن الزبير؛ شيخ الشيخ أبي حيان"^(١).

لكن ابن الزبير هذا وإن كان لكتابه الشأو الرفيع عند الإمام البقاعي في "نظمه"؛ حيث نقل صاحبنا جل كتابه، وذلك في مطلع تفسيره لكل سورة من سور القرآن، إلا أنه مقتصر على جهة واحدة من جهات علم المناسبة؛ وهي جهة التناسب بين السور فقط. قال الإمام البقاعي: "وطالعت على ذلك كتاب العلامة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير التقفي العاصمي الأندلسي المعلم بـ "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن"، وهو لبيان مناسبة تعقيب السورة بالسورة فقط، ولا يتعرض فيه للآيات، وسأذكر في أول كل سورة ما قاله فيها بلفظه، كما ستراه إن شاء الله تعالى"^(٢).

أما الإمام أبو حيان الأندلسي (ت ٧٥٤هـ) فقد صرح في مقدمة "البحر" بأنه يهتم بذكر وجه المناسبة للآية مع ما قبلها^(٣). ثم قال في أواخر تفسيره لسورة البقرة أيضاً: "وقد تتبعت أوائل السور المطولة، فوجدتها يناسبها أواخرها، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء. وسأبين ذلك إن شاء الله في آخر كل سورة، وذلك من أبداع الفصاحة، حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادة العرب في كثير من نظمهم؛ يكون أحدهم أخذاً في شيء، ثم يستطرد منه إلى شيء آخر، ثم إلى آخر هكذا طويلاً، ثم يعود إلى ما كان أخذاً فيه أولاً. ومن أنعم النظر في ذلك سهل عليه مناسبة ما يظهر ببادئ النظم أنه لا مناسبة له"^(٤).

هذا الكلام صريح في ذكر عناية هذا الرجل بعلم المناسبة، وإن كانت محاولته قد اقتصرت - حسب ما قال - على ذكر المناسبة بين أواخر السور وأوائلها، ومناسبة الآية مع ما

(١) الزركشي، المصدر نفسه، ١/ ١٣٠.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١/ ٦.

(٣) انظر: أبو حيان، المصدر نفسه، (المقدمة) ١/ ١٣.

(٤) أبو حيان، المصدر نفسه، ٢/ ٧٥٥.

قبلها. وعلى كل فما جاء في مقدمة "البحر" وما نص عليه آخر البقرة ليدل دلالة واضحة أيضا على رد ما نسبته الدكتور مصطفى مسلم لأبي حيان الأندلسي؛ في منعه ومعارضته لوجود مثل هذه المناسبات و الرد على قائلها^(١).

وقد خص الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) في كتابه "البرهان" مبحثا تاما بعنوان: معرفة المناسبات بين الآيات، تحدث فيه عن شيء من تاريخ هذا العلم وما قيل فيه، وضرب على ذلك بعض الأمثلة^(٢). وقد نقل صاحبنا ذلك، ثم نص في آخر مقدمته من "نظم الدرر" قائلا: "وقد ذكر الزركشي نحو أربع ورقات من مناسبات بعض الآيات، وإذا تأملتها عظم عندك ما في هذا البحر الزاخر من نفائس الجواهر وبدائع السرائر"^(٣).

ثم يأتي بعد ذلك كتاب الإمام البقاعي الموسوم بـ: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"^(٤).

بعد الإمام البقاعي طلع السيوطي بكتابه الموجزين: "تناسق الدرر في تناسب السور" ومراصد المطالع في تناسق المقاطع والمطالع.

أما الأول، فإن عنوانه قيل ولوجه يشي بحديثه عن تناسب السور فقط، وهو بهذا يعادل- من حيث الموضوع - كتاب أبي جعفر بن الزبير الغرناطي الأنف للذكر، مع فارق التشبيه في حجم كل منهما. ذكر السيوطي في كتابه هذا آراء العلماء في ترتيب السور، ثم شرع في سرد مناسبات هذه السور على حسب ترتيبها في المصحف الشريف، يقول: "وقد أردت أن أفرد جزءا لطيفا في نوع خاص من هذه الأنواع"^(٥)، هو مناسبات ترتيب السور؛ ليكون عجالة لمريده وبغية لمستفيده، وأكثره من نتاج فكري وولاد نظري؛ لقلته من تكلم في ذلك، أو خاض في هذه

^(١) انظر: مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص: ٦٢.

^(٢) الزركشي، المصدر نفسه / ١ - ١٣٠ - ١٤٨.

^(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ١ / ١٦.

^(٤) ملحوظة: سأفرد كتاب البقاعي بالحدث التفصيلي - بعد قليل - بالعلم مكان البقاعي، ومكانة تفسيره، وموقعهما من تاريخ علم التناسب.

^(٥) يعني الأنواع التي اشتمل عليها مصنفه "أسرار التنزيل"، إذ إن تناسق الدرر فرع، لكنه تفسير مومع لأحد الفروع التي ضمها "أسرار التنزيل". على ما قاله في مقدمته الاحقة.

المسالك... وقد كنت أولاً سميته: نتائج الفكر في تناسب السور... ثم عدلت وسميته: تناسق الدرر في تناسب السور؛ لأنه أنسب بالمسمى وأزيد للجناس^(١).

ويظهر أن كتابه الآخر - الذي لم أقف عليه - هو في التناسب بين مطلع السورة وآياتها، أو حتى مطلع السورة وختامها.

وفي هذه الرحلة مع تاريخ علم المناسبة، نذكر أيضاً أن الإمام أبا السعود (ت ٩٨٢هـ) قد اعتنى بهذا العلم في تفسيره الموسوم بـ: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم"، وكذلك الحال مع الإمام شهاب الدين الأوسلي (ت ١٢٧٠هـ) في تفسيره المشهور بـ "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني".

ومن هؤلاء جميعاً إلى العصر الحديث مع الإمام أبي الفضل الصديق الغماري الحسني في كتابه: "جواهر البيان في تناسب سور القرآن". فبالرغم من اقتصاره فيه على جزء يسير من علم المناسبة، ومن وجهة نظر تفسيرية دعوية، إلا أنه قد تكلم فيه على ترتيب السور، ومذاهب العلماء في ذلك، وانتصاره للرأي الذي يقول بالتوقيف؛ حيث إنه رأي عامة السلف. وقد تحدث فيه أيضاً عن المناسبة وشرفها، وكذلك عن وجوه ربط سور القرآن بعضها ببعض، وغير ذلك، وإن كان قليلاً إلا أنه يعد حلقة ضمن سلسلة من الحلقات المكملة في تاريخ هذا العلم.

أقول: بعد أن ظهر الاهتمام والعناية بالتفسير الموضوعي في القرآن الكريم في عصرنا هذا، رأينا الشهيد سيد قطب رحمه الله - لا يفتأ يعتمد المناسبة في "ظلاله"، مستعيناً بها في توضيح الأغراض الدعوية التي يرمي النص إليها. وكذلك الحال عند الإمامين؛ محمد عبده في تفسيره لجزء عم، ورشيد رضا في "تفسير المنار". والأديب كمال الخطيب في كتيبه "نظرة العجلان في أغراض القرآن". ولا ننسى كذلك الدكتور محمد محمود حجازي في مصنفه؛ "التفسير الواضح" و"الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم". وكذلك الحال عند الأستاذ سعيد حوى في تفسيره العصري: "الأساس في التفسير" وغير ذلك مما كتبه الباحثون المحدثون^(٢).

^(١) السيوطي، تناسق الدرر، (المقدمة) ص: ٥٤-٥٥.

^(٢) انظر تفصيل الدراسة التاريخية لعلم التناسب على سبيل المثال من:

أ - محمد القاسم، الإعجاز البيان، ص: ٣١-٣٥ فقد تحدث في ذلك مطولاً، لكن على وجه من الإجمال.

ب - عمر، علم المناسبات وأهميته، (مقالة) ص: ٨٦-٨٩، وغيرهما أيضاً من عرض لتفسير الموضوعي في القرآن الكريم، وهم أكثر من أن يحصوا.

الفصل الثاني

قواعد منهج البقاعي في بيان التناسب:
(شرح وتفصيل)

المبحث الأول: (وفيه مطلبان)

المطلب الأول: بيانه لمقصود كل سورة مع بداية تفسيره لهذه السورة.
المطلب الثاني: تفسيره للبسملة أول كل سورة بما يتناسب مع مقصود هذه السورة.

المبحث الثاني: اهتمامه البالغ بإظهار التناسب بين الآيات القرآنية، وبين جملها وكلماتها كذلك.

المبحث الثالث: اهتمامه البالغ بإظهار التناسب بين السور القرآنية.

قواعد منهج البقاعي في بيان التناسب (شرح وتفصيل):

لقد تبين لي بعد اطلاعي على تفسير الإمام البقاعي "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور": أنه - رحمه الله - قد سار في هذا التفسير على أسس منهجية أصيلة، وخطوات ثابتة مكيئة - وكنت قد نوهت في أواخر الفصل الأول إلى ذلك - إذ إن منهجه في الكتاب بعامة قد جاء على قسمين: قسم شاع واطرد وآخر - وهو الذي تحدثت عنه من حيث مراعاته للتفسير بالمأثور، وتوجيهه للقراءات القرآنية وعنايته بالأحاديث النبوية، وغيرها - ما جاء إلا خدمة للأول؛ الذي يتمثل في قواعد منهجه في بيان التناسب، وهو ما سأقوم بشرحه في هذا الفصل، وذلك من خلال ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: (وفيه مطلبان)

المطلب الأول: بيانه لمقصود كل سورة وهدفها مع بداية تفسيره لهذه السورة.

المطلب الثاني: تفسيره للبسملة أول كل سورة بما يتناسب مع مقصود هذه السورة.

المبحث الثاني: اهتمامه البالغ بإظهار التناسب بين الآيات القرآنية، بل بين جمل الآيات، وبين كلماتها.

المبحث الثالث: اهتمامه البالغ بإظهار التناسب بين السور القرآنية.

ومن الجدير بالذكر أن أنوّه بأن المناسبات المذكورة، أو العلاقات المستخرجة بين السور، أو بين الآيات ليست على درجة من السواء؛ فقد يجد القارئ التناسب الواضح، وقد يخفى عليه وجه التناسب، فيحسب أنه معدوم كلياً، وقد يتأرجح الأمر بين الوضوح والغموض. وهذا أمر طبيعي، إلا أن مفتاحه هو: النظر الدقيق في الآيات والسور - ولا بأس من إحضار المصحف في هذه الحالة -، ومحاولة التوصل التام مع موضوع التناسب دون انقطاع؛ لأنه أمر عقلي يحتاج إلى حسّ مرهف متصل - كما قرر ذلك الإمام البقاعي في مقدمته^(١) - على كل هذا مجرد تنويه، لكنه قد يكون ضرورياً - كما سيلاحظ القارئ بعد قليل -.

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ١١/١ - ١٦.

المطلب الأول: بيانه لمقصود كل سورة وهدفها مع بداية تفسيره لهذه السورة
لا تكاد مقدمة تفسير سورة من سور القرآن تخلو من كشف الإمام البقاعي لمقصدها،
فهو يرى أن لكل سورة غرضاً تهدف إليه، وتدور آياتها عليه، وذلك مهما اختلفت الآيات في
مرماها ومغزاها، وسواءً قربت من غرض سورتها أم بعدت عنه. وهو في بيانه لهذا الغرض
أو المقصد يسلك طريقاً شائكاً، لكنه يستعين عليه بنقاط أربع رئيسة ذكرها في مقدمة تفسيره
لسورة الفاتحة نقلاً عن شيخه البجائي المالكي (ت ٨٦٥هـ) وهي: النظر في الغرض الذي
سيقت له السورة، وما يحتاج إليه ذلك الغرض من مقدمات، ثم النظر في منازل المعاني
ومراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، ثم محاولة تدقيق النظر عند انجرار
الكلام في المقدمات إلى ما يستتبع ذلك من استشراف نفس السامع.^(١)

يقول الإمام البقاعي بعد تعاده لهذه النقاط وتفصيل القول فيها: "وقد ظهر باستعمالي
لهذه القاعدة، بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب:
أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مُسمّاه؛
عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه".^(٢)

إن الأمثلة على ما ذكر الإمام البقاعي كثيرة بعدد سور القرآن، فعند بيانه لمقصود سورة
الفاتحة مثلاً، ذكر أولاً كثيراً من أسمائها: (أم الكتاب، والأساس، والمثنائي، والكنز،
والشافعية، والكافية، والوافية، والواقية، والرقية، والحمد، والشكر، والدعاء، والصلاة)،^(٣) ثم
أول - رحمه الله - جميع هذه الأسماء مع غرض السورة، الذي هو إثبات استحقاق الله تعالى
لجميع المحامد، وصفات الكمال، واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، وباستحقاق العبادة،
والاستعانة بالسؤال في المنّ بالزام صراط الفائزين، والإنقاذ من طريق الهالكين. على أن
مدار ذلك كله - كما يقول - هو مراقبة العباد لربهم، لإفراجه بالعبادة، فهو مقصود الفاتحة
بالبذات، وغيره وسائل إليه.^(٤)

وهكذا فقد تابع الإمام البقاعي مع كل سور القرآن؛ ينظر الاسم والمضمون ثم يجمع
بينهما، ويخرج لنا بالمقصد أو الهدف، وقد نوع - رحمه الله - في ذلك حتى استعمل طرقاً
عدة.

^(١) انظر تفصيل هذه النقاط: البقاعي، المصدر نفسه، ١٨/١.

^(٢) المصدر نفسه، ١٨/١-١٩.

^(٣) المصدر نفسه، ١٩/١.

^(٤) انظر: المصدر نفسه، ١٩/١-٢٠.

من طرق معرفة مقصد السور أو هدفها:

أولاً: أن يتعرف على مقصد السورة أو هدفها من خلال اسمها، وذلك مثل تعرفه على مقصد سورة فاطر، وسورة الزمر، وسورة نوح، وسورة المزل، وسورة الإنسان. فمقصود سورة الزمر مثلاً: هو الدلالة على أنه سبحانه صادق الوعد، وأنه غالب لكل شيء فلا يعجل، لأنه لا يفوته شيء، كما يضع الأشياء في أوفق محالها، يقول الإمام البقاعي: "وعلى ذلك دلت تسميتها " الزمر"؛ لأنها إشارة إلى أنه أنزل كلاً من المحشورين داره المعدة له، بعد الإعذار في الإنذار، والحكم بينهم بما استحقته أعمالهم؛ عدلاً منه سبحانه في أهل النار، وفضلاً على المتقين الأبرار"^(١)

فهو سبحانه صادق في وعده، حيث أنزل كل واحد في الدار التي يستحقها، وذلك بعد أن أعذر وأنذر، كما أنه الغالب لكل شيء، المتفرد فيه الذي لم ينازعه عليه أحد ممن كان من قبل يدعي ويدعي. وبما أنه الغالب على كل شيء، المتصف بصفات الكمال، فلا حاجة للاستعجال، فهو يقضي بالعدل بين العباد، فمن كان نصيبه النار - والعياذ بالله - ألقى فيها، ومن كان حظه أن يكون في جنات النعيم فطوبى وحسن مأب.

يقول الإمام البقاعي: "وكذلك تسميتها "تنزيل" لمن تأمل آياتها، وحقق عبارتها، وإشارتها. وكذا "الغرف"؛ لأنه إشارة إلى حكمه سبحانه في الفريقين أهمل الظلس النارية، والغرف النورية؛ تسمية للشيء بأشرف جزئيه، فالقول فيها كالقول في الزمر سواء، ويزيد أهل الغرف ختام آيتهم: ﴿وعرف الله لا يخلق (لله) العاوه﴾^(٢).^(٣)

أما كونها "تنزيل": فلما فيها من أحكام عامة تتعلق بالوحدانية، ثم بمدخل النفس البشرية، ثم بمصير هذه النفس، وتسميتها بالغرف متناسبة كذلك كل التناسب مع مقصدها، وكما قال: فهي من باب تسميته الشيء بأشرف جزئية.^(٤)

ثانياً: أن يتعرف على مقصد السورة من خلال اسمها، إضافة إلى دليل من آية، أو مجموعة آيات كما في سورة الفتح؛ إذ إن مقصود هذه السورة يتناسب تماماً مع مدلول اسمها؛ الذي يعم فتح مكة وما تقدمه من صلح الحديبية، وفتح خيبر ونحوها، وما وقع تصديق الخبر به من غلبة الروم على أهل فارس، وما تفرع من فتح مكة المشرفة؛ من إسلام أهل جزيرة

(١) المصدر نفسه، ٤٣٦/١٦.

(٢) الزمر: ٢٠.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٤٣٦/١٦.

(٤) انظر مثل هذا أيضاً: البقاعي، المصدر نفسه، ١٦ (سورة فاطر)، ٤٤٢/٢٠ (سورة نوح)، ١/٢١ (سورة المرسل)، ١٢٠/٢١ (سورة الإنسان).

العرب، وقتال أهل الردة، وفتوح جميع البلاد. الذي يجمعه كله: إظهار الدين على الدين كله. (١)

فمقصود السورة كما نرى بشرى وفتح، ودليل ذلك اسمها، وما ترتب عليه أيضاً من فتوحات، وكذلك ما دلت عليه آياتها مثل قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله (الرؤيا بالحق)﴾، (٢) ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين ليظهره على الدين كله﴾، (٣) ﴿محمد رسول الله، والذين معه أشراء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه نازره فأستغلظ ناستوى على سوته يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾. (٤)

وهكذا فإن الإمام البقاعي قد تعرف على مقصود السورة بدلالة اسمها، وبما استشهد به من آيات، كانت في غاية التناسب مع اسمها الذي هو مقصدها.

ثالثاً: ومن طرق اكتشاف مقصد السورة أيضاً: نظر الإمام البقاعي في علاقة السورة موضوع البحث بآخر السورة التي قبلها، إضافة إلى ما في السورة نفسها من شواهد لهذا المقصد. يتضح هذا في تعرفه على مقصد سورة الشورى، ومقصد سورة القمر. ولتوضيح ذلك: نأخذ سورة الشورى مثلاً؛ إذ إن مقصودها هو: "الاجتماع على الدين الذي أساسه الإيمان، وأم دعائمه الصلاة، وروح أمره الألفة بالمشاورة، المقنضية لكون أهل الدين كلهم فيه سواء، كما أنهم في العبودية لشارعه سواء، وأعظم نافع في ذلك الإنفاق، والمواساة فيما في اليد، والعفو، والصفح عن المسيء، والإذعان للحق في الخضوع للأمر الحق وإن صعب وشق" (٥). ويقول أيضاً: "وإلى ذلك لوح آخر السورة الماضية: ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾، (٦) ﴿اللَّهُ إنه بكل شيء محيط﴾ (٧)، (٨). فأخر سورة فصلت: آيات ودلالات، ترشد إلى أن الاجتماع على أمر الله، وسنة رسوله - الذي هو الدين - هو الحق. على أن الله عليم، ومحيط بكل خبايا الأنفس، وما يكتفها من علاقات وترتيبات. الأمر الذي كان متناسباً مع مقصد سورة الشورى. فضلاً عن آياتها التي أشار إليها الإمام البقاعي، من مثل قوله تعالى: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا

(١) انظر هذا، وما يليه من أدلة أيضاً: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٧٣/١٨.

(٢) الفتح: ٢٧.

(٣) الفتح: ٢٨.

(٤) الفتح: ٢٩.

(٥) البقاعي، المصدر نفسه ٢٣٠/١٧. وبالنسبة لسورة القمر انظر أيضاً: المصدر نفسه، ٨٦/١٩.

(٦) فصلت: ٥٣.

(٧) فصلت: ٥٤.

(٨) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٣٠/١٧.

فيه،^(١) ﴿قُلْ لَّأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾،^(٢) ﴿وَاسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمَ لَا مَرَّةَ لَهُ مِنْ لَدُنْهِ﴾،^(٣) ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِسْمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، اللَّهُ إِلَهٌ وَإِنَّهُ تَصِيرُ الْأُمُورَ﴾.^(٤)

إقامة الدين وعدم التفرق، هو الذي أشار إليه الإمام البقاعي بالاجتماع الذي أساسه الإيمان. كما أن حسن التعامل والمودة، هو روح التعاون والمشاركة. ثم إن الهداية الكامنة في هذا الكتاب، التي مردها إلى الله، هي عينها الامتثال، والخضوع للحق تبارك وتعالى.

رابعاً: وقد يكون دليل المقصد - إضافة لما تقدم - قصة، كما في سورة التوبة، وسورة الأنبياء. ولتوضيح ذلك نأخذ على سبيل المثال: سورة التوبة؛ التي مقصودها: معاداة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية؛ من اتباع الداعي إلى الله في توحيد، واتباع ما يرضيه، وموالاته من أقبل عليه. وأدل ما فيها على الإبلاغ في هذا المقصد: قصة المخلفين؛ فإنهم لا عترافهم بالتخلف عن الداعي بغير عذر في غزوة تبوك هجروا، وأعرض عنهم بكل اعتبار، حتى بالكلام، فذلك معنى تسميتها بالتوبة. ثم ذكر الإمام البقاعي أسماء السورة الأخرى من مثل: براءة، والفاضحة، والبحوث، والمبعثرة، والمنفرة، والمثيرة، والحافرة، والحفارة، والمخزية، والمهلكة، والمشردة، والمدممة، والمنكلة، وبين لكل وجه تناسبه مع مقصد السورة، أو تناسب المقصد معها أحياناً.^(٥)

خامساً: أن يكون دليل المقصد حدثاً بارزاً في ثنايا السورة، كالوقوف على مقصد سورة الرعد، والأنعام، والنحل، والنمل.

فمقصود سورة الرعد كما صرح به الإمام البقاعي هو: وصف الكتاب بأنه الحق في نفسه، وتارة يتأثر عنه، مع أن له صوتاً، وصيتاً، وإرعاباً، وإرهاباً، يهدي بالفعل. وتارة لا يتأثر، بل يكون سبباً للضلال والعمى، وأنسب ما فيها لهذا المقصد: الرعد، فإنه مع كونه حقاً

^(١) الشورى: ١٣.

^(٢) الشورى: ٢٣.

^(٣) الشورى: ٤٧.

^(٤) الشورى: ٥٢-٥٣.

^(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٥٠/٨. وقريب من هذا الدليل أيضاً: اكتشاف مقصود سورة "هود" عليه السلام، حيث كان ذلك بقصة، ودليل آخر تمثل في مجموعة آيات. انظر: المصدر نفسه، ٢٢٤/٩. والنسبة لسورة الأنبياء فإن مقصودها هو: الاستدلال على تحقن الساعة. وقرها ولو بالوثق، ووقوع احساب فيها على الخليل والحقير، والدليل فيها - كما يقول الإمام البقاعي - على ذلك واضح جداً: عموماً قصص جماعة من ذكر فيها من الأنبياء عليهم السلام. والنسبة لذلك كما بنظر: المصدر نفسه، ٣٧٨/١٢.

في نفسه يسمعه الأعمى والبصير، والبارز والمستتر، وتارة يتأثر عنه البرق والمطر، وتارة لا، وإذا نزل المطر فتارة ينفع إذا أصاب الأراضي الطيبة وسلمت من عاهة، وتارة يخيب إذا نزل على السباخ الخوارة، وتارة يضر بالإغراق أو الصواعق، أو البرد وغيرها، والله أعلم.^(١)

فالإمام البقاعي وقد ساق هذا الدليل، وكانني به يعقد مقارنة - مع فارق التشبيه - بين وصف كتاب الله، وأثره في الناس بعامه. وبين وصف ظاهرة الرعد وأثرها وما ينتج عنها. فكتاب الله حق سيار، معلوم لدى الجميع. إلا أن قبوله أو عدم قبوله أمر نسبي؛ فهو يفيد وينفع كل من صدق به، وأقبل عليه. ولكن قد لا يفيد منه بعض الخلق؛ لخلل في نفوسهم؛ كأن تكون مريضة، أو عليها أثر من غفلة أو طمس. فهو حجة دامغة على مثل هذه النفوس، وشلكنتها؛ يقودها في الدنيا إلى شقاوة، وفي الآخرة إلى عذاب السعير. وقريب من هذا الوصف حال الرعد وما ينتج عنه، وأثره على الأرض بأنواعها كما وضع ذلك في مكانه.

هذا مما اطّرد عند الإمام البقاعي في تفسيره، حتى أصبح يشكل لازمة تتسحب على جميع مقدمات تفسيره لسور القرآن. وقد رأينا اعتماده على اسم السورة في تعيين المقصد، واستشهاده على ذلك بأدلة كثيرة منها ما كان يعود إلى اسم السورة، أو إلى آية أو مجموعة آيات، أو حتى إلى قصة، أو حدث بارز في ثنايا السورة أو غير ذلك مما يدرك بالتتبع والاستقصاء. وعلى كل فلقد كان الإمام البقاعي على وعي تام بتناسب هذه الأدلة مع مقصد السورة التي يستشهد لها كما سبق ورأينا.

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٦٢/١٠. وانظر أيضا: ذيل مفصل سورة الأعمام ١١/٧، وسورة النحل، ١٠١/١١، وسورة المل،

المطلب الثاني: تفسيره للبسملة أول كل سورة بما يتناسب مع مقصود هذه السورة
 درج الإمام البقاعي عند مطلع تفسيره لكل سورة أن يترجم عن مكنون البسملة بما
 يتلاءم ومقصود السورة، على أنه بهذا الصنيع قد وقف على إعجاز تناسبي فريد لم أجده -
 حسب اطلاعي - عند غيره من المفسرين.

ومن دلائل هذا الإعجاز أن آية واحدة مثل " البسملة" وسعت كل هذه المعاني القيمة التي
 تضمنتها سور التنزيل الحكيم، لكن الملاحظ أن تفسيره للبسملة لا يخرج - في الغالب - عن
 معناها اللغوي، وأمر آخر لا أحسبه يغير شيئاً وهو: تقديمه للبسملة أحياناً على مقصود
 السورة، وقد يكون العكس.

وبالنظر في النموذج التالي يتبين لنا مصداق هذا المنهج، وكيف استطاع البقاعي بسعة
 علمه أن يجعل البسملة بكلماتها القليلة متفقة في معناها، ومتلائمة مع مقصود كل سورة من
 سورة القرآن الكريم.

قال في مطلع تفسيره لسورة الأنعام مثلاً:

" بسم الله" : الذي بين بدلائل توحيده أنه الجامع لصفات الكمال.

" الرحمن": الذي أفاض على سائر الموجودات من رحمته بالإيجاد والإعدام، ما حير
 لعمومه الأفهام فضاقت به الأوهام.

" الرحيم": الذي حبا أهل الإيمان بنور البصائر، حتى كان الوجود ناطقاً لهم بالإعلام بأنه
 الحي القيوم السلام.^(١)

وبالنظر في هذا التأويل لمضمون البسملة، نلاحظ أنه ترجمة لمقصود سورة الأنعام؛
 حيث إن مقصودها هو الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب في السورة الماضية (المائدة) من
 التوحيد، بأنه سبحانه الحاوي لجميع الكمالات؛ من الإيجاد، والإعدام، والقدرة على البعث
 وغيره، مع إبطال ما اتخذوه من أمر الأنعام ديناً؛ لأنه من الأمور التي لم يأذن بها الله، ولا
 أذن لأحد معه فيها، إذ هو المتوحد بالألوهية، لا شريك له، وكذلك حصر المحرمات من
 المطاعم التي هي جلها في هذا الدين وغيره، فدل ذلك على إحاطة علمه. وهذا يدلنا أيضاً:
 على أن إحاطة العلم لازم لشمول القدرة وسائر الكمالات، وذلك عين مقصود السورة كما
 يقول الإمام البقاعي.^(٢)

وبهذا يتعاقب ما قيل في البسملة مع ما جاء في المقصد؛ فهو وحده المظهر لدلائل
 التوحيد؛ بما جاء في السورة من أدلة وبراهين كشفت عن كماله سبحانه وتعالى بترك

^(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٢/٧. ويذكر أن هذا التفسير قد انسحب على جميع سور القرآن الكريم، ودون استثناء أي سورة منه، عنى
 أن كل ذلك بما يتناسب ومقصود السورة وهدفها.

^(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١/٧.

الموجودات، التي ما كانت إلا رحمة منه سبحانه على عباده ليتتوروا من خلالها شمس الحق التي لا تغيب عن عيون ذوي البصائر. وكل هذا يدل على أنه الواحد الحي، والمراقب القائم على كل الموجودات. فسبحان من كتابه كالحلقة تتعانق فيه الكلمات لتتناسب مع الجمل، والجمل مع الآيات، والأخيرة مع بعضها وهكذا... إلخ.

إنّ هذا الاتجاه الذي سلكه البقاعي في ربطه للبسملة بمقصد كل سورة، وتفسيرها على هذا الأساس، ليدل - فيما يدل عليه - على مقدرة فائقة في مجال التفسير، والنظر في الآيات والسور نظرة عميقة ودقيقة، بحيث تجعله يقف على تناسب جمالي لطيف. هذا إضافة إلى كشفه عن مقصد السورة، وبالتالي نظره في "بسملتها" بما يتناسب مع المقصد المستخرج. الأمر الذي يشي بأن البقاعي يرى في البسملة دلالات أخرى سوى التبرك؛ فهي آية يتسع معناها، ويتعمق مفهومها؛ ليس مقصود كل سورة من سور القرآن الكريم التي تصدرت بها. وفي هذا من الإيجاز كما ذكرت ما فيه، والله المستعان.

المبحث الثاني: اهتمامه البالغ بإظهار التناسب بين الآيات القرآنية:

نظراً لعدد آيات القرآن الكريم بالنسبة إلى سوره، فأني سأقف على معلّمين رئيسيين في هذا المقام.

أما المعلم الأول: فبعد مقدمة قصيرة بين يدي هذا العنوان، سأقوم بشرح القاعدة العامة لعرفان مناسبات الآيات وتوضيحها. وفي المعلم الآخر: سأقف على اثني عشر شكلاً، في اثني عشر مطلباً من العلاقات التناسبية بين الآيات، أوضح من خلالها صوراً من الوجود البلاغية، في ارتباط أي القرآن بعضها ببعض، وما في ذلك من لطائف جميلة، ونكات بديعة. لكن قوام ذلك - كما سبق وذكرت - هو استحضار العقل والحس معاً، مع الحرص على وجود مصحف بين يدي القارئ.

التناسب بين الآيات:

إن الحديث عن التناسب بين الآيات وبين أجزائها لهو الحديث عن جهد ضخم مقارنة بما سيأتي من حديث عن التناسب بين السور؛ إذ إن عدد آيات القرآن، فضلاً عن جملة ليشهد بذلك.

ولما كانت تلك الآيات لا تخلو في علاقاتها بين بعضها بعضاً من قران ما^(١).

كالبدر من حيث التفت وجدته يهدي إلى عينيك نوراً ناقباً

فقد وقفت أمام هذا الصرح العظيم، أستشهد على ما ذكرت، حتى ألفت جميع تفسيره يمثل ذلك، الأمر الذي أثار عندي دهشة وحيرة في كيفية الإحاطة بتلك الروابط، أمام هذا البحر من التناسبات؛ إذ هو بحر من كلمات الله، يمدّه من بعده أبحر لا ساحل لها ولا آخر. لكل ذلك كان من الصعوبة بمكان، ومن الاستحالة في زمان، أن يحيط امرؤ بمثل هذا التناسب، وأن يقف وقفة تامة على تلك الروابط التي تنتظم هذه الآيات وجملمها. إذ كل مفردة في كتاب الله لها صلة رحم واسعة، تبدأ بموقعها الذي تنزل فيه، ثم الذي يتقدمه أو يليه، إلى أن تضرب بجزئها إلى أول القرآن وآخره، وذلك في خيط متناسق حقيقي لا مربة فيه، يقوم أساساً كما يقول الدكتور محمد الرتيمة "على نظرة شاملة لنظام شامل باعتبار القرآن وحدة بنيائية مرتبطة الأجزاء..."^(٢)، حتى إنك لتمر على بعض الآيات فتحسبها غريبة لا صلة لها بأخواتها، فإذا وقفت أمامها وفتشنتها أنفيتها في غاية التناسب بالنسبة لأخواتها، وكما يقول

(١) رتيمة، المرجع نفسه، ص ١٨٤.

(٢) رتيمة، المرجع نفسه، ص ١٨٣.

الإمام البقاعي: فيرقص لذلك فكرك طرباً، وتشكر أنت لله استغراباً وعجباً^(١)، على أنه وبقدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها^(٢).

وقد تمكنت - بحمد الله - من تأمل جزء من هذه التناسبات وروابطها، ثم قمت باصطياد عدد - لا بأس به - من النكات البديعة الكامنة في هذه التناسبات، مبتدئاً فسي ذلك بالآية؛ إذ هي أس القرآن ومركزه، كما أن البيت في القصيدة - كما يقول السيوطي وقد قارن مجازاً بين الطرفين - هو عمودها ومركزها^(٣)، ومختتماً بمجموعة من الآيات، فسي اجتهاد جزئي، أمل أن يكون فيه قلع شوك وتعبيد طريق أمام الباحثين للولوج بتؤدة وطمأنينة إلى تناسبات أبعده وأعمق مما توصلت إليه، على أن هذا ليس بغريب، فهو دأب الباحثين دوماً في بحوثهم. ولكن قبل أن نعيش مع أشكال هذا التناسب، لابد من التعرف على القاعدة العامة لعرفان مناسبات الآيات، ثم أنتقل بعد ذلك إلى الأسس الترابطية في الصلات بين الآيات.

١ - شرح القاعدة العامة لعرفان المناسبات بين الآيات:

قال الإمام البقاعي نقلاً عن شيخه البجائي المالكي: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو: أنك تنتظر الغرض الذي سيقف له السورة، وتنتظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنتظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنتظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام، واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء العليل، الأمر الذي يدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها. فهذا هو الأمر الكلي المهيم على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة وسورة"^(٤).

نلاحظ أن هذه الفقرة تنص على نقاط أربع رئيسة، هي مفاتيح عرفان مناسبة الآيات في جميع القرآن، وهذه النقاط هي:

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٢/١.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٤/١. وبالتالي أحسب أن أحداً لا يحسنني على هذا المقام؛ إذ مئماً اجتهدت، ومهما تواضعت فلن أبلغ شأواً يذكر أمام تدفق أسرار هذا البحر الدائم في جريانه، الذي لا تقتضي عجائبه ولا أسراره. ولذلك لم يبق لي إلا وقفة المتأمل، الذي ربما لاحظ له بين التفينة والأخرى فرصة استنباط مجموعة من التناسبات وروابطها، ومن قبيل التمثيل لا الاستقصاء.

(٣) الانتقان، ج ١/ص ٥.

(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ١٨/١-١٩.

أولاً: النظر في الغرض الذي سبقت له السورة ومحاولة استكشافه وتحديده، وليس هذا بالأمر الهين؛ لأنه يحتاج إلى نظر عميق، وذهن ثاقب، وحس مرهف في تفتيش تراكييب السورة، وصورها وكل معنى فيها، وعلاقة ذلك بما قبل وما بعد حتى يصل الباحث بعدها إلى غرض السورة وهدفها.

ثانياً: النظر في ما يحتاج إليه ذلك الغرض أو الهدف من مقدمات؛ بمعنى أن يتعرف الباحث على منازل المعاني، ومراتبها في ضوء المعرفة الواضحة للغرض الذي انعقد عليه الكلام. وبهذا يقف الباحث على المعاني الرئيسية، والمعاني الثانوية. الأمر الذي يقوده إلى جماع ذلك وهو: المقاصد الكلية ومقدماتها.

ثالثاً: النظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب؛ أي النظر إلى العلاقة بين المقدمة وبين الغرض أو المقصود. هذا ولا بد أن تكون المقدمات موشاة بتوشية ما تشير إلى المطلوب؛ فمقدمة الرحمة غير مقدمة العذاب، ومقدمة المدح والإطراء، غير مقدمة اللوم والعتاب وهكذا... الخ؛ لأن لكل باب مما ذكرت مداخلة التي هي أشبه به، والتي تميزه عن غيره.

رابعاً: النظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبع ذلك من استشراق نفس السامع. أي ما تثيره اللغة -بحركة الكلام وضروبه- من أحاسيس وهواجس وأشجان، تتأغي به البنية الداخلية للنفس، فتجعلها في حالة من السعادة والشوق. وكل ذلك وهي في طريقها نحو الغرض المقصود^(١).

والأستاذ محمد أبو موسى يرى أن هذا الباب من الكلام يرشد إلى: دراسة العلاقة بين مداخل المقاصد، والمقاصد نفسها، بمعنى: دراسة العلاقة بين مقدمات القصائد مثلاً وموضوعات هذه القصائد. وهي دراسة على درجة من الأهمية، لكنها غير سهلة البتة؛ يقول الدكتور أبو موسى: "وهذا باب من غوامض الشعر فقد تجد عنصراً لغوياً غريباً في بناء القصيدة، ويظل هذا العنصر ناتئاً عندك لا تستسيغه ولا تستوعبه، فيما استسغت واستوعبت من عناصر القصيدة حتى تقع على مناسبتة الخفية لعناصر أخرى دخلت في بناء القصيدة"^(٢).

على أن قضية المطلع والمقصد، وإيجاد العلاقة بينهما -رغم صعوبتها- إلا أنها على درجة من الأهمية كما سبق أن ذكرت، فهي تحل كثيراً من الإشكالات التي تعرض للباحث. ونحن نعلم أن الأسلوبية قد أنفقت وقتاً طويلاً في هذا المجال، وبالذات محاولتها الكشف عن

(١) لقد أفدت في شرح نص البقاعي الذي نقله عن شيخه من الدكتور أبو موسى وتعليقه عليه. ص ١٣ وما يليها من كتابه:

البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري.

(٢) أبو موسى، البلاغة القرآنية، ص ١٦.

خصائص أسلوبية تأتي في سياقات خاصة. فإذا علمنا أن الإمام البقاعي قد صبَّ جُلَّ اهتمامه على هذا الغرض، فهو -وبلا تردد- من ألمع علماء الأسلوبية في هذا المجال. ألسنا نعظم دراسة التناسب اللغوي أو الفني داخل القصيدة، أو السورة القرآنية كما يقول الدكتور أبو موسى. بل ونعد الاقتراب منه اقتراباً حقيقياً من روح الشعر أو النص الأدبي بعامه، كما أن إغفاله إغفال لحقيقة من حقائق الأدب التي لا تخفي غناءها كل منجزات (كلود-ليفى شتراوس، وفلاديمير بروب، ورومان ياكسون وغيرهم)^(١).

هذا بالنسبة إلى كيفية التعرف على وجوه التناسب بين الآيات، وأهمية هذا اللون من البلاغة في دراسة الأدب بعامه. وإذا كان ذلك كذلك، فماذا عن أشكال التناسب القائم بين الآيات؟ أو الأسس الترابطية في الصلات بين الآيات؟.

٢ - من الأسس الترابطية في الصلات بين الآيات:

لقد حاولت تأمل هذه العلاقات التناسبية أو الأسس الترابطية فألفيتها كثيرة، الأمر الذي قادني إلى التمثيل لا الاستقصاء - كما بينت في مقدمة التناسب بين الآيات - . وقد جعلت هذه العلاقات في اثني عشر مطلباً، ثم تتبعت أسس هذه الصلات فكان الأمر على النحو التالي:

المطلب الأول: التناسب بين الآية وما قبلها مباشرة:

لقد عرض الإمام البقاعي للآيات القرآنية واحدة واحدة، فأظهر لكل -حسب اجتهاده- وجه ارتباطها بأختها بنوع من الروابط. من ذلك:

ما يكون فيه التناسب على أساس الالتفات الذي يفيد التكييت والتبكييت، إذ يعد الالتفات من الأساليب البليغة الرفيعة؛ فتحريك النفس وإيقاظها لهو من أهم أغراض الكلام، إذ إنه من الأساليب التي تهز النفس فتلفتها وتحركها، بله توقظها.

يقول الإمام الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾^(٢).

"... ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن؛ تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرانه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقع فوائده"^(٣).

أقول: ومن فوائد هذا الأسلوب وخصوصيته التأثيرية على النفس أن يربط آية بآية

أخرى قبلها على سبيل التكييت والتبكييت كما في قوله تعالى:

(١) انظر: أبو موسى، المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٢) الفتاوى: ٥.

(٣) الزمخشري، المصدر نفسه، ٢٣/١-٢٤.

﴿اقتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يُحرفونه من بعد ما عقلوهُ وهم يعظمون﴾^(١).

لقد تعلقت قلوب كثير من المسلمين تعلقاً قوياً طمعاً في إيمان يهود، فكان الأنصار خاصة دون غيرهم يودون إسلامهم؛ لما كان بينهم من جوارٍ وحلفٍ ورضاعة؛ ولكن أنسى ذلك، وما ذكروا في القرآن إلا مفسدين؛ من لدن وجودهم إلى زماننا هذا، فقلوبهم محجوبة بالرين، كثيفة الطبائع السيئة؛ لكثرة معاصيهم، وتوالي تجرؤهم على الله، وعلى عباده، بحيث صارت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾^(٢)، فهم في وادٍ غير وادٍ الإيمان، فلا طمع والحال ما ذكرت في إيمانهم؛ لذلك فقد التفت الخطاب الرباني إلى المؤمنين -وبكل وضوح- يؤيسهم من فلاحهم؛ تسلياً للنبي -صلى الله عليه وسلم، وتسلياً لكل المؤمنين معه؛ لما كان لهم من حرص كبير على طلب إيمانهم. وكل ذلك في معرض التذكير عليهم والتبكيث لهم، منكرًا كل الإنكار أي طمع يرأود أحداً في إيمانهم، وذلك بعدما تكرر من كفرانهم، وتحريفاتهم الدائمة لشرع الله. حتى صار النص: قد طمعتهم في إيمانهم وحالهم ما ذكر؛ من أخذهم دينهم من قوم يحرفونه عناداً، ويعلمونه قومهم على أقل التقدير^(٣).

ومن هذا اللون ما يكون على سبيل الاستئناف التبيكيثي الممزوج برائحة الالتفات كما في قوله تعالى:

﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾^(٤).

وذلك بعد قوله تعالى:

﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيراً فإن الله شاكراً عليم﴾^(٥).

إذ لما تقدم أن بعض أهل الكتاب يكتُمون ما يعلمون من الحق، وختم ما أتبع ذلك؛ أي ﴿إن الصفا والمروة﴾ بصفتي الشكر والعلم، بالشكر لمن نصح الله، واتبع شرعه، إذ هو وحده الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، حتى وإن دقت الأفعال، وبالغ القوم في كتمانها، بعد ذلك؛ أي اتباع شرع الله كاملاً وشكر من يقوم بذلك -انعطف الكلام إلى تبكيث المنالفقين،

(١) البقرة: ٧٥.

(٢) البقرة: ٧٤.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٨٤/١-٤٨٥، وانظر أيضاً: أبو حيان، المصدر نفسه، ٤٣٧/١-٤٣٨.

(٤) البقرة: ١٥٩.

(٥) البقرة: ١٥٨.

وكذلك المصارعين ولعنهم على كتمانهم ما يعلمون من الحق، فمن أراد أن يعرفهم معرفة تامة فليقرأ سورة البقرة، فهذه الآية، وما تقدمها وكثير مما يليها هو -في الحقيقة- تبيان شامل لنفوس بني إسرائيل، وما يكون من خروج عن هذا الغرض إنما هو من قبيل استطراد الأسلوب الحكيم المبين؛ لأن هذا الكتاب هدى للناس كافة، كما أن السياق بعد التزام الطاعة والشكر على ذلك كان مرشداً إلى القول: بأن من أحدث شراً فإن الله عليم قدير، لذلك وصل به سبحانه وتعالى استئنافاً قوله على وجه يعمهم وغيرهم **﴿إن الذين يكتُمون﴾**^(١).

وكذلك قوله تعالى:

﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾^(٢).

فبعد أن وبّخهم العزيز الجبار على استحالة مقالتهم في إبراهيم عليه السلام، ونبه على ما يظهر به غلظهم ومكابرتهم على وجه التقرير والإنكار والتبكيك لكل ادعاءاتهم، وكثرة حديثهم في هذه القضية، إذ كيف يكون إبراهيم عليه السلام على ملة هو متقدم عن حديثها^(٣): **﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده، أفلا تعقلون﴾**^(٤). بعد أن وبّخهم ونبه على ما يظهر به غلظهم ومكابرتهم استأنف سبحانه وتعالى لهم تبكيكاً آخر، ملقناً من تبكيك إلى تبكيك، منبهاً لهم، ومكرراً للتببيه، إشارة إلى طول رقادهم وشدّة عنادهم^(٥).

وقد يكون التناسب بين الآية والتي قبلها قائماً على العطف؛ الذي يفيد التشريف والتكريم كما في قوله تعالى:

﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾^(٦).

إذ لما أوجب الله - سبحانه وتعالى - للشيطان ما ذكر من الشقاوة، لتماديه في حسد آدم - عليه السلام - وبنيه، وما كان من أمره بعد ذلك، وخاصة كثرة كلامه في محسوده، من أكثر من وجهة - عليه اللعنة - التفت سبحانه وتعالى إلى محسوده الذي لم يتكلم فيه كلمة واحدة، بل

(١) انظر: البقاعي المصدر نفسه، ٢٧٢/٢-٢٧٣.

(٢) آل عمران: ٦٦.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٤٩/٤-٤٥٠.

(٤) آل عمران: ٦٥.

(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٥٠/٤، وانظر أيضاً: أبو حيان، المصدر نفسه، ١٩٨/٣ وانظر مثل هذا التناسب بين الآية

(٦٠) والآية التي قبلها (٦٩): البقاعي، المصدر نفسه، ٤٥٥/٤-٤٥٦.

(٦) الأعراف: ١٩.

انشغل بنفسه، واكتفى بجزائه، ورضي بقضاء ربه فقال - سبحانه وتعالى - عطفاً تناسيباً على الآية التي قبلها؛ ﴿قال اخرج منها مذموراً مدحوراً لمن تبك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾^(١)، قال: ﴿ويا آدم اسكن﴾ فكان هذا الالتفات الرباني فيه من التشريف والإناس والتكريم لآدم وزوجه -عليهما السلام- ما فيه^(٢).

هذا وقد يكون الالتفات من قبيل الوعظ والامتنان، كما في قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير، والله على كل شيء قدير﴾^(٣).

إذ لما حُضت حجة اليهود والنصارى -وهم كعادتهم في حججهم الواهية والدفاع عنها- ووضحت أكذوبتهم لكل من يريد أن يصل إلى الحق، إذ هو أحق أن يتبع: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يُعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾^(٤). لما وضح ذلك التفت سبحانه وتعالى إلى وعظهم على وجه الامتنان عليهم، وإبطال ما عساهم يظنون حجة فقال: ﴿يا أهل الكتاب﴾^(٥).

ومن التناسب في هذا المجال أيضاً ما يكون قائماً على علاقة استثناء كما في قوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيتوا فأولئك أتوب عليهم، وأنا التواب الرحيم﴾^(٦).

إذ لما أمر سبحانه أمر القبلة، وما استتبعه، وختم بشريعة الحج المكتوبة على الناس عامة، رجع إلى أمر الكاتمين؛ الذين يكتمون الحق وهم يعلمون، وأعظم ما كتموه: أمر هذا الكتاب؛ الذي هو الهدى الذي افتتح الله به السورة: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾^(٧). لما بين جزاءهم سبحانه وتعالى، استثنى منهم التائبين؛ الذين أصلحوا ما أفسدوا من أحوالهم، وتداركوا ما فرطوا به، وبيتوا ما بينه الله في كتابه. وبذلك يكون سبحانه وتعالى قد عرض للمعصية، وبين جزاء من اقترفها، ثم أتبعها على الفور التوبة بشروطها الثلاثة^(٨).

(١) الأعراف: ١٨.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٧١/٧.

(٣) المائدة: ١٩.

(٤) المائدة: ١٨.

(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٦٩/٦.

(٦) البقرة: ١٦٠.

(٧) البقرة: ١٥٩.

(٨) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٧٦/٢.

هذا شيء يسير من علاقة الآية بما قبلها مباشرة، وما في ذلك من تناسب، وهو بالشيء الذي لا يذكر مقارنة بما هو كائن في نظم الدرر، لكن حسبي من ذلك التمثيل الذي يدل على عناية الرجل بهذا الوجه من التناسب.

المطلب الثاني: التناسب بين الآية وما قبلها عموماً:

وكما ترتبط الآية بالنبي قبلها مباشرة، فإنها ترتبط أيضاً بالآيات التي تسبقها على وجه العموم، وذلك بعلاقات عديدة منها ما يكون قائماً على توقع سؤال كما في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾^(١).

إذ لما علم العبد أن لا نجاة إلا بهداية الله سبحانه وتعالى، ولا عصمة بغير عنايته، كما لا سعادة إلا برحمته، ولا سلامة لغير أهل نعمته، وأشرق بذلك واستتار، وعرف مواقع الأسرار بالأقدار، كان كأنه قيل له ماذا تطلب؟ وفي أي مذهب تذهب؟ فقال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ولما طلب أشرف طريق سأل أحسن رفيق فقال: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾، ولما كانت النعمة أيضاً قد تخص النعم الدنيوية عينها، واستعاذ من أولئك الذين شاهدتهم في آياتهم سائرين، وعن القصد حائرين جائرين، فقال: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾^(٢).

ومن هذا الوادي أيضاً قوله تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا، فمن جاءه موعظة من ربه فاتته فله ما سلف وأمره إلى الله، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾^(٣).

إذ لما ذكر - سبحانه وتعالى - النفقة من أول السورة إلى قبل هذه الآية في غير ما موضع، ورغب فيها بأنواع من الترغيب في فنون من الأساليب، وكان الرزق يشمل الحلال والحرام، وكان مما يسترزقون به قبل الإسلام الربا، وهو - طبعاً - خبيث لا يصلح لأكل ولا صدقة، لما كان ذلك كذلك، فقد جعل سبحانه وتعالى هذه الآية بمثابة جواب عن سؤال من كأنه سأل: هل تكون النفقة المحبوبة المحثوث عليها من كل مال؟ فأجاب سبحانه وتعالى بما تقدم^(٤).

وأوضح من هذا قوله تعالى:

(١) الفتحة: ٦-٧.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٥/١.

(٣) البقرة: ٢٧٥.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٠٨/٤-١٠٩. (يذكر أن آيات الربا محاصرة أولاً بالإنفاق، وثانياً بالدين، مع ختام ذلك بأحر ما نزل من القرآن، وهو من أواخر قول النبي - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع؛ وما ذلك إلا لخطورة هذا الوباء، وأثره السيء في الدارين).

﴿ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا و عملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين﴾^(١).
 كان أن سبق هذه الآية آيات تحريم الخمر، فثارت بعد ذلك أسئلة دوت في رحاب المدينة - على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم - يا رسول الله: ناس قتلوا في سبيل الله، أو ماتوا على فرشهم، كانوا يشربون الخمر، ويأكلون ما جرّه الميسر، وقد جعل الله ذلك رجساً من عمل الشيطان وفي الصحيحين: أن الخمر لما حرمت قال بعض القوم: قد قتل فلان وفلان وهي في بطونهم فأنزل الله سبحانه وتعالى جواباً لكل ما تقدم: ﴿ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا...﴾^(٢).

يقول الإمام البقاعي أيضاً بعد ذلك: "على أنه لو لم يرد هذا السبب كانت المناسبة حاصلة، وذلك أنه تعالى لما أباح الطيب من المأكّل، وحرّم الخبيث من المشرب، نفى الجناح عن يأكل ما أذن فيه أو يشرب عدا ما حرّمه، فأتى بعبارة تعم المأكّل والمشرب فقال: ﴿فيما طعموا﴾ أي مأكلاً كان أو مشرباً، وشرط ذلك عليهم بالتقوى؛ ليخرج المحرمات فقال: ﴿إذا ما اتقوا﴾؛ أي أوقعوا جميع التقوى التي تطلب منهم، فلم يطعموا محرماً^(٣).

وقد يكون التناسب قائماً على أساس من الاستئناف الجوابي التأكيدي التفصيلي لما أجمل في آيات من قبل كما في قوله تعالى:
 ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين...﴾^(٤).

إذ لما ذكر سبحانه وتعالى في الآية السابعة من السورة نفسها ما نصه: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر، نصيباً مفروضاً﴾^(٥).

لما ذكر - سبحانه وتعالى - هذا وغيره تشوفت النفوس السليمة إلى بيان مقادير الاستحقاق بالإرث لكل واحد، خاصة وقد ذكر في الآية السابقة استحقاق الرجال والنساء من غير تقييد ولا تفصيل. لكل ذلك اقتضت البلاغة القرآنية بيان أصول جميع الموارث، وشفاء العليل بإيضاح أمرها، حتى لا يأتيك في آخر الزمان من يقول: لا نعطي النساء ميراثهن إلا إذا أعطت عائلة كذا وكذا... تبا لهم ولمن سار على نهجهم، فقد أزم سبحانه نفسه القسمة في هذا الأمر. أفينظرون حكم القبيلة أو العائلة، ويخافون أن يحيف الله ورسوله عليهم. وعلى

(١) المائدة: ٩٣.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٩٥/٦-٢٩٧.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٩٧/٦.

(٤) النساء: ١١.

(٥) النساء: ٧.

كل فلماً كان ذلك كذلك، فقد قال سبحانه وتعالى مستأنفاً في جواب من كأنه سأل عن ذلك، ومؤكداً لما أمر به في ذلك غاية التأكيد، حتى لا يكون لأحد بعد ذلك من حجة يحتج بها^(١):
﴿للرجال نصيب﴾.

ومن هذا التناسب أيضاً ما يكون قائماً على العطف كما في قوله تعالى: **﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾**^(٢).

إذ لما تحدث سبحانه وتعالى قبل هذه الآية عن فريق من اليهود يتسمون بعلو الكفر وعتوه؛ من مجادلتهم لموسى -عليه السلام- في أمر البقرة، وقساوة قلوبهم، وكثرة مكرهم وخداعهم، وغير ذلك مما يعرفه القاصي والداني، عطف عليهم قسماً أعتى من ذلك وأشد، لأن العالم يرجى لفته عن رأيه، أو تخجيله بالحجاج والأدلة، وما إلى ذلك من براهين عقلية ومنطقية بخلاف المقلد العاتي، وما يكون معه من أساليب فقال تعالى: **﴿ومنهم أميون﴾**^(٣).

وقد يفيد التناسب القائم على العطف مدحاً وتوضيحاً كما في قوله تعالى:
﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾^(٤).

فبعد أن حاج -سبحانه وتعالى- بني إسرائيل، وبين لهم زيف آرائهم، رغبهم في القرآن، وبين لهم أنه من عند الله، والحديث وإن كان في بني إسرائيل إلا أنه عام، لكفار مكة ولكل من هو على شاكلتهم في أي مكان وفي أي زمان، فهو الكتاب المصتق لما في كتابهم، ولكنه في الوقت نفسه مهيم على جميع الكتب، لما أنهى سبحانه وتعالى ذلك، وفرغ من ترهيبهم من عداوته، أتبع ذلك عطفاً على قوله تعالى: **﴿فإنه نزل على قلبك بإذن الله﴾**^(٥). أو على غير ذلك، بما يفيد المدح، ووضوح الأمر لمريد الحق ومتبعه، أما من كفر منهم، أو من سيكفر منهم أو من غيرهم فهو فاسق، خارج عما يُعرف من الحق^(٦).

ومن التناسب بين الآية وما قبلها من الآيات عموماً ما يكون قائماً على معنى التكميل والتتميم كما في قوله تعالى:

﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾^(٧).

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٠٣/٥.

(٢) البقرة: ٧٨.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٩٠/١.

(٤) البقرة: ٩٩.

(٥) البقرة: ٩٧.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٩/٢.

(٧) البقرة: ٢٨١.

يقول الإمام البقاعي فيما ينقله عن الحرالي: "وهذه الآية ختم للتنزيل، وختم لتمام المعنى في هذه السورة التي هي سنام القرآن وفسطاطه، وختم لكل موعظة وكل ختم"^(١).
 إذ لما أنهى سبحانه وتعالى الخطاب بأمر الدين، وأمر الآخرة، وما يرتبط من ذلك بالدنيا؛ من إنفاق، وتحريم للربا، إلى أن تحدث عن الموعظة بتبيان الجزاء الآخروي، أجمّل كل ما تقدم بتقوى يوم الرجعة؛ ليكون الختام ترهيباً للنفس، حتى تجتمع عزائمها على أمر دينها وديناها ومعادها فكان كمال ذلك كله وتمامه بهذه الآية التي قابلت أول آية نزلت ﴿اقرأ﴾^(٢)، ﴿يا أيها المدثر﴾^(٣) فكان أول الأمر بذلك قيام وإنذار، وكان آخره موعظة تبعث القلب على الشوق، والنفس على الخوف^(٤).
 ومن التناسب في هذا المقام أيضاً ما يكون على أساس التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾^(٥).

إذ لما أتمّ سبحانه وتعالى ما أراد من أمر عيسى عليه السلام عاد ليؤكد ظلمهم، ويقور هذا المعنى في نفوسهم، ويحقّقه ويثبتته، وإن كان غريباً عليهم لما ابتدعوه من أمره^(٦).

وربما يكون أوضح من هذا قوله تعالى:

﴿إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا، والله وليّ المؤمنين﴾^(٧).

إذ لما علم أهل الكتاب ما جُبل عليه العرب؛ من حب أبيهم إبراهيم -عليه السلام- واتباعهم لسيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي أتى بدين إبراهيم، نسبوا إبراهيم عليه الصلاة والسلام إليهم مع أن العقل السليم يرد ذلك بأدنى التفات؛ لأن كتابهم إنما أنزل على نبيهم، ونبيهم إنما كان بعد إبراهيم عليه السلام، ولذلك وبخيم سبحانه وتعالى، وبكتهم نافية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام كل شرك وزيف.

(١) البقاعي: المصدر نفسه، ١٤٧/٤.

(٢) المعلق: ١.

(٣) المدثر: ١.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٤٢/٤-١٤٤. ومثل هذا، الآية: (٤٨) من سورة المائدة: انظر: البقاعي، المصدر نفسه،

١٨٠/٦.

(٥) آل عمران: ٥٩.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٢٤/٤-٤٢٥.

(٧) آل عمران: ٦٨.

وبعد كل ذلك بين سبحانه وتعالى أن النبي محمداً - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا معه هم أقرب الناس إلى إبراهيم - عليه السلام - أي من اتبعه في أصل الدين، وفي الانقياد التام للدليل، ولذلك قال سبحانه وتعالى مؤكداً بما لا يدع مجالاً للشك، وذلك رداً عليهم، وتكذيباً لهم، ولنفسهم التي جُبلت على كل الدنيايا والخسائس «إن أولى الناس»^(١).

ومنه أيضاً ما يكون قائماً على معنى الاستنتاج كما في قوله تعالى:
﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾^(٢).

إذ لما ذكر سبحانه وتعالى قبل هذه الآية عبّاد الشيطان؛ الذين يسعون في الأرض فساداً، وذكر أضرب عقابهم، ثم استثنى منهم من تاب قبل إمساكه، فدخل وادي الرحمة والغفران، على ما كان له من قبل، لما كان ذلك كذلك، بين سبحانه وتعالى على وجه الاستنتاج؛ أنه إذا كان ما تقدم من إفساد، وقطع طريق... الخ إذا سبقت عليه التوبة نزل وادي الرحمة والغفران، فمن باب أولى يا مؤمنون أن تلتزموا تقوى الله، بكل الوسائل المشروعة، وخاصة الجهاد في سبيله؛ الذي تشتري به السلع الغالية، فإذا فعلتم ذلك كنتم من المفلحين^(٣).

وقد يكون التناسب في هذا المقام يحمل معنى التخصيص والتدليل كما في قوله تعالى:
﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كناياكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أئى يؤفكون﴾^(٤).

إذ لما أبطل سبحانه وتعالى الكفر كله قبل هذه الآية؛ على لسان عيسى - عليه السلام - وبالإنذار والتحذير، وبإثباته للتوحيد عامة بقوله: **﴿وما من إله إلا إله واحد﴾**^(٥)، أتبع ذلك كله تخصيص ما كفر به المخاطبون بالإبطال، فكان ذلك دليلاً خاصاً بعد دليل عام؛ فبعد أن قال: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾**^(٦) و**﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾**^(٧)، قال سبحانه الآية: **﴿ما المسيح ابن مريم﴾**^(٨).

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤/٤٤٨-٤٥٤.

(٢) المائدة: ٣٥.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٦/١٢٩-١٣٢.

(٤) المائدة: ٧٥.

(٥) المائدة: ٧٣.

(٦) المائدة: ٧٢.

(٧) المائدة: ٧٣.

(٨) انظر: البقاعي المصدر نفسه، ٦/٢٤٩-٢٥٧.

أقول ومن هذا التناسب ما يكون قائماً على علاقة ضدّية كما في قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾^(١).

إذ لما عجب سبحانه وتعالى منهم، لاختلاف موازينهم وعدم ثبات مقياسهم، ووبّخهم على عدم الاستمرار في دعائه، لما نفى كل ذلك؛ من عدم ثباتهم على رأي أو غيره، بيّن أن دعوى الحق إنّما تكون لله، فهي الدعوة التي يتسبب عنها الجواب الحق أيضاً؛ إذ لما أقام سبحانه الحجة عليهم في هذا، وأن التضرع إليه وحده هو الذي يكشف البلاء، أخبرهم حال نقيض ذلك؛ وهو ترك التضرع إلى الله، ونتيجته من الانغماس في الشقاء والعناء، وما ذلك إلا ترغيباً منه سبحانه في إدامة الدعاء، وترهيباً من مجانبته كذلك^(٢).

وأختم هذا الجزء من التمثيل على التناسب بين الآية وما قبلها من الآيات عموماً بقوله تعالى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش، قليلاً ما تشكرون﴾^(٣).

يقوم التناسب في هذه الآية على التفات ذي مواضع جمة من ترغيب وترهيب وغيره مما يصلح لأن يكون شاهداً على تاريخ الأمة الإسلامية؛ من لدن البعثة المحمدية إلى زماننا هذا وما يليه، بل من لدن بعث الخليقة إلى قيام الساعة فهي سنة لا تتخلف.

إذ لما أمر سبحانه الخلق باتباعه، ونهاهم عن اتباع أهل الضلال، وحثهم، وأكد حثه لهم على اتباع شرعه، ومداومة الشكر لهذه النعمة، وأن عدم شكرها يورث المرء هلاكاً، على ما قص عليهم من حال الأمم السالفة الظالمة قبلهم، ثم ما كان من مصيرهم؛ إلى النار والعياذ بالله-، لما أمر وحذر، وأبلغ في التحذير، التفت إلى تذكيرهم؛ ترغيباً في ذلك بإسباغ نعمه عليهم، وتحذيراً من سلبها؛ لأن المواجهة أروع للمخاطب. وعلى كل فقد منحهم التمكين بشكرهم، وإدامة أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، لكنه لوح لهم بعد ذلك: بأن هذا التمكين يزول إن زال شرطه؛ من طاعة الله، وامتنال أوامره، كما فعل بأبيكم آدم عليه السلام^(٤).

قد يلمس القارئ في هذا الجزء وما سبقه أمثلة أكثر مما يجب، أو أكثر مما سيراه لاحقاً، أقول: وما ذلك إلا لعموم التناسب الذي تقدم، فالآيات كثيرة وما قبلها أكثر، ناهيك عن محاولة الإيجاز ما استطعت لذلك سبيلاً، وإلا فكل تناسب أو علاقة يقام عليه دراسة مستقلة، وخاصة إذا قصد الحصر والاستقصاء، وهو ما لم أقصده في هذه الرسالة.

(١) الأنعام: ٤٢.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١١٠/٧-١١٣.

(٣) الأعراف: ١٠.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٥٤/٧-٣٦٢.

المطلب الثالث: التناسب بين الآية وما قبلها وما بعدها من نفس الموضوع:

في هذا المقام أعرض لقوله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ

الْآخَرِ، قَالَ لَأُقْتَتَلَ، قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

تُعد هذه الآية أنموذجاً لكثير من الآيات التي ناسب بينها الإمام البقاعي، وبين غيرها من الآيات الكثيرة التي تبحث الموضوع نفسه، أو تقترب في مواضعها من بعضها بعضاً، والبقاعي في ذلك كله يحذوه حسنه المرهف، ونظرته الموضوعية للقرآن الكريم، ولذا فلا غرو أن نجد له وقفة طويلة على آية يناسب بينها، وبين أخواتها من الآيات. ففي الآية الأنفة الذكر أكثر من تناسب.

إذ لما ادعت اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، ضرب لهم سبحانه وتعالى مثلاً نقض فيه كذب دعواهم فقابيل ممن ولد في الجنة على ما قيل، ومع ذلك فقد عذّب لما نقض العهد فانتفى أن يكون ابناً^(٢).

وعليه فمن وقى، واتبع، وأحسن كان حبيباً للرحمن وولياً، ومن نقض وخان كان بغيضاً وعدواً.

هذا وإذا انتفتق النبوة عن ولد لآدم صفي الله، مع كون هذا الولد لصلبه، وبلا واسطة بينهما، ومع كونه أيضاً ولد في الجنة دار الكرامة، إذا انتفت عنه فانتقاؤها عن هو أسفل منه من باب أولى. وكذا المحبة أيضاً. وهذا هو العمدة في تناسب هذه الآية، على أن هناك أكثر من تناسب كشف البقاعي عنه النقاب وهو حسن ووجيه أيضاً؛ فكفر بني إسرائيل بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لم يكن إلا بغضاً وحسداً، فنبهوا بقصة ابني آدم على أن الحسد يجر ما لا يرضى الله، وإلى ما لا يرضاه ذو عقل وطبع سليم، بل ويكب صاحبه على وجهه في النار.

وفيها أيضاً أن إجماعهم عن قتال أعداء الله المأمورين بقتالهم، الموعودين عليه بخيري الدارين سبب لهم بعداً وطريراً من رحمة الله، ففي قصة ابني آدم إقبال قابيل على قتل أخيه

(١) المائدة: ٢٧.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١١٣/٦ على أن هذه رواية توراتية كما ذكر، ولي لفظة قيل أيضاً إشارة إلى ذلك، وبالتالي لا نسلم بها، إضافة لما يناهها من الأحاديث، وأحسن من ذلك وأصح: عن عائشة رضي الله عنها قالت - "لما نزلت هذه الآية: (وَأَنْذِرْ عَشْرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "يا صفة بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، يا بني عبد المطلب، إن لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم" صحيح البخاري ص ٨٣٧، برقم: (٤٧٧١)، سنن الترمذي، ١٨٥/٤ - ١٨٦ برقم: (٣١٨٤)، وكذلك ما رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "... ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه". صحيح مسلم، ص ١٢٩٤ برقم: (٦٩٥٢)، سنن أبي داود، ص ٨٤١ برقم: (٣٦٤٣)، سنن الترمذي، ٤١/٤ برقم: (٢٩٤٥).

حبيب الله المنهي عن قتله، المتوعد بأن الله يتبرأ منه إذا قتله. وفي كل هذا غاية التناسب؛ من تأديب واضح لهذه الأمة عند كل إقدام وإحجام ومتى يكون ذلك. مع تذكيرهم بالنعمة في حفظهم من مثل ذلك.

ولما كان مبنى التناسب في الآية قائماً على الحسد، فإن فيها تنبيهاً بأن موسى وهارون عليهما السلام: أخوان في غاية للطواعية في أنفسهما - وهذا ما يجب أن يكون - بخلاف قصة ابني آدم.

كما أن فيها تناسباً مع الآية التي بينت تقديم الغنائم للنار وعدم أكلها^(١)، وأن ذلك سبب في عدم قبولها، كما في قصة ابني آدم.

وفيها أيضاً تناسب آخر يتعاقب مع الآيات التي عرضت لعذاب بني إسرائيل بمنعهم من بيت المقدس، وتعذيبهم بالتيه، إذ إن قابيل نفي من الأرض التي كان فيها مقتل أخيه. كما أن فيها تناسباً عددياً إشارياً؛ إذ إن بني إسرائيل تاهوا في الأرض أربعين سنة، على عدد الأيام التي غاب فيها نقيباؤهم في جسّ أخبار الجبابرة، وهو ما جرى مع قابيل تقريباً؛ إذ إنه حمل على ظهره هابيل بعد أن قتله أربعين يوماً على ما ذكره البيهقي عن ابن عباس، ورواه البقاعي عن البيهقي (ويظهر لي أن هذه رواية إسرائيلية أيضاً).

على أن العمدة في ذلك كما سبق وذكرت هو: الوجه الأول، وما فيه من الوعيد والتحذير من داء الحسد، إذ هو سنة في بني آدم؛ إذا ما توطنوا واستراحوا تحاسدوا وتدابروا، فقتل بعضهم بعضاً؛ لذا قال صلى الله عليه وسلم: (دبّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، ألا والبغضاء هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين). وإسناده جيد

(١) وفي هذا إشارة إلى ما لي الصحيحين، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يجتمعني رجل قد ملك بُضْعَ امرأة، وهو يريد أن يني فيها، ولما يئس، ولا آخر قد بني بُياناً، ولما رفع سقفاها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات، وهو منتظر ولادها، قال: فغزا، فأدق للقرية حين صلاة العصر، أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة، وأنا مأمور، اللهم اجبها عليّ شيئاً، فحبست عليه حتى فتح الله عليه، قال، فجمعوا ما غنموا، فأقبلت النار لتأكله، فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول، فنيابني من كل قبيلة رجل، فباعوه، فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فنيابني قبيلتك، فباعته، قال: فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة، فقال فيكم الغلول، أنتم غللتهم، قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعه في المال، وهو بالصعيد، فأقبلت النار فأكلته...".

- مسلم، شرح النووي ج ١٢/ص ٢٧٨-٢٧٩، وانظر تحريجه في البخاري من حاشية شرح النووي في ص ٢٧٨ من الجزء المذكور.

- مسلم، صحيح مسلم، ص ٨٦٠ برقم ٤٥٧٦.

- البخاري، صحيح البخاري، ص ٥١٧، رقم: ٣١٢٤، ص ٩٢٢ برقم: ٥١٥٧.

وانظر تفصيل هذه المسألة: البقاعي، المصدر نفسه، ١١١/٦ وما بعدها.

على ما ذكر الإمام البقاعي من تخريجه^(١). فضلا عن مجموعة أخرى من الأحاديث التي تتحدث عن نفس الغرض.

(١) ينظر كل ما يتعلق بهذه الآية وما فيها من تفصيل المناسب: البقاعي، المصدر نفسه، ١١٢/٦-١٢٧.

المطلب الرابع: التناسب بين الآية وأول السورة:

وكما ذكرت من وقوف الإمام البقاعي على التناسب بين الآيات القريبة من بعضها، أو حتى البعيدة، فإن له اهتماماً في الكشف عن علاقة بعض الآيات بمطلع السورة، حيث يرى في مقصد السورة ومطلعها خيطاً رئيساً يتحكم بكل جزئية في السورة، بل السورة عنده أشبه ما تكون بمصب عذب وجداول متفرعة عنه.

ومن ذلك هذه الآية، قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم﴾^(١).

يقوم التناسب بين هذه الآية وبين أول السورة، سورة البقرة على التفات بديع، بحيث يتعاقب تعانقاً تاماً مع معناها.

تعد هذه الآية من الآيات التي احتار فيها كثير من الناس وخاصة بعض من ينتسب إلى الدعوة الإسلامية، أو إن شئت بعض "المتسامحين"، فلا يفتؤ الواحد منهم يذكرها عند كل نقاش بين الأديان. فكيف تتناسب هذه الآية أولاً مع آيات الجهاد وخاصة قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾^(٢).

بما أن كلام الله لا يتعارض مع غيره ولا مع بعضه بالضرورة، بل هو في غاية التناسب فإن المعنى يكون: ندعو القوم إلى الإسلام فإن أبوا طلبنا الجزية، فإن أبوا قاتلناهم حتى يُعطوا الجزية أو يُسلموا، فإن رضوا بالجزية فلا نجبرهم على الدخول في الإسلام؛ إذ لا إكراه في الدين.

لكن وبعد قراعتي لتفسير الإمام البقاعي ألفيته يقف على معنى جميل في غابة التناسب مفاده: أن هذه الآية تشير فيما تشير إليه: إلى أن الدين صار في الوضوح إلى حد لا يتصور معه إكراه، بل ينبغي لكل عاقل أن يدخل فيه بغاية الرغبة والطاعة، فضلاً عن الإحواج إلى إرهاب، فمن نصح نفسه دخل فيه بما دله عليه عقله، ومن أبى أدخل فيه قهراً بنصيحة الله التي هي الضرب بالحسام ونافذ السهام، يقول الإمام البقاعي مضيفاً بعد ذلك: "ولعل في الآية التفاتاً إلى ما ذكر أول السورة في الكفار، من أنه سواء عليهم الإنذار وتركه، وإلى المنافقين وتقبيح ما هم عليه مما هو في غاية المخالفة، لما صارت أدلته أوضح من الشمس، وهي مشعرة بالإذن في الإعراض عن المنفقين"^(٣).

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) التوبة: ٢٩.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٤/٤٤.

وبالتالي فإن هذا التناسب بينها وبين أول السورة قد أكد الجهاد، وأبعد أي وهم من تعارض بينها وبين غيرها من الآيات، أو حتى أي خطأ في الاستشهاد بها، وهذا من فوائد علم التناسب الكثيرة^(١).

ومن التناسب في هذا المقام ما يكون برابط المتابعة والتذكير كما في قوله تعالى: **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم﴾**^(٢).
 إن هذا المعنى لمرتبط كل - الترابط في تناسب على غاية الوضوح من المتابعة والأهمية بقوله تعالى في صفات المتقين أول السورة:

(١) قد يظن القارئ أن ما ذكرت بعيد نسبياً عن كلام الإمام البقاعي. أقول: بل هو عين كلام البقاعي، إذ لما كان أول سورة البقرة قد بين أن الإنذار وعدمه سيان لكل هؤلاء، بل قد ختم الله على سمعهم، وعلى أبصارهم، وأعد لهم عذاباً عظيماً، ومد كان بعد ذلك من استرسال مع مكرهم وخداعهم، الأمر الذي أدى إلى القنوط واليأس من حالهم، وكما سُوِّغ دعاء نوح عليه السلام على قومه بعد أن ظهر اليأس من حالهم بقوله تعالى: **﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتسب بما كانوا يفعلون﴾** (هود: ٣٦)، وبالقنوط واليأس من حالهم فقد تأكد جهادهم، الذي على رأس أهدافه تحطيم الحواجز المادية والبشرية التي تقف أمام حمل الدعوة الإسلامية للناس كافة، **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾** (سبا: ٢٨)، كما أن الدين الحق هو دين الإسلام **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** (آل عمران: ١٩)، **﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** (آل عمران: ٨٥)، وعليه فلا مناص من جهادهم كما بين الإمام البقاعي، جهاد إما يؤدي إلى إذعافهم لسلطان الإسلام، فيشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أذعنوا، ودفعوا الجزية بالوصف المذكور من حالهم، قبلنا ذلك منهم، ولن نكرههم بعد ذلك على الدخول في الإسلام ما داموا قد نزلوا على حكم الإسلام في دفع الجزية، إذ لا إكراه في الدين.

ولزيد من الوقوف على معنى هذه الآية وتناسيها فلا بد من الوقوف على تفسير آخر لها: يقول الأستاذ عطا أبو الرشته، المفسر الأصولي:

﴿لا إكراه في الدين﴾ نكرة في سياق النفي، فهي تفيد العموم؛ أي أنه لا يكره أحد فيما يدين ويعتقد... غير أن هذا العموم خصص في حالتين:

أ- الخضوع لأحكام الشرع دون الاعتقاد، فهذا يكره عليه أهل الذمة، فخصوعهم لأحكام الشرع على الوجوب، شازوا أم أبوا، كما جاء في الآية الكريمة **﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾** (التوبة: ٢٩) أي راضخون لأحكام الشرع، فيجوز لهم أن يقولوا على عقيدتهم، عقيدة الكفر في صلواتهم بكنائسهم، ومشروباتهم، ومطعموهم التي أفرهم الرسول صلى الله عليه وسلم عليها، ولا يكرهون على تركها، واعتناق الإسلام، ولكن لا يجوز لهم أن يحتكموا لغير الإسلام في حياتهم العامة، بل يكرهون على الاحتكام للشرع.

ب- مشركو العرب، يكرهون على الإسلام أو القتل كما جاء في الآية الكريمة: **﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلوهم أو يسلمون﴾** (الفتح: ١٦)، وهي نزلت في مشركي العرب.

وبذلك تكون الآية عامة في غير الحالتين السابقتين، أي أن مشركي العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل، والكفار الآخرون يقبل منهم الإسلام أو الجزية فإن لم يفعلوا قوتلوا، وإن قبلوا الجزية، لا يكرهون على اعتناق الإسلام، ولكن يكرهون على الخضوع لأحكام الإسلام في الحياة العامة. فالآية على هذا عامة ومحخصة في الحالتين المذكورتين.

انظر تفصيل هذه المسألة وتتمتها: أبو الرشته، التيسر في أصول التفسير، ص ٤١٢-٤١٣.

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾^(١).
 وفي هذا تبيان لأهمية الصدقة، وما تجره على صاحبها من المنافع الدنيوية والآخروية
 قال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾^(٢).
 وبهذا يتضح أن ما ذكرت هو في غاية التناسب بالنظر إلى أول السورة، مسن جهنة
 التذكير بوصف المتقين، والحث على هذا الفعل العظيم^(٣).
 ومنه أيضاً ما يكون من قبيل التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿الحق من ربك فلا تكن من
 الممترين﴾^(٤).

إذ لما كان الحق أحق أن يتبع، أوصد سبحانه وتعالى الأبواب أمام الخصوم، بسطوع
 نجم الحق هنا في أمر عيسى عليه السلام، ليتعانق ذلك مع أول السورة، ولكن على وجه من
 التأكيد أضخم مما سبق، قال تعالى:
 ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه، وأنزل
 التوراة والإنجيل، من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب
 شديد، والله عزيز ذو انتقام﴾^(٥).

(١) البقرة: ٣.

(٢) البقرة: ٢٤٥.

(٣) انظر في ذلك: البقاعي، المصدر نفسه، ٧٣/٤.

(٤) آل عمران: ٦٠.

(٥) آل عمران: ٤-٢.

المطلب الخامس: التناسب بين جزء الآية وصدورها:

ومن لطيف التناسب عند الإمام البقاعي تتبعه لجمال الآية وربطها ببعضها بعضاً، من ذلك ربطه بين جزء الآية وصدورها بعلاقة ماء، كما في قوله تعالى:

﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر ممن نفعهما، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو، كذلك يُبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾^(١).

أي لما كان الخمر والميسر من مصارف المال، وتبين ما تبين من أمرهما، كان السؤال: فأى شيء، وأي كمية تكون للنفقة إذن؟ فقيل: ما فضل عن الأهل؛ من يسير سهل لا يجحف بالمال. قال البقاعي: لما ذكر سبحانه ما يذهب ضياء الروح، وقوام البدن، ونم النفقة فيهما، اقتضى الحال السؤال عما يمدح الإنفاق فيه. فقال عاطفاً على السؤال: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾^(٢).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:

﴿وكانن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم، وهو السميع العليم﴾^(٣).

إذا أنعمنا النظر في هذه الآية، فإننا سنرى فيها علاقة تناسبية واضحة؛ إذ لما ذكر سبحانه وتعالى في صدر الآية حائثاً على التوكل عليه، حيث إنه وحده الكافي في أمر الرزق في الوطن والغربة، حتى إن الأمر قد شمل الدواب التي لا تطيق أن تحمل رزقها، عند ذلك توقف الكلام ليورد سؤالاً: فمن يرزقها؟ فقال سبحانه جواباً لذلك ﴿الله يرزقها وإياكم﴾^(٤).

وقد يكون التناسب بين جزء الآية وصدورها قائماً على تفصيل بعد إجمال كما في قوله

تعالى:

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفراتك ربنا وإليك المصير﴾^(٥).

فقد بدأ الحديث برأس الدعوة الإسلامية، ثم تثنى بالمؤمنين؛ وهم جنده صلى الله عليه وسلم - ومن يليه، ولما كان التعبير بالوصف الدال على الرسوخ في الإيمان، لكن على سبيل الإجمال، عاد ليفصل ذلك كله، فقال: ﴿كل آمن بالله﴾^(٦).

ومنه أيضاً قوله تعالى:

(١) البقرة: ٢١٩.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٥٩/٣-٢٦٠، وانظر أيضاً: أبو حيان، المصدر نفسه، ٤٠٢/٢-٤٠٨.

(٣) العنكبوت: ٦٠.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٦٨/١٤.

(٥) البقرة: ٢٨٥.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٧٠/٤.

﴿إذ يغشيكم النعاس أمانة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾^(١).

إذ لما ذكر سبحانه وتعالى آية النعاس ثم ذلك بذكر آية الحياة فقال: ﴿وينزل عليكم﴾^(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾^(٣).

إذ لما أكد الخليل حرصه على ابن أخيه، خاصة وأن الأمر جدّ خطير، وذلك حين احتتم كلامهم الإنجاء والإرداء، رد عليه الرسل قائلين ومؤكدين: ﴿نحن أعلم بمن فيها لننجيناه﴾ وذلك بالتصريح، إذ ﴿نحن أعلم بمن فيها﴾ يحتمل الأمرين، فكان التصريح على سبيل التعيين والتأكيد والتثبيت^(٤).

(١) الأنفال: ١١.

(٢) انظر: القاعي، المصدر نفسه، ٢٣٥/٨.

(٣) العنكبوت: ٣٢.

(٤) انظر: القاعي، المصدر نفسه، ٤٣١/١٤.

المطلب السادس: التناسب بين ختام الآية وصدورها:

ومن لطيف ما عرض له الإمام البقاعي أيضاً: التناسب بين ختام الآية وصدورها كما

في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرُوءَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ

يَطُوفَ بِهِمَا، وَمَنْ نَطَّوَعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

يقول الإمام البقاعي: "ولما كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم - لم يقصدوا بترك

الطواف بينهما إلا الطاعة، فأعلموا أن الطواف بينهما طاعة، ولذلك عبر بما يفيد مدحهم فقال:

﴿وَمَنْ نَطَّوَعَ﴾^(٢).

أقول: إن التناسب في هذا المقام هو على أساس المدح، والفصل كذلك في أمر دار

خلاف طويل حوله، يشير إلى هذا حديث عروة مع أم المؤمنين عائشة، حين قال لها: ما

أرى على أحد شيئاً أن لا يطوف بهما، فقالت: لو كان كما تقول، كان: فلا جناح عليه أن لا

يطوف بهما، إلى آخر ما ذكر الإمام البقاعي من أحاديث في هذا الموضوع^(٣).

ومن هذا التناسب ما يقوم على تشوف سؤال كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَاقَبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ مَلَأَ الْأَرْضَ ذَهَابًا وَلَوْ اقْتَدَى

بِهِ، أَوْلَنكَ لَهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٤).

إذ لما قال سبحانه وتعالى قبل هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ زَادُوا كُفْرًا

لَنْ يَقَبَلُ تَوْبَتَهُمْ، وَأَوْلَنكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾^(٥).

لما قال ذلك، وبين أنهم ضالون في دنياهم، تشوف السامع إلى حالهم في الآخرة، فقال

سبحانه وتعالى "الآية": أي أن السبب في عدم قبول توبتهم هو تقويت محلها -بتماديهم على

الكفر-، ولما تشوف السامع بعد ذلك كما ذكرت إلى معرفة مصيرهم، وما يحل بهم أوجب

بقوله: ﴿أَوْلَنكَ لَهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وبهذا يكون ختامها قد ارتبط برابط

حسن مع أولها^(٦).

(١) البقرة: ١٥٨.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ٢/٢٧١.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢/٢٦١-٢٧٢.

(٤) آل عمران: ٩١.

(٥) آل عمران: ٩٠.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤/٤٧٨-٤٨١.

ومن لطيف هذا الباب أيضاً وقوفه على التناسب في قوله تعالى: ﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم، قل أحلّ لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكنّين تعلمونهن مما علمكم الله، فكلوا مما أمسكن عليكم، واذكروا اسم الله عليه، واتقوا الله، إن الله سريع الحساب﴾^(١).

فما وجه التناسب بين ختام هذه الآية وأولها؟ لما تقدم الحديث عن إحلال الصيد، وتحريم الميتة، وختم بالرخصة التي بينها سبحانه وتعالى: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾^(٢)، وكان بعض الصيد بالكلاب، على حين قد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها، لذلك اقتضى الحال سؤالاً عن بعضها، مما يختص بالصيد وما تصيده أيضاً. فأجيبوا بهذه "الآية". لكن الصيد الذي يتم بالكلاب وإن كثرت، فإنه خارج عن العادة، كما أنه دقيق ولطيف، لا يقف عليه إلا من غلبت عليه مهابة الله، واستشعر خوفه فاتقاه فيما أحلّ وحرّم، حتى وإن اهتزت النفس لمثل هذا النوع من الصيد وطارت عجباً. بمعنى اتقوا الله حق تقاته، إذ إن التعامل مع هذا الصيد يحتاج إلى مراعاة الأوامر والنواهي، وبالتالي وإن دق أمره ولطف، فإن الله سريع في حسابه لمن خالف ما أمر به من تقواه^(٣).

(١) المائدة: ٤.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٨/٦-٢٣، وانظر أيضاً: أبو حيان، المصدر نفسه، ١٨٢/٤.

المطلب السابع: التناسب بين صدر الآية وخاتمة التي قبلها مباشرة:

يقف الإمام البقاعي على هذا التناسب وغيره ليقرر دوماً، وحدة القرآن وشدة إحكامه، وحسن سبكه، فمن دقيق هذا النظم، عرضه للتناسب بين صدر الآية، وخاتمة الآية التي قبلها مباشرة.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أتوا الكتاب، يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾^(١).

وكانت الآية التي قبلها: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء، وما الله بغافل عما تعملون﴾^(٢).

أي يا من ادعيتم العلم وأتباع الوحي، لم تصدون بكفركم عن سبيل الله، وخاصة بكثرة افتراءاتكم، محاولين دوماً إخفاء مكرم وستره في صدكم عن سبيل الله، على أنكم تعلمون أنه سبحانه يتصف بصفات الكمال، شهيد على كل فعل تقومون به. لما كان ذلك كذلك، فقد أقبل سبحانه وتعالى على عباده بالبشر، ولذيد الخطاب؛ منبهاً ومرشداً ومذكراً ودالاً أيضاً على ما ختم به الآية التاسعة والتسعين؛ من إحاطة علمه بدقيق مكر اليهود^(٣). ﴿وما يعزبُ عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾^(٤).

ومن التناسب في هذا المضمار ما يكون قائماً على استئناف بياني كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم، إن الله غفور حلِيم﴾^(٥).

إذ لما ختم سبحانه وتعالى الآية التي قبلها بقوله: ﴿والله عليم بذات الصدور﴾^(٦)، أي الذي له الإحاطة بكل شيء، الغني الخبير بدقائق الأسرار، أتبع ذلك مستأنفاً لبيان ما هو من ثمرات العلم ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾^(٧).

(١) آل عمران: ١٠٠.

(٢) آل عمران: ٩٩.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٣/٥.

(٤) يونس: ٦١.

(٥) آل عمران: ١٥٥.

(٦) آل عمران: ١٥٤.

(٧) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٠٠/٥-١٠٣.

ومن هذا التناسب أيضاً ما يكون على سبيل الاستئناف، لكن من باب الاستنتاج كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ سَأَلْتُمْ عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١).

إذا علمنا أن مناسبة هذه الآية كما روى أنس رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى صعد المنبر، فقال: سلوني! فوالله لا تسألوني عن شيء اليوم إلا أخبرتكم -وفي رواية أنبأتكم- به فما رأيت يوماً كان أكثر باكياً منه، فقال رجل: يا رسول الله! إننا كنا حديثي عهد بجاهلية. من أبي؟ قال أبوك حذافة، لابن الذي كان يدعى له. فقام إليه آخر فقال: يا رسول الله! أفي الجنة أنا أم في النار؟ فقال في النار. فقام إليه آخر فقال: يا رسول الله! أعلينا الحج كل عام؟ قال: لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لم تقوموا بها، ولو لم تقوموا بها عذبتم. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:- رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- نبياً^(٢). إذا علمنا أن مناسبة الآية ما ذكرت، وأن ختام التي قبلها: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾^(٣). أي اتقوا الله، في كل أمر أمركم به أو نهاكم عنه وقفوا عنده أو عليه، ولا تسألوا عن أشياء سكت عنها الشرع رحمة لكم؛ رجاء أن تفوزوا بجميع المطالب. قال الإمام البقاعي عقب شرحه لها، وما أورده من شواهد: «وحينئذ يظهر كالشمس مناسبة تعقيبها بقوله على طريق الاستئناف والاستنتاج ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾»^(٤).

ومما جاء على سبيل الشوق والتشوف في هذا الباب قوله تعالى:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٥).

هذه الآية التي جاءت على صيغة سؤال وجواب، وما تبعها من تبيان مصير إبليس، إنما كانت عقب ختام قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ، ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٦).

فلما ختمت هذه الآية بعصيان إبليس، وكان مخالف الملك الديان في محل عقاب، تشوف السامع، وتاق إلى خبر هذا اللعين، فأجيب بقوله سبحانه لإبليس منكرأ عليه، وموبخاً

(١) المائدة: ١٠١.

(٢) لقد تحدث الإمام البقاعي في مناسبة هذه الآية وأكثر، وأورد لها كثيراً من الشواهد. ينظر كل ذلك: البقاعي، المصدر نفسه،

٣١٣/٦-٣١٦.

(٣) المائدة: ١٠٠.

(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ٣١٢/٦-٣١٣.

(٥) الأعراف: ١٢.

(٦) الأعراف: ١١.

له، ليجيب هو بنفسه - في معرض الذل والصغار - ما كان يخفيه على الخلق، فيظهر للعيان سبب طرده^(١).

(١) انظر: القاعي، المصدر نفسه، ٢٦٤/٧-٢٦٥.

المطلب الثامن: التناسب بين ختام الآية والآية التي قبلها مباشرة:

قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليكم من ربكم، وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، فلا تأس على القوم الكافرين﴾^(١). إذ لما كانت الآية السابقة لها -﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾^(٢) - فيها أمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - بأن يُبلغ ما أنزل إليه من ربه، على ما في ذلك من شدة ومشقة آنذاك؛ لما في هذه الدعوة من مخالفة للطباع، وما جبلت عليه النفوس المريضة، فقد أكد له - سبحانه وتعالى - أنه معصوم من الناس. كما تبين من الآية أن ترك البلاغ ليس له إلا مسوّغان أو سببان في هذا المقام، هما: خوف فوات النفس، والآخر خوف فوات ثمرة الدعاء، وقد نفى سبحانه وتعالى الخوف على النفس بضمان العصمة، ونفى الثاني بختام الآية ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾؛ أي ليس عليك إلا البلاغ، فلا يحزنك من لا يقبل، فليس إعراضه لقصور إبلاغك، ولا حظك، بل لقصور إدراكه وحظه؛ لأن الله ختم بكفره، وختم على قلبه لما علم من فساد طبعه، والله لا يهدي مثله. وربما يكون في هذا كبير إرشاد للدعاة، فكم هم الذين يضحون من أجل الدين، وأبناؤهم من أشد العصاة. فالمطلوب هو التبليغ، فمن أجاب ممن أشير إليه فهو حظه في الدنيا والآخرة، ومن أبى فلا يحزنك أمره؛ لأن الله هو الذي أراد ضلاله^(٣).

يقول الإمام البقاعي في ختام التعليق على هذه الآية: والحاصل أن ختم هذه الآية بمعلول الآية التي قبلها، فكأنه قيل: بلغ، فإن الله هو الهادي المضل، فلا تحزن على من أدبر^(٤).

(١) المائة: ٦٨.

(٢) المائة: ٦٧.

(٣) انظر تفصيل القول في هذا التناسب: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢٩/٦ - ٢٤٠.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٤٠/٦.

المطلب التاسع: التناسب بين صدر الآية وما قبلها من الآيات عموماً:

قال تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله، واعلموا أن الله مع المتقين﴾^(١). لما أباح سبحانه وتعالى القتال في كل مكان قبل هذه الآية ﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾^(٢)؛ أي أباحه حتى في الحرم، وكان فعله في الأشهر الحرم عندهم شديداً جداً، ثار العزم للسؤال عنه من قبل المسلمين، أو كما قال الحسن: سأل الكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تقاتل في الشهر الحرام؟ فأخبرهم أنه لا يقاتل فيه، فهموا بالهجوم عليه، وقتل من معه حين طمعوا أنه لا يقاتل، فأنزل الله للمؤمنين ما يفعلونه في عمرة القضاء إن احتاجوا إليه على وجه عام^(٣).

ومن هذا التناسب أيضاً وقوف الإمام البقاعي على قوله تعالى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضا لهن فريضة﴾^(٤). إذ لما تمت أحكام العدة، وما يتبعها مما حق الرجال فيه أغلب أتبعها أحكام الأصدقاء، ولما كان الكلام قد طال في أحكام الطلاق قبل هذه الآية، وكذلك الموت، ولم يذكر الصداق^(٥)، وكان قد ختم تلك الأحكام بصفتي الغفر والحلم ﴿واعلموا أن الله غفور حلیم﴾^(٦)، وكان الصداق معلوماً عندهم قبل الإسلام، اقتضى ذلك السؤال: هل يجب للمفارقة غير المدخول بها، أي حال من تزوج وطلق قبل أن يبني صداق؟ و هو مما دخل تحت المغفرة والحلم فلا يجب؟ فقيل ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم﴾.

وقد يتعلق التناسب في هذا المقام أيضاً بتشوف النفس إلى إجابة، وبيان حول مسألة من المسائل كما في قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم...﴾^(٧). إذ لما ذكر سبحانه وتعالى قبل هذه الآية من أنه فضل بعض الأنبياء على بعض، وأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد فضل على الجميع، وأن تفضيل المتبوع يُعهم منه تفضيل التابع أيضاً، وكانت اليهود والنصارى قد أحدثت في أدبياتها كثيراً، ونسبت، والعرب معهم حين اتخذوا من دون الله آلهة: الحكم لغير الله، بل قد عهدوا من ملوك الدنيا أنهم لا يكادون يتمكنون من أمر من الأمور حق

(١) البقرة: ١٩٤.

(٢) البقرة: ١٩١.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١١٦/٣، وانظر أيضاً؛ أبو حيان، المصدر نفسه، ٢٤٩/٢.

(٤) البقرة: ٢٣٦.

(٥) من الآية: (البقرة: ٢٢٩-٢٣٥).

(٦) البقرة: ٢٣٥.

(٧) البقرة: ٢٥٥.

التمكن؛ لكثرة الشفعاء والراغبين من الأصدقاء؛ إذ كان الملك منهم لا يخلو مجلسه قط من جمع؛ كلهم صديق أو قريب بحيث لو خذل أحداً منهم، أو وجّه إليه نقداً، تضعضع أمره، فهو محتاج دوماً إلى استرضائهم ومداراتهم، إذ لما كان الحال على ما ذكرت بين سيحانه على وجه التأكيد أنه وحده المتفرد بالحكم، القائم عليه دون مشاركة أحد، وكما يقول الإمام البقاعي بما معناه: ولأجل هذه الأغراض ساق سبحانه الكلام مساق جواب السؤال، فكأنه قيل: هذا حال ملوك الدنيا، فمن الملك في ذلك اليوم؟ فنكر آية الكرسي، مفتتحاً إياها باسمه الأعظم، المتفرد الواحد الذي لا شريك له^(١).

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٥/٤-٢٩، وانظر أيضاً: أبو حيان، المصدر نفسه، ٦٠٧/٢.

المطلب العاشر: التناسب بين جزء الآية وما قبلها من الآيات عموماً:

إذ لما تحدث سبحانه وتعالى عن أمر القتال في سورة البقرة، وأذن لهم به في الشهر الحرام، وفي المسجد أيضاً بشرطه، كان هناك تشوف للسؤال في غياب هذا الشرط؛ وهو الاعتداء على المسلمين، وقد دار حديث طويل بين الصحابة في هذا الأمر، من متردد، ومن متشجع، إلى أن دخلوا وقاتلوا في إحدى السرايا، فما كان من المشركين إلا أن عيروهم بهذا الصنيع، وقد انتظر المجاهدون إلى أن عادوا، وذكروا ذلك للرسول -صلى الله عليه وسلم- فقال تعالى الآية^(١):

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير...﴾^(٢).

ثم بين سبحانه وتعالى جواب ما تقدم في قوله: ﴿والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله...﴾^(٣).

وبهذا يصير المعنى كما قال الإمام أبو حيان في "البحر": "إنكم يا كفسار قريش تستعظمون منا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصدّ عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن كفركم بالله، وإخراجكم أهل المسجد منه، كما فعلوا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه أكبر جرماً عند الله مما فعلته السرية من القتال في الشهر الحرام، على سبيل البناء على الظن"^(٤).

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢٩/٣.

(٢) البقرة: ٢١٧.

(٣) البقرة: ٢١٧.

(٤) أبو حيان، المصدر نفسه، ٣٨٥/٢.

المطلب الحادي عشر: التناسب بين ختام الآية وما قبلها من الآيات عموماً:
قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا، كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾^(١).
إذ لما بينت الآيات قبل هذه الآية حال من لا يعقل باتخاذهِ أنداداً من دون الله، ثم أدارت الحديث بعد ذلك بين الطرفين الشقيين معاتبه ولوماً؛ لأنهم عبدوا أمثالهم من الخلق باتباعهم لهوهم، لكن لما بين سبحانه أن هذه الأشياء بعضها ثمرة أعمالهم، وبعضها حكاية أقوالهم، قال سبحانه على سبيل الاستئناف، جواباً لمن يقول: لقد رأى القوم الذين هذا حالهم جزاء عقابهم، فهل يرون جزاء أعمال الجوارح فكان جواب ذلك ختام هذه الآية ﴿كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾^(٢)؛ لتتناسب مع ما قبلها من كلامهم وعتابهم، على وجه من الظهور والوضوح.

(١) البقرة: ١٦٧.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، م ٢٣٠/٢-٣١١.

المطلب الثاني عشر: التناسب بين ختام الآية وبين ما قبلها وما بعدها: قال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضَلُّونَكُمْ وَمَا يُضَلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(١).

إذ لما كان قصد بعضهم في دعواه: إضلال أهل الإسلام في حقيقة نسبة إبراهيم عليه السلام، قال سبحانه معقياً على مرادهم: ﴿إِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ، وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢). وكان ختم الآية التي بعدها؛ أي موضع الشاهد ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾ بنفي أي نوع من الشعور والإحساس عندهم؛ لكونهم جمعوا بين الضلال والجهل، إما حقيقة لبغضهم، وإما لأنهم لما عملوا بغير ما يعلمون عدّ عملهم جهلاً، وعتواهم بهائم، وكما يقول الإمام البقاعي: وعليه فقد كانت هذه الجملة على غاية من التناسب؛ لأن أهم شيء في حق من رمي بباطل، بيان إبطال دعواه، ثم تبكيته المتضمن لبراءة المقذوف، ثم التصريح ببراءته، ثم بيان من هو أولى بالكون من حزبه، ثم أخيراً بيان المراد من تلك الدعوى الكاذبة ليحذر السامع غائلتها^(٣).

أما وقد ختم سبحانه الآية بنفي شعورهم، حتى أضحوا كالبهائم، فإنه أتبع ذلك على وجه الاستئناف، لكنه في غاية التبكيت المؤذن بشديد الغضب، المتناسب كل التناسب مع كثرة عنادهم^(٤)، فقال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾^(٥).

وبهذا أكون قد عرضت لمجموعة من التناسب بين الآيات، وحاولت في أثناء ذلك أن أضع لكل ما يناسبه من عنوان، ثم أوضح التناسب الموجود قدر استطاعتي، على أنني أؤكد: أن ما ذكرت هو غيض من فيض، فالتناسب في هذا السفر الموسوم بنظم الدرر في تناسب الآيات والسور أجل من أن يضم في بحث أو رسالة مثل هذه. وعليه فما كتب وما قيل -إن كان له شأو، وأمل أن يكون له ذلك- ليس إلا تعريفاً وتمثيلاً جزئياً على ما جاء في هذا الديوان. فمن أراد أن يستزيد، ويطفئ حر صدره وشدة عطشه، فليعد إلى هذا المصنف، فلن فيه غنى لمن كان فقيراً لمثل هذا الاتجاه من البلاغة، كما أن فيه زيادة، وإفادة لا تقدر بنسبة، وإنما يأخذ منها كل حسب استعداده وتهيئه^(٦).

(١) آل عمران: ٦٩.

(٢) آل عمران: ٦٨.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٥٢/٤-٤٥٥.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٥٦/٤.

(٥) آل عمران: ٧٠.

(٦) يذكر أن لأستاذنا الفاضل الدكتور بركات أبو علي دراسة تطبيقية على الآية التفسيرية وموقعها من البيان القرآني والبلاغة العربية، وهي دراسة موجزة، إلا أنها مكثفة، وغزيرة في مادتها، وذلك لكثرة المسائل التي يشر إليها، ويجعل عليها بين القبة والأخرى.

المبحث الثالث: اهتمامه البالغ بإظهار التناسب بين السور القرآنية

وبمداومة النظر في كتاب " نظم الدرر"، أفيت هذه القاعدة تنفرع إلى أربعة مطالب:

المطلب الأول: التناسب القرآني في ارتباط نجوم السورة الواحدة بعضها ببعض.

المطلب الثاني: التناسب القرآني بين أوائل السور، وأواخر ما قبلها.

المطلب الثالث: التناسب القرآني بين آخر السورة وأولها.

المطلب الرابع: التناسب القرآني بين مجموعة سور.

هذه مطالب أربعة رئيسة، تناولها الإمام البقاعي في قاعدة التناسب بين السور، إلا أن الرابع منها لم يكمله إلى نهاية المصحف، لكنه أشار إلى إمكانية ذلك، مقتصرأ على ما تبقى بإشارات جزئية، يرى في جمعها محاولة تامة لإظهار الغرض.

لكن، وقبل الشروع في هذه المطالب، لا بد من مقدمة قصيرة تشمل التعريف بالسورة في اللغة والاصطلاح، مع إشارة خاطفة إلى آراء العلماء في ترتيب سور القرآن، إذ إن لهم أكثر من رأي في هذه المسألة، بخلاف إجماعهم على ترتيب آيات القرآن الكريم. وفي ختام هذه الآراء أنه برأي البقاعي، وهل له أثر على العلاقات التناسبية بين سور القرآن أم لا؟
للسورة في اللغة عدة معانٍ: فهي تأتي بمعنى المنزلة والشرف، وما طال من البناء وحسن وغير ذلك.^(١)

أما في الاصطلاح: فإن لها غير تعريف، أختار من ذلك: ما خلص إليه الدكتور العبد رتيمة بعد مناقشته التفصيلية لأقوال الأئمة والباحثين في معنى السورة، حيث خلص إلى أنها: "منزلة رفيعة شريفة من منازل القرآن، التي تدل كلها على علو وارتفاع، وأنها درجة في سلم الدرجات القرآنية التي نزلت على النبي الرسول شيئاً بعد شيء، وأنها قطعة من القرآن، وجزء منه تحيط بآياتها التي تحتويها إحاطة السور بالبناء، لها بداية ونهاية تدل على تمامها وكمالها، وأنها ضيافة ربانية ومأدبة قرآنية."^(٢)

وعن سبب اختيار هذا التعريف؟ فلشموليته، ومحاولة الباحث فيه الجمع بين المعاني اللغوية والاصطلاحية بأسلوب واضح وقريب. على أن هذا الأمر لا يعنيني كثيراً في هذا المقام، إذ المراد هنا: هو الإشارة إلى ترتيب السور في المصحف الموجود بين أيدي المسلمين الآن - فقد اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة آراء: قسم قال بالتوقيف، وآخر قال بالاجتهاد، وثالث قال: بعضه من قبيل التوقيف والبعض الآخر إنما هو اجتهاد.

^(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "سور".

^(٢) رتيمة، دراسة لغوية لمفهوم " الآية" في القرآن، ص ١٥٥.

وهنا أقول: يجب على القارئ أن يدرك أن هذه المسألة هي واحدة من المسائل التي أشبعها أهل علوم القرآن بحثاً وتفصيلاً، حتى خالصوا بعد مناقشة آراء القوم جميعاً إلى أن ترتيب سور القرآن الكريم على ما هو عليه الآن في المصحف الذي بين أيدينا: إنما هو ترتيب توقيفي، وقد نقلوا الإجماع على ذلك.^(١)

لكن الإمام البقاعي الذي يعتمد إلى الفكر والنظر في السابق واللاحق حتى يستخرج ما في الآية أو السورة من تناسب، يرى أن القول الصحيح في هذه المسألة هو: أن ترتيب السور على ما هو عليه إنما هو باجتهاد الصحابة، الذي رضي به الله سبحانه وأقره.

وقد حاولت أن أعثر للبقاعي في كتابه على أدلة تسند هذا الرأي، فلم أجد إلا هذه العبارة التي تخلو من الدليل الواضح، أو الشرح والتفصيل: "وقال الحرالي مشيراً إلى القول الصحيح في ترتيب السور من أنه باجتهاد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، إقراراً لله سبحانه وتعالى لهذا النظام، والترتيب السوري في مقرر هذا الكتاب: هو ما رضي به الله سبحانه وتعالى فأقره"^(٢)

وعليه فإن البقاعي يميل إلى الاجتهاد في هذه المسألة، وهو بذلك قد خالف الجمهور، في آرائهم. لكن هذا الرأي لم يكن له أي أثر على علم المناسبة في كتابه، فهو يسير مع الآيات - التي لا خلاف على ترتيبها - ويستخرج ما فيها من تناسب، كما أنه يسير مع السور بالترتيب التي هي عليه الآن - بغض النظر عن رأيه أو رأي غيره - ويستخرج ما فيها من تناسب أيضاً.

ومن هذه المقدمة القصيرة التي تعرفنا من خلالها على معنى السورة القرآنية، وعلى شيء من آراء العلماء في ترتيب سور القرآن، وكذلك رأي البقاعي وعدم تأثيره في ما نحن بصدد. من هذه المقدمة إلى النقاط الأربع التي اندرجت تحت القاعدة الثالثة وهي كما يلي:

المطلب الأول: التناسب في ارتباط نجوم السورة الواحدة بعضها ببعض

أتحدث في هذا المطلب عن الوحدة الموضوعية بين نجوم السورة الواحدة، مستشهداً على ذلك بدليلين؛ دليل نظري أغلبه من كلام الدكتور محمد دراز، وآخر تطبيقي لبعض نجوم

(١) انظر تفصيل هذه المسألة فيما يلي على سبيل المثال: (فقد ناقش هؤلاء الباحثون آراء القدماء والمحدثين، وعرضوا لكل قول بالتفصيل التام).

أ. الزركشي، البرهان، ٣٥٨/١.

ب. العياشي، ترتيب آيات القرآن وسورة (مقالة) ص ٢٤-٢٨.

ج. محمد القاسم، الإحجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسورة، ص ٢٣٦-٢٩٧.

د. رتيمة، المرجع نفسه، ص ١٦١-١٦٦ (وهي من أفضل الرسائل العلمية في هذا المجال إن شاء الله).

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١٩٩/٤. ولا أدري ربما قصد هذا الكلام غير ما فيمت.

سورة النور، حيث يخيّل للقارئ - للوهلة الأولى - تنوع موضوعاتها، وخاصة كونها من السور المدنية، التي تهتم بمعالجة كثير من جوانب الحياة المختلفة.

١ - الوحدة الموضوعية في ارتباط نجوم السورة الواحدة

إن كثيراً من سور القرآن نزلت متفرقة النجوم،^(١) فمنها ما كان مدنياً، ومنها ما كان مكيّاً، وفي هذا كثير من الأحكام المتنوعة، والطرق المتعددة أيضاً لإثبات العقيدة وترسيخها، هذا فضلاً عن التوجيهات الأخلاقية وغيرها. وكما يقول الدكتور محمد دراز بما معناه: على أنك لو نظرت إلى هذا التنوع، لما وجدت فيه ما يخل بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، وكأنه أعد لكل نجم منها ساعة نزوله سياج خاص يأوي إليه ثم قد حدّد له مكان معين في داخل ذلك السياج، سواء أكان متقدماً أم متأخراً، وكأننا نرى من كل ذلك خطة تفصيلية شاملة، قد رسمت فيها مواقع النجوم كلها قبل نزولها؛ خطة أبرمت بأكد العزم والتصميم، فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، أو حتى كان قلقاً نابياً في موقعه، حقا إنه أمر - كما يقول دراز - تكاد تنكر ما تحت سمعك وبصرك إذا رأيته. وبالتالي كأي الناظر يعود إلى نفسه يسألها عن وجه هذا الإحكام في التأليف بين نجوم تلك السورة.^(٢)

وأغرب من هذا أننا نقرأ السورة الطويلة المنجمة - وكما يقول الدكتور محمد دراز أيضاً - نقرأها فيحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة، قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول. بسلي وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول. فلا تزال تنتقل بين أجزائها، كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد، قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، هذا كما ترى بين أحاد الجنس الواحد من حسن التتام والتحام. وكل ذلك بغير تكلف، ولا استعانة بأمر من خارج

(١) نجوم: جمع نجم، وهو القطعة من القرآن تنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد نزل القرآن نجوماً متفرقة في ثلاث وعشرين سنة كاملة، وقد نزل النجم سورة كاملة. أو يضع آيات، أو آية، أو بعض آية، ويقال: نُجم المال، أي آداه نجوماً: (مفرداً).

انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "نجم". وانظر أيضاً: هامش ص ١٨٤، من كتاب أسوأ العظم.

(٢) انظر: دراز، السأ العظم، ص ١٨٩-١٩٠.

المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة، ولطف التمهيد في مطلع كل غرض، ومقطعه وأثنائه، بحيث يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً.^(١)

٢ - مثل من سورة النور

لا شك أن دراسة نجوم سورة من القرآن؛ دراسة متأنية جديرة بأن تكشف الوشائج الجامعة بين هذه النجوم؛ لأنها ما دامت قد جرت في سورة واحدة، ذات سياق واحد، فلا بد أن تكون فيها جامعة تجمعها. وقد اخترت لذلك بعض نجوم سورة النور، فما ينطبق على هذه النجوم، ينطبق على غيرها بالضرورة. على أن سورة النور تتميز أيضاً من غيرها بمدنيّتها وتشعب مواضعها، وكثرة أحكامها. ولكن هذا لا يعني عدم وجود رابط بينها، قد يكون هذا الرابط خفياً دقيقاً، لكنه موجود كالطباع الخفية الحية التي نراها تجري في أبناء العشيرة الواحدة.

لقد تعددت الدراسات حول سورة النور، وأحكامها، الأمر الذي جعل دراسة نجومها صعباً، أمام أي محاولة تجديد. لكني - والحال ما ذكرت - إخال أن أحداً من الدارسين - فيما أحسب - لم ينبه على نكت تناسبها عند الإمام البقاعي. هذه النكست واللطائف التي قال الزمخشري في حقها: " وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتفاضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل - حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عد ألف بواحد - ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث الفكر، ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم، وعامتهم عماء عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد لا يمن عليهم بجزء نواصبيهم وإطلاقهم".^(٢)

ومن باب عدم استباق الأحداث أكتفي بهذا ثم أترك تلك النجوم بتناسبها وترابطها تحدث القارئ بنفسها عن نفسها.

إن سورة النور هي إحدى السور التي تكشف عن شمولية علم الله سبحانه وتعالى: العلم الذي يشهد بتمام قدرته، وغاية حكمته. فمن أولها إلى آخرها - رغم تشعب مواضع آياتها - إلا أنها تدور حول غرض رئيسي هو: تنظيم وتقنين الآداب الواجب توافرها في علاقات الرجال بالنساء، وإلى أي مدى يجب مراعاة هذه الحدود التي حددتها الشريعة؛ حتى يظل تسلسل الوجود الإنساني الممثل لخلافة الله في الأرض، والنابع من هذين الجنسين نابعاً من منبع الطهر، بعيداً عن الريبة واللبس. ويظل الإنسان - بالتالي - من بين الخليقة كلها مكرماً

(١) انظر: دراز، المرجع نفسه، ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ٧/١.

بنسبه، ومعرفة آبائه الذين ينتهي إليهم. وهذا جانب على درجة من الأهمية بالنسبة لحياة الجماعة؛ لذا فإن السورة قد تناولته، وأحكمت عرضه، وحددت حدوده، وأحلت حلاله، وحرمت حرامه.^(١)

إذ لما خُتمت سورة "المؤمنون" بتبكيّت المعاندين: ﴿لَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَنْتَسِبُوا بِهَا تَكْذُوبًا﴾^(٢)، ﴿أَنْمَسِبْتُمْ أَنْمَا خَلَقْنَاكُمْ حُبًّا وَكُنْتُمْ لِئِنَّا لَا تَرْجِعُونَ﴾^(٣)، وذلك بعد أن تقدم فيها تحريم الزنا، والحث على الصيانة التامة للمجتمع المسلم، حيث جاء في مطلعها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ مَانِعُونَ﴾^(٤) ﴿مَنْ لِيَبْتِغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ نَافِلَاتٍ هُمْ لَهَا وَاعُونَ﴾^(٥)، وكانت هذه الإرشادات تحتاج - فيما تحتاج إليه - إلى تبيان شامل لحكم العادي، لما كان الأمر كذلك و لم تكشف عنه سورة "المؤمنون"، فقد وضحت وفصلته سورة النور. حتى جاء بيناً، نيراً، ساطعاً كما يدل اسمها. وبالتالي فقد ابتداء سبحانه وتعالى هذه السورة كما يقول البقاعي: "بأن من على المخاطبين ببيان ما خلقوا له من الأحكام؛ لأنهم لم يخلقوا سدى، بل لتكاليف تعبدتهم بها، ترفع التنازع، وتحسم مادة الشر، فتوجب الرحمة، والعطف بسلامة الصدر بما فيهم من الجنسية".^(٦)

ولذلك فقد كانت البداية الفعلية، بقمة المأساة وذروتها، وذلك حين تنهدم الحدود، وتنقطع الروابط. هذه المشكلة جعلت السورة ومن البداية تضع لها حداً صارماً، وبسرعة عجيبة قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينٍ لَّيْسَ إِلَهُ إِلَّا الْيَوْمَ وَالْيَوْمَ لِلَّذِينَ أَحْرَمُوا عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧).

ثم تناولت السورة بعد ذلك ما يلي هذه الجريمة الأم - في سلسلة الآداب التي شرعتها - وهو وضع الناس أسنتهم في أعراض بعضهم؛ إذ لما نفر سبحانه من نكاح من اتصف بالزنا، وبين أن الزانية لا ينكحها إلا زان، وهذا يعني أن نكاح المرأة للزاني مظنة لزناها، لذلك جاءت الآية: - ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَاللَّهُ

^(١) ملاحظة: لقد لحصت هذه الكلمات وجمعتها من كتب التفسير، ومن عرض لهذه السورة أيضاً.

^(٢) المؤمنون: ١٠٥.

^(٣) المؤمنون: ١١٥.

^(٤) المؤمنون: ٥.

^(٥) المؤمنون: ٧.

^(٦) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٠١/١٣.

^(٧) النور: ٢-١.

تقبلوا لهم شهادة أوبراً وأولئك هم (الفاستقون) ﴿١﴾ تنفر مما يوهم جواز إطلاق الزنا عليهم لمجرد نكاح من علم زناه. ﴿٢﴾

لكن، لما كان لفظ المحصنات عاما للزوجات، وكان لهن حكم غير ما تقم، أخرجتهن بقوله سبحانه: ﴿٣﴾ ﴿والذين يرمون أزواجهن ولم يكن لهن شهادة إلا أنفسهن شهادة أحدهم أربع شهوات بائنه إنه لمن الصادقين﴾ والخاصة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ويررأ عنها العذاب أن تشهر أربع شهوات بائنه إنه لمن الكاذبين والخاصة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تولب حكيم﴾. ﴿٤﴾

نلاحظ أن هذه الآيات قد جعلت الخوض في الأعراض والتكلم فيها رمياً لها؛ ذلك الرمي الذي ربما أصاب أعراضاً بريئة عفيفة، وهو ما كان بالفعل؛ حيث لمحت السورة لمحا رانعاً بذكر حديث الإفك في هذا السياق، هذا للصح هو بيان بأن السنة أهل للسوء قد أصابت أظهر الأعراض؛ عرض أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها. كما أن في ذلك لمحا آخر وهو أن وضع الألسنة في أعراض الناس باب فيه إغراء ليس للعامّة فقط، بل ولغيرهم. حتى ربما يكثر فيه غفلة أهل التقوى، قال تعالى ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم، لا تحسبوه شراً لكم، بل هو خير لكم، لئن لم يأتوا بالشهادة فأولئك عند الله هم الكاذبون، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمتكم في ما أنضتم فيه عزاب عظيم، إذ تلقونه بأسنكم وتقولون بأنواكم ما ليس لكم به علم، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، ولولا إذ سمعتموه قلتما ما يكون لنا أن نتكلم بهزلاً سبحانك هذا بهتان عظيم﴾. ﴿٥﴾

ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب، فقد أدبهم سبحانه وتعالى تأديباً ثالثاً أشد من الأولين، فقال واعظاً ومقبحاً لحال الخائضين في الإفك، ومحذراً

﴿١﴾ النور: ٤.

﴿٢﴾ انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢١٣/١٣.

﴿٣﴾ انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢١٦/١٣.

﴿٤﴾ النور: ٦-١٠.

﴿٥﴾ النور: ١١-١٦. هذا ولا بد للقارئ أن ينظر آيات حديث الإفك جميعها؛ من الآية الحادية عشرة إلى الآية الثالثة والثلاثين؛ حتى يقف من خلالها على جملة من الآداب، والمواعظ البلاغية، وحسن ربط بعضها ببعض.

ومهدداً: ^(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَمُنُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. ^(٢)

ولما أخبرهم سبحانه بأنه ما أنزل لهم هذا الشرع على لسان هذا الرسول الرؤوف الرحيم إلا رحمة لهم، وذلك بعد أن حذرهم موارد الجهل، ونهاهم عن التماذي فيه، في سياق معلم أن الداعي إلى هذه المعاصي هو عدوهم الشيطان، ولذلك قال ساراً لهم بالاقبال عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ... يَوْمَنُذِرُونَهُمْ اللَّهُ وَنَبَهُمُ اللَّهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْتَقِمُ﴾. ^(٣)

ثم لما تضمن ما ذكر من وصفه تعالى علمه بالخفيات، أتبعه ما هو كالعلة لآية: ﴿الزَّانِي لَا يَنْفَعُ اللَّهُ زَانِيَةً أَوْ مَشْرُكَةً﴾، ^(٤) وذلك دليلاً شهوياً على براءة السيدة عائشة - رضي الله تعالى عنها - فقال: ﴿الْمَبِيَّاتُ لِلْغَيْبِيِّينَ وَالْمَبِيَّاتُ لِلْغَيْبِيِّينَ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾. ^(٥) وقدم وصف الخبيثات من النساء؛ لأن كلامهم فيه، فإذا انتفى ثبت الطيب. ^(٦)

ثم مضى الحديث في هذه السلسلة المترابطة إلى شيء آخر من الآداب؛ هو آداب الاستئذان، وهذا له موقعه في السلسلة؛ فبالاستئذان لا تقع العيون على عورات الناس، وقد تم الاهتمام بغض البصر كثيراً، وما ذلك إلا لكونه كما قيل: بريد الزنا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا، وَلكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ... وَتَوَدُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. ^(٧)

يقول الإمام البقاعي: "ولما تقدم سبحانه إلى عباده في الأمور العامّة للأحوال والأشخاص، في الزنا وأسبابه، فحكم وقرر، ووعظ وحذر، أتبعه أسباب العصمة التي هي نعم العون على التوبة"، ^(٨) فقال مرشداً: ﴿وَأَنْتُمْ مَرُؤُوسٌ لِلْأَيَّامِ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَانِكُمْ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ... وَمَنْ يُرْهِقْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِثْرِهِمْ خَفِيفٌ رَحِيمٌ﴾. ^(٩)

^(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٣٣/١٣.

^(٢) النور: ١٩-٢٠.

^(٣) النور: ٢١-٢٥.

^(٤) النور: ٣.

^(٥) النور: ٢٦.

^(٦) انظر هذا وما تقدم، البقاعي، المصدر نفسه، ٢٤٣-٢٤٤/١٣.

^(٧) النور: ٢٧-٣١.

^(٨) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٦٥/١٣.

^(٩) النور: ٣٢-٣٣.

إن طلب العفاف بالنكاح، فإن لم يكن فسي الوسع، فبغض البصر والاستعفاف والاستعصام حتى يغنيهم الله من فضله. ثم تبع هذه الإرشادات تشبيه عظيم في غاية الجمال مفتتحاً بقوله تعالى:

﴿لِنَّ نُّورِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) فَأَيْنَ وَجْهَ التَّنَاسُبِ بَيْنَ هَذَا وَمَا تَقْدَمُ؟

لقد انتهت الآيات التي عرضت لبراءة السيدة عائشة رضوان الله عليها عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) ثم تلا ذلك آية كانت بمثابة تلخيص لكل الذي مضى، بحيث صارت؛ أي ما تقدم من حدود ومواعظ - صاحبت قصة السيدة عائشة - لشدة بيانها تكشف وتبين لمن تدبرها طرق الصواب غاية التبيان، ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن تَبَلُّغِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

وعليه فإن وصف هذه الحدود وهذه المواعظ بأنها آيات؛ أي علامات ظاهرة على طريق السلوك الإنساني، هو مقدمة لوصف شرع الله ونظامه، وأنه نور السموات والأرض أي موضح لمعالم الحياة الإنسانية، شارح لها طريقها ومنهجها بحيث لا يبقى هناك لبس ولا خفاء. يقول الإمام البقاعي بما معناه: كأن ما تقدم في حسن سبكه وبتدبير حكيه عند أولي الأبواب، كالأمثال السائرة، والأفلاك الدائرة، وموعظة للمتقين، وذلك لما في هذا من أحكام، وفواصل منبئة عن العلال المذكورة بما يقرب من الله زلفى، وينور القلوب ويوجب الحب والألفة، ويذهب حر الصدر؛ ثم علل سبحانه إنزاله لذلك، على هذا السنن الأقوم، والنظم المحكم بقوله: ﴿لِنَّ نُّورِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤).

هذا ولما أخبر تعالى بأن الذين اتبعوا نور الحق وصلوا بسبب ما هداهم إليه هذا النور إلى الأعمال الصالحة، ومنها إلى حقائق عظمى، لما أخبر عن هؤلاء أخبر عن أضدادهم الذين اتبعوا الباطل، فحالت جباله الوعرة الشامخة بين أبصار بصائرهم، وبين تلك الأنوار بضد حالهم.^(٥) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُورُوا أَعْمَالِهِمْ لَسُرَابٌ بَقِيعةٌ يمسسه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ورجع الله عنده فؤاده حساباً، والله سريع الحساب﴾^(٦).

إن هذا التشبيه ليكشف عن ممارسات الحياة الإنسانية، وقد انقطعت عن الوحي، فيصنفها بأنها سراب وضلال، وخداع، وأن الروح معها تعيش في غربة منقطعة، ظامنة إلى ما يروي

(١) النور: ٣٥.

(٢) النور: ٣٣.

(٣) النور: ٣٤.

(٤) انظر البقاعي المصدر نفسه، ٢٧١/١٣.

(٥) انظر البقاعي، المصدر نفسه، ٢٨٣-٢٨٢/١٣.

(٦) النور: ٣٩.

غلبها. ولكن العناد والكفر يحرق هذه الروح بظمئها، وبالتالي فهو تشبيه ذو وجه يقابل حياة النور التي لا خداع فيها ولا موارد ولا كذب على النفس.^(١)

أما التشبيه الذي يليه: ﴿وَأَوْ كُظَلِمَاتٍ فِي سِحْرِ لَيْلِي يَنْشَاهُ مَوْجَ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجَ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٍ، ظَلَمَاتٍ بَعْضُهَا نَوَقٌ بَعْضٌ إِزْجَا أُخْرِجَ يَرَهُ لَمْ يَكْرِيرِهَا، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِهِ نَوْرًا لَمْ يَكُنْ لَهُ نَوْرٌ﴾.^(٢)

فإن الإمام البقاعي يعلق عليه قائلاً: "ولما بين سبحانه بهذا المثال أنهم لم يصلوا إلى شيء غير التعب، المثمر للعطب، ولأن هذا لا يفعله بنفسه عاقل، ضرب مثلاً آخر بين فيه الحامل لهم على الوقوع في ممثل الأول، وهو السير بغير دليل، الموقع في خبط العشواء، كالماشي في الظلام".^(٣)

وهكذا إلى آخر السورة تسير معها، فتري البقاعي يربط كل آية بأختها مفتتحاً ذلك بلازمته المشهورة: "ولما" ... إن القارئ ليلاحظ في ما ذكرت إيجازاً وإطناباً، فأما الأول فقد كنت أميل إليه عند وضوح الوحدة الموضوعية وعدم خفائها، وأما الآخر فعلى العكس، ورغم ذلك إلا أنني لا أدعي أنني أتيت بثالثة الأثافي، فهي مجرد محاولة بسيطة للنظر في التناسب القائم بين بعض نجوم السورة، أختمها بكلام الدكتور دراز، فما أجمل هذا الكلام، وما أنسبه لهذا الموضوع. يقول الدكتور دراز بعد أن أحال على إنباع النظر في ترابط نجوم القرآن:

"ولسوف تحسب أن السبع الطول من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها، أو جلها قد نزلت نجوماً. أو لتقولن إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع؛ كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قدرت أبعاده، ورقمت لبناته، ثم فرق انقاضاً فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضاً كهينته أول مرة"^(٤)

وهو ما رواه ابن عباس - بسند صحيح - قال: "أنزل القرآن في ليلة واحدة - وفي رواية: جملة واحدة. إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة، ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جُنَاكَ بَالِغٌ وَأُحْسِنُ تَفْسِيرًا﴾^(٥)، ﴿وَقَرَأْنَا فَرْتَاهُ لِنَقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى حَكْمٍ وَنَزْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾^(٦)." (٧)

(١) انظر: أبو موسى، أمثال سورة النور (مقالة) ص ١١٧ وما يليها، ولقد اهدت من هذه المقالة كثيراً في هذا المقام.

(٢) النور: ٤٠.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٨٦/١٣.

(٤) دراز، المرجع نفسه، ص ١٩٥.

(٥) الفرقان: ٣٣.

(٦) الإسراء: ١٠٦.

(٧) انظر الحديث وغيره - مع التخريج - من: السبوي، الإثنان، ١٣٥/١-١٣٦.

ومن التناسب بين نجوم السورة الواحدة، إلى محاولة التماس - ما يتيسر - من العلاقات التناسبية بين أوائل السور وأواخر ما قبلها.

المطلب الثاني: التناسب بين أوائل السور، وأواخر ما قبلها

من المعلوم أن أوائل السور، هو ملخص لها، ودليل لمقصدها، كما أن ختام السورة التي قبلها دائماً تكون داعمة، وكاشفة لمقصد التي تليها، إذ إن القرآن حلقة متصلة الأجزاء، كل جزء يدفع باتجاه الذي يليه.

لما كان ذلك كذلك، فقد نظرت في هذا الجزء من التناسب، فاستخرجت تسع علاقات ترابطية بين أوائل السور وأواخر ما قبلها، وذلك من قبيل التمثيل لا الاستقصاء، وهذه العلاقات الترابطية التناسبية - المختارة في هذا المقام هي :

١. التناسب على أساس التفصيل بعد الإجمال.
٢. التناسب على أساس الدليل والبرهان.
٣. التناسب على أساس السبب والنتيجة.
٤. التناسب على أساس السؤال والاستفسار.
٥. التناسب على أساس التقابل والوصف.
٦. التناسب على أساس التكميل والتوضيح.
٧. التناسب على أساس التعجب والإكثار.
٨. التناسب على أساس التعليل والتخصيص.
٩. التناسب على أساس التأكيد.

هذه هي العلاقات التسع التي استخرجتها من هذا التناسب، وسأحاول شرحها، والتمثيل عليها، بما يتناسب و موضوعها أو شيوعتها عند الإمام البقاعي في نظم الدرر، فقد تأخذ الواحدة مثلاً، وقد تأخذ الأخرى مجموعة من الأمثلة، وسنرى ذلك معاً:

١- التناسب على أساس التفصيل بعد الإجمال:

إن الإجمال والتفصيل: ضربان من ألوان البلاغة، وهما في مقامهما من أحسن وجوه البلاغة ومقاصد البلغاء. وسأختار من هذا اللون التناسبي ثلاثة أمثلة: التناسب بين سورة البقرة وسورة الفاتحة، وبين سورة الرعد وسورة يوسف، وبين سورة الرحمن وسورة القمر.

لقد اشتملت سورة الفاتحة بدلالاتها ومعانيها على مجمل ما فصله القرآن، يقول الغماري: " فلهذه المناسبة القوية الواضحة - أعني اشتمال الفاتحة على مجمل ما فصله القرآن - ابتدئ بها. ومن مقتضيات البلاغة تقديم الشيء مجملاً، ثم تفصيله بعد؛ ليكون أوقع في النفوس،

وأدعى لتمكنه منها^(١) وبالتالي لا شك أن من تدبر " الفاتحة"، وتأمل معانيها، أشعرته بالمعاني التي فصلتها السور بعدها. فلو وضعت الفاتحة بجانب أي سورة لناسبها بوجه من الوجوه؛ إذ ما من سورة إلا وفيها تفصيل لبعض ما أجملته معانيها، فهي أم القرآن وأساسه.

أما بالنسبة للتناسب بين سورة البقرة وسورة الفاتحة، فهو من أوضح الأمثلة وأجملها؛ إذ لما أخبر سبحانه وتعالى بأن عباده المخلصين سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم؛ الذي هو غير طريق الهالكين ﴿هَذَا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَيْرٌ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ (الضالين)^(٢)، إذ لما سألوا ذلك، أرشدهم في أول التي نزلها: إلى أن الهدى المسؤول عنه، إنما هو في هذا الكتاب، وبين لهم - على وجه من التفصيل - صفات الفريقين الممدوحين بالهداية حثا على التخلق بها، وكذلك صفات الممنوعين زجراً عن قربها، وقد وقف الإمام البقاعي عندها مبينا كونها من أعظم المناسبات، حيث نفيها الرب عن صراط الهداية الذي طلبوه، ووصفها المتقين، وكذلك الكافرين؛ ليعلم أن ما اتصف به المتقون هو الصراط المستقيم، وما اتصف من عداهم هو طريق الهالكين فيترك.^(٣) إلى أن قال ما نصه: " وتصنيف الناس آخر الفاتحة ثلاثة أصناف: مهتدين ومعاندين، وضالين، مثل تصنيفهم أول البقرة ثلاثة: متقين، وكافرين مصارحين وهم المعاندون، وضالين وهم المنافقون، وإجمالهم في الفاتحة، وتفصيلهم هنا من بديع الأساليب، وهو دأب القرآن العظيم؛ الإجمال ثم التفصيل".^(٤)

نلاحظ أن هذا الجواب التفصيلي، قد أراح النفس بعد أن علقها - الإجمال في آخر سورة الفاتحة - كما أن الجواب كان تاماً عن كل صنف، وكأنه أشبه ما يكون بالمقابلة، بل المطابقة في المقابلة.

ثم إذا نظرنا إلى ختام سورة يوسف من لدن ﴿وَأَيُّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُرْسِطُونَ﴾^(٥) إلى آخر السورة: ألفينا شدة التماسك والتناسق بينها وبين سورة الرعد، وقد نقل الإمام البقاعي تفصيل هذا التناسب عن الإمام أبي جعفر الغرناطي، ومن ثم أودعه نظمه وزاد عليه، وعلى العموم قال في آخر اقتباسه عن أبي جعفر: " والسورة بمجملها غير حائدة عن تلك الأغراض المجملة في الآيات الأربع المذكورات من آخر سورة يوسف،

(١) الغماري، جواهر البيان، ص ١٩.

(٢) الفاتحة: ٦-٧.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٧٧-٨٧.

(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ١٠٢/١.

(٥) يوسف، ١٠٥.

ومعظم السورة، وغالب أيها في التنبيه وبسط الدلالات، والتذكر بعظيم ما أودعت من الآيات^(١)

ولما كان الإمام البقاعي قد وقف على هذا التفصيل وقفة تامة فإني أكتفي بالقول: بأن مطلع سورة الرعد على غاية من الوضوح في تفصيله لمجمل قوله سبحانه وتعالى في خاتمة سورة يوسف: ﴿وَأَيْنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ... وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢)، حيث بدأ سبحانه في سورة الرعد يفصل القول في الآيات السماوية، والآيات الأرضية؛ فمن الأولى ذكر القرآن، ورفع السماء بلا عمد، وتسخير الشمس والقمر، ومن الثانية ذكر مد الأرض وبسطها، وإرساء الجبال رغم تحرك الأرض ودورانها، وكذلك ما جعله الله فيها من ثمرات وبساتين ومياه^(٣) وغير ذلك؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلْقَاءَ رَبِّكُمْ تَوَقُّنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَادٍ وَأَنْهَارًا وَمَنْ كُلُّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مِّنْ مَّجَارٍ وَمِثَاقٍ مِّنَ الْأَعْنَابِ وَزَيْتٌ وَنَخِيلٌ صِنْدَانٌ وَغَيْرِ صِنْدَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْثَلٌ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْكَلِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٤).

يذكر أن الإمام البقاعي قد أشار قبل ذلك إلى وجه غير ما ذكرت في تناسبها مع ما قبلها، حيث رأى أن ختم سورة يوسف قد تم بإظهار الدليل على حقية القرآن، وأنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون، وذلك بعد أن أشار إلى كثرة ما يروونه من آيات في السموات والأرض، ثم يعرضون، ﴿وَأَيْنَ مِنْ آيَةٍ... لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق (الذي بين يديه وتفصيل كل شيء، وهدي ورحمة لقوم يؤمنون)^(٥)، ولذلك ناسب كل التناسب أن يفتح سورة الرعد بالحديث عن الآيات العلوية والأرضية على طريق اللف والنشر المشوش؛ لأنه أفصح للبداءة في نشره بالأقرب فالأقرب^(٦). وهذا قريب مما نقله عن الإمام أبي جعفر بعد ذلك.

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٦٩/١٠.

(٢) يوسف، ١٠٥-١٠٨.

(٣) انظر تفصيل هذا الباب: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٦٤-٢٦٩/١٠.

(٤) الرعد: ٢-٤.

(٥) يوسف، ١٠٥-١١١.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٦٢-٢٦٣/١٠.

ومن هذا التناسب أيضا ما هو قائم بين أوائل سورة الرحمن وأواخر سورة القمر قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صَرْقٍ عَمْرٍاءَ مُتَمَرِّقِينَ﴾^(١) فلما ختم سبحانه سورة القمر بعظيم الملك، وبلغ القدرة، وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة، وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها، قصر هذه السورة "عروس القرآن" على تعداد نعمة على خلقه في الدارين، وذلك من آثار الملك، ولما كان آخر سورة القمر موجزاً ومختصراً مجملاً، وما فيه من ذكر ما يلقاه المتقون من نعيم على سبيل الإجمال، اقتضى تفصيل ذلك وبيانه في سورة "الرحمن"، التي ابتدئت باسمه الدال على الرحمة، كما اختتمت تلك باسمه - سبحانه - الدالين على اتساع ملكه، وسعة وعظم مقدرته، وكان كل ذلك بصيغ التكثير، وقد أشار الإمام البقاعي إلى هذا التفصيل بحرفيته حين قال: "وفصل فيها ما اجمل في آخر القمر: من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة"^(٢).

٢- التناسب على أساس الدليل والبرهان:

لقد تعددت السور التي ارتبط أولها بختام التي قبلها على أساس الدليل والبرهان من ذلك: التناسب القائم بين أول الأعراف وختام سورة الأنعام؛ إذ لما ختم سبحانه وتعالى سورة الأنعام باتباع كتابه والتزامه، إلى أن تم ذلك بقوله: ﴿وَهَذَا الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ (لِلْأَرْضِ)، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ وَرَجَعْتُ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣). يقول الإمام البقاعي بعد ما تقدم: "أخذ سبحانه يستدل على ما ختم به تلك من سرعة العقاب، وعموم البر والثواب وما تقدمه..."^(٤).

وبمعنى آخر: فإن الابتلاء الذي ينزله الله على عباده، وما يترتب عليه من عقاب أو ثواب، لا يكون إلا بعد أن توضح التكاليف الشرعية، ويبرهن عليها ويدلل، ولما كان ذلك في السورة نفسها: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكًا فَاتَّبِعُوهُ﴾^(٥) أعاد سبحانه في مطلع "الأعراف" التأكيد والتدليل على ما اختتمت به الأنعام من الامتثال والثبات على التكاليف الشرعية، التي مصدرها كتابه عز وجل، ولذلك كان الحديث في بدء سورة الأعراف كما تقدم عن كتابه ووجوب

^(١) القمر: ٥٤-٥٥.

^(٢) انظر هذا وما تقدم: البقاعي، المصدر نفسه، ١٩-١٣٤-١٤٠. ومن هذا الواد أيضاً، انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/١١٥.

^(٣) الأنعام: ١٦٥.

^(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ٧/٣٤٨.

^(٥) الأنعام: ١٥٥.

التزامه. ^(١) قال تعالى مدلاً على ما تقدم: ﴿المن، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾، ﴿تبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من وونه أولياء، قليلاً ما تذكرون﴾. ^(٢)

ومما صرح به الإمام البقاعي أنه من باب التناسب القائم على أساس البرهان والدليل: ارتباط أوائل سورة يوسف بأواخر سورة هود؛ إذ لما ختم - سبحانه وتعالى - أواخر سورة هود مخبراً بتمام علمه وشمول قدرته: ﴿ولله غيب السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله فاعبره وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون﴾، ^(٣) دل على ذلك أهل السبق من الفصاحة والفوت في البلاغة في أول سورة يوسف، وذلك بما دلّ على أنه يأتي بما تذهب الأفهام والعقول - على كر الأزمان، وتعاقب الدهور، وتوالي الأيام وتمادي الليالي - في معناه كل مذهب، وتطير كل مطار، مع توفر الدواعي، واستجماع القوى، فهو حكيم من حكيم عليم، سبحانه أنى لأحد مهما أوتي أو سما أن يباري ما دقّ من معانيه، وما لطف من مبانيه، كل حرف وصوت، فيه دليل عليه ولكن سبحانه - رغم ذلك كله - من يخبر ثم يدلّ، فكلم في ذلك والله من عبير وعظات ^(٤) ﴿الر، تلك آيات الكتاب المبين﴾، ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ^(٥).

ومن الجدير بالذكر أيضاً في هذا المقام: أن أتوه إلى أن الإمام البقاعي قد ناظر في كثير من الأحيان بين خواتم السورة، وبين أوائل التي تليها، فقبل أن يختم سورة هود بثلاث آيات - مثلاً - قال سبحانه وتعالى: ﴿وكللاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾، ^(٦) وقال في سورة يوسف بعد تجاوز مطلعها: ﴿وإذ قال يوسف لأبيه يا أبت أبت رأيت أحمر عشرين كوكباً وأشمس والشمس والرأس لي ساجدين﴾. ^(٧)

إذ لما ذكر - سبحانه وتعالى - ما في قصص الأنبياء من فوائد، أتبع ذلك على سبيل التفصيل والتدليل بقصة يوسف، وما لاقاه من إخوته، وما آلت إليه حاله بعد ذلك من حسن العاقبة؛ ليحصل للرسول - صلى الله عليه وسلم - التسلية الجامعة، رغم ما يلاقيه من أذى القريب والبعيد، فقد وقع ليوسف - عليه السلام - ما هم الكفار من أقارب النبي - صلى الله عليه وسلم - فعله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وإذ همكركم الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو

^(١) انظر، البقاعي، المصدر نفسه، ٣٤٧/٧-٣٤٨.

^(٢) الأعراف: ٣-١.

^(٣) هود: ١٢٣.

^(٤) انظر البقاعي، المصدر نفسه، ٤-٣/١٠.

^(٥) يوسف، ٣-١.

^(٦) هود: ١٢٠.

^(٧) يوسف: ٤.

يخرجوك، ويحرقون ويحرقون، والله خير المائتين)». (١)، يقول الإمام البقاعي ما نصه: "فكان فسي سوق قصته عقب الأخبار بأن المراد بهذه القصص تثبيته - صلى الله عليه وسلم - وتسليته فؤاده؛ إشارة إلى البشارة بما وقع له - صلى الله عليه وسلم - يوم الفتح من ملك قيادتهم، ورد عنادهم ومنه عليه، وإحسانه إليهم..." (٢)

ومن هذا اللون من التناسب أيضاً ما هو قائم بين أوائل سورة العصر وأواخر سورة التكاثر؛ إذ لما ختم سبحانه وتعالى الأخيرة، بالسؤال عن النعيم، وإكثاره عز وجل من التوعد برؤية الجحيم: ﴿أَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ لِمَّا كَسَبَ سَعِيرًا﴾ (٣) ثم كلاً سوف تعلمون، كلاً لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم)». (٤)

لما ختم سبحانه وتعالى السورة بالسؤال عن هذا النعيم، فقد كان ساكن هذه الدار -إذن- على غاية الخطر، حيث إن نعيمه في غاية الكدر، لما كان ذلك كذلك، فقد قال سبحانه وتعالى دالاً على ما تقدم بأن أكثر الناس - ، والحال ما ذكرت هالكون لعدم قيامهم بواجب هذا النعيم ، وقد أكد سبحانه هذا الدليل بالقسم والأداة؛ لما للأغلب من التكذيب، إما بلسان الحال، أو المقال، ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ﴾ (٥) (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)». (٥)

وأختم هذا الضرب من التناسب بما هو قائم بين أوائل سورة الفيل وخواتم سورة الهمزة، إذ لما قدم سبحانه وتعالى في الهمزة: أن كثرة الأموال المسببة بالقوة والرجال ربما اعقبست الوبال، دل عليه بدليل شهودي، محذراً من الوجاهة في الدنيا، وعلو الرتبة والطغيان، مشيراً إلى أن هذه الأمور كلما عظمت زاد ضررها بما تجره، وما تحمله في ثنائياها، إلى أن ينازع صاحبها الملك الأعلى، فالويل له بعد ذلك، وأدل دليل عليها ما شاهدته قريش من أمر أصحاب الفيل. (٦)

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٢٣٦.

(٣) التكاثر: ١-٨.

(٤) انظر البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٢٣٦.

(٥) العصر: ١-٣.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٢٤٩-٢٥٠. ومن الأمثلة الأخرى على هذا التناسب انظر: أوائل الكهف مع أواخر الإسراء (المصدر نفسه، ٢/١٢)، وأوائل سورة ساء مع أواخر سورة الأحزاب (المصدر نفسه، ١٥/٤٢٨)، وأوائل سورة غافر مع أواخر سورة الزمر (المصدر نفسه)، وأوائل التحريم بأواخر النفاق (المصدر نفسه، ٢٠/١٧٩-١٨٠). وأوائل الحجر مع أواخر العاشية (المصدر نفسه، ٢٢/٢١).

٣- التناسب على أساس السبب والنتيجة:

لا تتفك النفس البشرية في حاجة دائمة إلى توجيه وإرشاد، على أن هناك طرقاً متنوعة للوصول إلى هذا الغرض، ومن أعلى هذه الطرق وأرفعها أسلوب القرآن الكريم، وفي هذا المقام يطالعنا النظم القرآني بتناسب فريد، قائم على التوجيه والتأديب، عقب الإنعام والتفضيل. وقد اخترت لهذا الغرض: التناسب القائم بين أوائل الحجرات وخواتم الفتح، وكذلك التناسب القائم بين أوائل الممتحنة وأواخر الحشر.

من الفتوح العظيمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، بل من أعظمها بمكان: صلح الحديبية، فقد اختلط فيه المشركون بالمسلمين، وسمعوا كثيراً من كلامهم، حتى تمكن الإسلام من قلوبهم، فأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، كثر بهم سواد الإسلام، قال القرطبي: فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها.^(١)

وقد عد هذا فضلاً عظيماً، وأعظم من ذلك الجائزة التي أعلن عنها في نهاية سورة الفتح ﴿... وعرف الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا﴾^(٢) حيث كانت تتويجاً لقتالهم والتزامهم لأوامر الله واجتنبهم لنواهيه، الأمر الذي اقتضى بعد ذلك - وهو من أعظم أساليب التربية الربانية - توجيهها وتأديباً، إذ هو بعد الإنعام جدير بالقبول. قال الإمام البقاعي: "لما كان التأديب عقب الإنعام جديراً بالقبول، وكان قد أجرى سبحانه سنته الإلهية؟ بذلك، فآدب عباده المؤمنين عقب سورة الفتح بسورة الحجرات..."^(٣). لما كان ذلك كذلك، فقد اقتضى التأديب في مطلع سورة الحجرات فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا بين يدي الله ورسوله ولا تقولوا لله، إن الله سميع عليم، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم، وأنتم لا تشعرون﴾^(٤)

وكذلك الحال مع سورة الحشر التي ذكرت المسلمين بطرد اليهود، وجلانهم خارج الجزيرة العربية، مع فتح حصن بني النضير خاصة والنصر عليهم، ناهيك عن مسألة الولاء والبراء، حيث أكدت أنه لا ولي إلا الله، ولذلك ختمها سبحانه وتعالى بصفتي العزة والحكمة، بعد أن افتتحها بهما فقال تعالى: ﴿هو الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم﴾^(٥)

^(١) انظر: الألبوسي، روح المعاني، ٢٦/٨٤.

^(٢) الفتح، ٢٩.

^(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ١٩/٤٨٣.

^(٤) الحجرات، ١-٢.

^(٥) الحشر: ٢٤.

وقد ثبت بالتالي: أن من الحكمة حشر الخلق، وجمعهم على اختلاف ألوانهم، وثبت أيضاً بأن أولياء الله هم المفلحون، وأن أعداءه هم الخاسرون، كما تبين أن الحب في الله، والبغض في الله: لهو من أفضل الأعمال، وأوثق عرى الإيمان، ولذلك ما فتئ سبحانه ينم من يوالي أعداءه ويناصرهم، من بدء الدعوة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد سمي سبحانه وتعالى من يقوم بمثل هذه الأعمال الدنيئة، ويصافح أعداءه، سماه ونعته بنعوت بعيدة كل البعد عن دائرة الإسلام، الأمر الذي أوجب قطعاً البراءة منهم؛ أعداء الله، والإقبال على طاعة الله وخدمته، مع إخلاص الولاء له وحده.^(١) قال تعالى مؤدياً وموجهاً عقب ما تقدم، وخاصة فتح حصن بني النضير، والخلاص منهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالرِّقَّةِ، وَتَرْضَوْنَ بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ، يَخْرُجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُمَنُّوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، تَسْرُونَ إِلَيْهِم بِالرِّقَّةِ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أُخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ السَّبِيلَ﴾.^(٢)

ومن الإنعام والتفضيل إلى ما كان مبنياً على تناسب أساسه: مقدمة ونتيجة؛ كارتباط أول الاحقاف بختام الجاثية، وأول الفتح بأواخر سورة محمد، وارتباط أول النصر بخواتيم سورة الكافرون. قال تعالى في ختام سورة الجاثية: ﴿فَلِلَّهِ الْمُرُورُ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾،^(٣) أي إن الله سبحانه وتعالى كل ذلك، فهو صاحب الغنى المطلق، وصاحب السيادة التامة؛ الكبرياء رداؤه والعظمة إزاره، فمن نازعه أيا منهما أدخل النار؛^(٤) لأنه العزيز الذي يغلب كل شيء، ولا يغلبه شيء كما أنه الحكيم في أمره ونهيه وجميع شرعه، بل وفي نظمه للقرآن جملاً وآيات وفواصل وغايات، حتى صار معجزاً بنظمه ومعناه، وبتنزيهه أيضاً طبق أجوبة الوقائع على ما اقتضاه الحال، ليكون الختام بصفاتي العزة والحكمة مقدمة لنتيجة لطيفة: ﴿مَنْ تَنَزَّلَ الْكِتَابَ مِنْ رَبِّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٥) إذ إنه سبحانه وتعالى قد أنزل كتابه الجامع. لجميع الخيرات بالتدرج حسب المصالح، فهو العزيز الحكيم؛ الذي لم يضع شيئاً إلا في أوفق محاله، وأنه الخالق للشر كما أنه الخالق للخير، ولجميع الأفعال. وهو سبحانه المعز لأوليائه، المذل لأعدائه، ويحكم أمر دينه فيظهره على الدين كله من غير أن يقدر أحد على معارضته في شيء منه. وبذلك فقد صارت آية الجاثية - كما يقول

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٨٤/١٩.

٥٣٥١١٣

(٢) المتحفة: ١.

(٣) الجاثية: ٣٧.

(٤) إشارة إلى ما رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله عز وجل: الكبرياء رداؤه. والعظمة إزاره. فمن نازعه أيا منهما أدخله النار. وفي رواية، عذبه، وفي

رواية: قصصه. انظر: البقاعي المصدر نفسه، ١٨ - ١١٧.

(٥) الاحقاف: ١-٢.

الإمام البقاعي - مقدمة لهذه، وهذه نتيجة لها.^(١) أي أن الله - عز وجل - هو المالك، وهو المعز، وهو المذل، كما أنه الحكيم الذي أتقن صنع كل شيء، فإنزال كتابه - والحال ما ذكرت - لا بد أن يكون كاملاً وجامعاً، ومعالجاً بالتالي لتنظيم جميع شؤون الحياة، إذ إنه من عند حكيم عليم.

أما بالنسبة لارتباط أوائل سورة الفتح بأواخر سورة القتال، فإنه مبني على مقدمة ونتيجة، ولكنها نتيجة في غاية الوضوح، قال تعالى في أواخر سورة محمد؛ سورة القتال: ﴿لَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْدَىٰ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَا يُتْرَكُ أَعْمَالُكُمْ... وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْرُوا تَوْماً خَيْرٌ لَّكُمْ لَا يَدْرِيذُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.^(٢) إذ إنه من المعروف أن سورة محمد - صلى الله عليه وسلم - هي سورة القتال والجهاد؛ تلك السورة التي أخبرت عن قتال الكافرين، وإبطال جميع أعمالهم وتدميرها، وما فيها من الحديث عن إفساد جميع أحوالهم. ثم حديثها عن الذين آمنوا بما نزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو الحق، وختامها بالحض على الجهاد، وعدم الوهن، حيث ضمن الله - عز وجل - لمن يقوم بما تقدم أن ينصره، ويثبتته وقد هدد سبحانه من يتولى الكافرين، ويدهانهم باستبداله بمن لا يتولى ولا ينكل، ولا ينقص على عقبه، وفي ذلك إشارة واضحة، ولمحة خاطفة إلى سفول الكفر وعلو الإيمان، سواء أدهم الليل أم طال الزمان، ولكل ما تقدم فقد افتتح سبحانه وتعالى هذه؛ أي سورة الفتح، السورة التي كانت نتيجة وبشارة للمجاهدين، لقد افتتحها على طريق النتيجة مؤكداً ومعلماً حتى تبتهج النفوس الفاضلة. وعلى الجانب الآخر تكذيب لكل من في قلبه مرض.^(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّا نَتَمَنَّاكَ تَعَمُّبِينَ﴾،^(٤) ولشدة وضوح هذا الوجه من التناسب فقد قال الإمام الألوسي: "ولا يخفي حسن وضعها هنا؛ لأن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال".^(٥)

وأما عن التناسب القائم بين أوائل سورة النصر بأواخر سورة "الكافرون" فهو كما يلي: لما أشار سبحانه وتعالى إلى التبرؤ من الكفار وعبادتهم، وإلى اضمحلال ملة الأصنام كذلك، وظهور دين الله عز وجل على أتم وجه، بحيث صار حال الكفار مما لا عبرة به، ولا التفات إليه، وكذلك لا خوف منهم، ما دام الحال على المشاركة والمنايذة قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ،

^(١) انظر: البقاعي المصدر نفسه، ١١٧-١١٥/١٨، ١١٩/١٨، ١٢٠.

^(٢) محمد: ٣٥-٣٨.

^(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٧٤/١٨.

^(٤) الفتح: ١.

^(٥) الألوسي، روح المعاني، ٨٤/٢٦.

لكم وينكم ولي وين) (١) ونتيجة لما تقدم فقد اقتضى الحال سؤالاً مفاده: هل يحصل والحال هذه نصر للمسلمين على هؤلاء الكافرين؟ فكان الجواب الفوري على سبيل النتيجة بهذه السورة؛ سورة النصر، وما فيها من بشارة للمؤمنين ونذارة للكافرين. (٢) قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَنْزُلًا، نَسِعَ حَمِيرُ بَكْرٍ وَاسْتَغْفَرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. (٣) فالنصر والظفر نتيجة من عند الله، يمنحها عباده المخلصين في ولائهم له، والذين هم على الدوام في منافرة مع أعدائه، يعبدونه وحده، ولا يشركون به شيئاً، मिलهم مع الحق، ورفضهم لضده.

٤ - التناسب على أساس السؤال والاستفسار:

ومن هذا التناسب ارتباط أول الأنفال بأخر الأعراف؛ فقد ذكر الإمام البقاعي أن من مقصد سورة الأنفال: وجوب اتباع الداعي إلى الله؛ وهو هنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وذلك بغاية الإذعان والتسليم والرضا والتبرؤ من كل حول وقوة له سبحانه؛ الذي لو شاء سلب ما أنعم. وأدل ما فيها على هذا المقصد: قصة الأنفال، والتنازع في أمرها، إلسى أن أخبثوا، وتواضعوا بإعطاء الله لها رسوله، ورد الأخير - صلى الله عليه وسلم - لها عليهم. أما وقد ذكر الله في الأعراف قصص الأنبياء - عليهم السلام - مع أممهم، فكان لا بد من الحديث عن قصة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - مع قومه، ولما كانت قصة موسى مع قومه فيها من الإطناب ما فيها، وكان البعض ربما ظن تفضيله على حبيبنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد جعل الله له من أجل ذلك سورتين مخصوصتين؛ " الأنفال " تخص أول الدعوة وأثناءها، وبراءة تخص ختام أمره مع قومه. على ما بين قصة موسى مع قومه، وقصة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - مع قومه من فرق؛ إذ العرب لم يكن عندهم حس نبوة، ولم يكونوا تحت نل أحد أيضاً، بل كانوا الملوك والسادة، ومع شدة مخالفتهم وكيدهم، إلا أن الله نصر نبينا عليهم، ولم يزل يؤيده حتى دخلوا وغيرهم في دين الله أفواجا، ومن ثم التأييد التام لاتباعه، ما داموا على العهد الذي كان، وعلى خلاف من ذلك قصة موسى عليه السلام.

ويبقى السؤال ما وجه التناسب بين أول هذه السورة وختام سورة الأعراف؟

(١) الكافرون: ١-٦.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣١٣/٢٢.

(٣) النصر: ١-٣، وانظر مثل هذا التناسب ما هو قائم بين أوائل آل عمران وأواخر البقرة، (انظر البقاعي، المصدر نفسه، ١٨٧/٤ -

لقد تبين أن آخر سورة الأعراف هو الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع قومه، وما بعدها إنما هو تتمات لما تقدم لا بد منها، وتتمات للتتمات، حتى كان ختام السورة بمدح من أهلكهم الله سبحانه وتعالى لعنديته، وما اتصفوا به من الإذعان وتماخؤهم، حيث عدم الاستكبار، الذي هو أجل أنواع العبادة؛ لحمله صاحبه على الامتثال والطاعة، كما أن التسييح هو التنزيه عن كل ما لا يليق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَاسْتَغْبِرُونَ عَنْ عِبَاةِ رَبِّهِمْ وَلَهُمْ سَاجِدُونَ﴾^(١)

لقد شرف الله الملائكة بأن أضافهم إليه سبحانه، حيث رفع بذلك شأنهم وأشار - فيما أشار إليه - إلى علو منزلتهم ورفعة مكانتهم؛ لالتزامهم طاعة الله، وامتثالهم أوامره مع ما اختصوا به من العبادة وعدم الإشراك، يقول الزمخشري: وفي هذا تعريض بمن سواهم ممن المكلفين.^(٢)

وكان الإمام البقاعي قد استحضر هذا التعريض فأقام عليه المناسبة، فمن هم الذين وقع الاختلاف بينهم في غنائم بدر؛ وفي قسمتها، ولمن هي المهاجرين أم للأنصار؟ أم لهم جميعاً؟ وما كان من إساءتهم في اختلافهم على ذلك. إنهم الذين عرضت بهم الآية، المكلفون من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - الذين ما انتصروا إلا بمدد الله لهم من السماء. فأين هم من جند الله؛ ملائكته الذين قاتلوا في بدر، وأزروا ثم عادوا يسبحون ويسجدون ولا يستكبرون، غير مختلفين ولا متشاكسين.

يقول الإمام البقاعي: فلما كان ذلك كذلك، اقتضى الأمر سؤالاً واستفساراً عن حال الذين عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقارنة بحال جند الله ومدده، فأجاب سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُولُوا اللَّهُ وَأُصَلِّعُوا وَأَتَقُولُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(٣)

وعليه فقد أفاد هذا الترابط التناسبي وعظا وإرشاداً لهذه الأمة، من جهة امتثال أوامره واجتتاب نواهيه، والبعد عن الإعجاب بالنفس، فما كان لا مجال فيه للافتخار، فالأمر كله لله؛ أممكم بملائكته بعد أن دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائلاً: اللهم هذه قریش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك، وتكذب رسولاك. وما كان من هزيمتهم حيث أخذ قبضة من السراب فرمى بها، فمألت أعينهم: ﴿فَلَمَّا تَقَاتَلُوا اللَّهَ عِزًّا وَرَسُولَهُ فَأَقْبَلتُ إِلَيْكُمْ فَرَأَيْتُكُمْ أَعْيُنًا مُدْمِنَةً فَمَآلَتْ مِنْكُمْ الْأَبْصَارُ وَاللَّهُ عَالِمُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٤)

^(١) الأعراف: ٢٠٦.

^(٢) انظر: الزمخشري، المصدر نفسه، ١٨٦/٢.

^(٣) الأنفال: ١.

^(٤) الأنفال: ١٧.

فإذا كان حال الملائكة على ما قدموا هو ما ذكرت، فإني أعظكم أن تخالفوا ولا تمتثلوا ، فيحل عليكم غضب الله: ﴿ ومن يحمل عليه غضبي تقرهوى ﴾،^(١) أو على التقدير: يكون حالكم حال بني إسرائيل، أنعم الله عليهم فاختلّفوا على رسولهم، فأنزل الله بساحتهم ما كان عبرة لغيرهم. وبهذا تتعاقب "الأفعال" بمطلعها مع آخر "الأعراف" وقصتها؛ فما عصى قوم وتحذوا أوامر الله ونواهيها؛ إلا وكانت نهايتهم، نهاية من سبق من أمثالهم.^(٢)

ومنه أيضاً التناسب القائم بين أوائل سورة الهمزة وأواخر سورة العصر؛ إذ لما أقسم الله سبحانه وتعالى في مطلع سورة العصر على خسران الإنسان، حيث إن القصور شأنه، والظلم من طبيعته وجبلته، إذ لما أقسم سبحانه على ذلك، صرّح بأنه من الطبيعي أن يلهيه التكاثر حتى يدخل على نفسه الغرور، ومظنة الكمال، والاعتماد على ما جمعه من مال، ظناً منه بأن ذلك من مسيئات خلوده ونجاته، وقد نسي والحال ما ذكرت بأن هذا الذي رام ما هو إلا عين النقص، حتى خاض في أعراض الناس، يشتم ويعيب كيفما يشاء، فكان من الخاسرين. ولما بين سبحانه الناجين من القسمين، أو من الفريقين في سورة العصر، وختمها بالصبر: ﴿ إنا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾،^(٣) لما بين سبحانه ما تقدم، حصل بذلك تمام تشوف واستفسار إلى أوصاف من كان الهلاك نصيبه، فقيل مبيناً لأضلهم وأشقاهم؛ الذي الصبر على أذاه في غاية الشدة؛ ليكون ما أعد له من عذاب في السورة التالية مسلاة للصابر، وجواباً عن أسئلته واستفساراته.^(٤) قال تعالى: ﴿ ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع ماله وعدوه، يحسب أن ماله أخذه، فلا لينبذن في الحطمة، وما أوراك ما الحطمة، نار الله الموقدة، التي تطلع على الأثر، إنها عليهم مؤصرة، في صر صرورة ﴾.^(٥)

٥ - التناسب على أساس التقابل والوصف:

بعد التنويع في الأساليب ووسائل العرض، ظاهرة بارزة في القرآن الكريم، فالمقابلة كما هي عند جمهور العلماء: أن يأتى بمعنيين فأكثر ثم ما يقابل هذه المعاني^(٦). وهي بالتالي إحدى هذه الوسائل أو الطرق التي تقوم على مبدأ إقامة ضدية بين فكرتين أو تعبيرين، أو كلمتين بمعنيين متقابلين، أو متضادين، مع قصد في اللفظ، ووفاء بحق المعنى. وهي خطاب

^(١) ص: ٨١.

^(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢١٣/٨-٢١٨.

^(٣) العصر: ٣.

^(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٤٣/٢٢.

^(٥) همزة: ٩-١.

^(٦) انظر: فضل عباس، البلاغة فروعها وأفعالها (عنه البيان) ص: ٢٧٨.

للعمامة، كما هي للخاصة، تهدف إلى الإقناع والامتاع بحسن بيانها وجمالها؛ لما فيها من صور لنماذج بشرية مختلفة، وحقائق دينية متناقضة، وغير ذلك كثير.^(١)

أما الوصف: فهو العرض والتوضيح، بل الرسم الملون لأداء الغرض المراد في أقرب صورة وأجملها، وهو كغيره أيضاً: أحد طرق العرض في القرآن الكريم.

أبدأ بالتقابل، فلقد حكم سبحانه وتعالى في آخر سورة الليل: بإسعاد الأتقياء: ﴿وسيجنبها الأتقى، الذي يوتى ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى﴾^(٢) وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - أتقى الخلق مطلقاً، إلا أن مناسبة آخر سورة الليل، أو سبب نزولها: كان في حق الصديق - رضي الله عنه - لما أعتق وأنفق. ولقد ختمت بقوله تعالى: ﴿ولسوف يرضى﴾ وذلك في تقابل لطيف أيضاً مع قوله تعالى في سورة الضحى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾^(٣) وقد أعطى هذا التقابل البلاغي - فيما أعطى - إشارة إلى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أقرب أمته إلى مقامه - صلى الله عليه وسلم - ، وقد صرح الإمام البقاعي إلى أن تعقيبها بسورة الضحى لهو من أبداع الأشياء.^(٤)

لقد وقعت المقابلة المرجوة في هذا المقام، وهي القائمة بين مطلع سورة الضحى وخاتمة سورة الليل؛ إذ إن النص القرآني قدّم في سورة الضحى ما يناسب حال الأتقى الذي قصد به أبو بكر - رضي الله عنه -، قصداً أولاً من النور الذي يملأ الأقطار، ويمحو كل ظلم يرد عليه ويصل إليه، مفهوماً بما ذكر من وقت الضياء الناصع حاله أول النهار وآخر الليل؛ التي هي ظلمة ملتف بساقها ساق النهار عند الإسفار كما يقال، وبالتالي فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿والضحى﴾^(٥) الذي هو صدر النهار و أشرفه وألطفه، وهو زهرته وأضوؤه، وذلك وقت ارتفاع الشمس؛ لأن المقسم لأجله أشرف الخلائق، وذلك يدل على أنه يبلغ من الشرف ما لا يبلغه أحد من الخلق؛ إيذاناً وبشارة بأن شرف التابع هناك، من شرف المتبوع هنا، والله تعالى أعلم.^(٦)

إذن، هي مقابلة تشريف بين مقام أبي بكر - رضي الله عنه - وبين مقام الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ثم اختيار القسم المناسب لهذه المقابلة.

^(١) انظر: بظاهر، المتأمله في القرآن الكريم، ص ١٨ وما يليها.

^(٢) الليل: ١٧-٢١.

^(٣) الضحى: ٥.

^(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٩٨/٢٢.

^(٥) الضحى: ١.

^(٦) انظر البقاعي، المصدر نفسه، ١٠٠/٢٢-١٠١.

ومن لطيف التقابل أيضاً ما هو قائم بين سورة الكوثر وسورة الماعون، حيث قابل سبحانه وتعالى فيها أربعاً بأربع؛ لأن سورة الماعون قد وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور: البخل؛ قال تعالى: ﴿الرُّبِيْعُ الَّذِي يَكْذِبُ بِالرِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيْمَ، وَلَا يَحِضْ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِيْنِ﴾.^(١) وإضاعة الصلاة؛ قال تعالى: ﴿نَدْبِلُ لِمُصَلِّيْنَ (الَّذِيْنَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُوْنَ)﴾؛^(٢) والرياء فيها؛ قال تعالى: ﴿الَّذِيْنَ هُمْ يَرِءُوْنَ﴾،^(٣) وختم هذه الصفات. بمنعهم للزكاة: فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَمْنَعُوْنَ (الْمَاعُوْنَ)﴾.^(٤)

لقد قابل سبحانه وتعالى هذه الصفات الأربع السيئة، بصفات أربع حميدة تقرر أن حاله - صلى الله عليه وسلم - مباينة لحال المنافقين غاية التباين، مما يستدعي التبرؤ وقطع الصلة، وهو ما كان في السورة التالية لسورة الكوثر.

وعلى كل فقد قابل سبحانه البخل بالإعطاء فقال: ﴿إِنَّا أُعْطِينَاكَ (الْكُوْثِرَ)﴾؛^(٥) أي الخير الكثير. وفي مقابلة إضاعة الصلاة بالأمر بها، والدوام عليها قال تعالى: ﴿نُصَلِّ﴾.^(٦) وفي مقابلة الرياء، كان التخصيص لرضى الرب، لا لرضى الناس: (الربك).^(٧) وفي مقابلة منع الزكاة، أو منع الماعون، كان الذبح والتصدق بلحم الأضاحي: (وانحر).^(٨)

وبالتالي لما كانت سورة الماعون ناهية عن مساوئ الأخلاق، كانت الكوثر تقابلها بالدعوة إلى معالي الشيم، وإذا كانت الماعون قد ختمت بأبخل البخل، وأدنى الخلائق، فإن الكوثر قد ابتدئت بأجود الجود؛ العطاء لأشرف الخلائق، ترغيباً فيه وندياً إليه. وكان الله - سبحانه وتعالى - قد خاطب نبيه قائلاً: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك

(١) الماعون: ١-٣.

(٢) الماعون: ٤-٥.

(٣) الماعون: ٦.

(٤) الماعون: ٧.

(٥) الكوثر: ١.

(٦) الكوثر: ٢.

(٧) الكوثر: ٢.

(٨) الكوثر: ٢.

المختتمة بمنع الماعون، وبالتالي فإن حالك غير حالهم، الأمر الذي يستوجب البراءة منهم، وهو ما كان في مطلع سورة " الكافرون".^(١)

ومما جاء على أساس الوصف ما هو قائم بين أوائل سورة النمل، وخواتم سورة الشعراء؛ إذ لما ختم سبحانه وتعالى سورة الشعراء بتحقيق أمر القرآن، وأنه من عند الله، منع نفي الشبه عنه، وتزييف ما كانوا يتكلفونه من تفريق القول فيه؛ بالنسبة إلى السحر، والأضغاث والافتراء، والشعر أخيراً، حيث إن كل ذلك ناشيء عن أحوال الشياطين، قال تعالى: ﴿ وما تنزلت به (الشياطين)، وما ينبغي لهم وما يستطيعون، إنهم عن (السمع لعزولون) ... هل أنبئكم على من تنزل (الشياطين)، تنزل على كل (أفك أئيم)، يلقدن (السمع وأثرهم كأوبون)﴾.^(٢) لما ختم سبحانه تلك بما تقدم، بين سبحانه وتعالى في مطلع سورة النمل: أن كلامه سبحانه قديم، ثم وصفه بأنه نظم ولفظ ومعنى، لا خلل فيه ولا زلل، جامع لأصول الدين ناشر لفروعه، بعيد كل البعد، ومخالف تماماً لما عند الشعراء والكهنة، فهو من تلقى من الله وحده لا شريك له،^(٣) قال تعالى: ﴿ طس، تلك آيات (القرآن) وكتاب مبين، هدى وبشرى للمؤمنين، (الذين يقيمون (الصلاة) ... وإنك لتلقى (القرآن) من لحن حكيم عليم)﴾.^(٤)

٦- التناسب على أساس التكميل والتوضيح:

لقد سرت مع الإمام البقاعي سورة سورة، فألفيت أمثلة هذا الضرب من التناسب كثيرة جداً، الأمر الذي دعاني إلى اختيار بعضها، ولكن ربما يكون هذا كثيراً بالنسبة لما تقدم وما سيأتي، ولكنه بالنسبة للسور القائمة عليه قليل جداً.

أسوق تحت مظلة هذا العنوان مجموعة من الأمثلة؛ أبدأها بالعلاقة التناسبية القائمة بين أوائل سورة النساء، وأواخر سورة آل عمران، وأختمها بالعلاقة التناسبية الكامنة بين أوائل سورة الزلزلة، وخواتم سورة البينة.

لما تبين في سورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران أن دستور الأمة هو القرآن، وثبت أن أساس ذلك كله التوحيد، وكان لا بد من الاجتماع عليه، فقد جاءت سورة النساء تدعو إلى هذا الاجتماع والتواصل والتعاطف والترحم، فابتدأت بما يكمل ما جاء في ختام آل عمران، حيث ختمت الأخيرة بنداء المؤمنين: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم

(١) انظر هذا وما تقدم، ٢٨٧/٢٢، ٣٩١/٢٢.

(٢) الشعراء: ٢١٠-٢٢٣.

(٣) انظر: النماحي، المصدر نفسه، ١٢٣/١٤.

(٤) البس: ١-٦.

تفلمون﴾،^(١) فافتتحت سورة النساء ببناء العموم؛ الناس كافة: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ (الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبنت منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً)﴾،^(٢) وكان سبب هذا النداء العمومي: أن سورة النساء قد ضمت في ثناياها عموميات يشترك فيها الناس جميعاً، بخلاف ختام سورة آل عمران، التي ختمت بالمصابرة، وهي كما نعلم ليست بالأمر الهين، فلا يقدر عليها ولا يستطيعها إلا من استغرق الإيمان حقيقته، وبالتالي فإن فيها من الخصوصية ما فيها.

لكن لما كانت أمهات الفضائل في علم الأخلاق - كما يقول الإمام البقاعي - أربعاً: العلم والشجاعة والعدل والعفة، وكان نصيب آل عمران: الوقوف على العلم والشجاعة والحث عليهما، كان لا بد أن تدعو سورة النساء إلى الفضيلتين الباقيتين، مع التأكيد على الخصلتين الأخريين، لكن حسب ما تدعو إليه المناسبة^(٣).

ومن ذلك أيضاً: ختام سورة إبراهيم بعنوان الكتاب، وأنه وحده البيان الشافي، والدواء الكافي، قال تعالى: ﴿هذا بلأخ للناس ولينزروا به وليعلموا أنما هو إليه واحد وليذكر أولو الألباب﴾^(٤)، هذا الختام كان شرحه في مطلع سورة الحجر، قال تعالى: ﴿الر، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾^(٥)، فقد وصفه سبحانه: بأنه الجامع مانع، إذ الخير كله في ذلك وضده يكون في الفرقة^(٦).

وقريب من هذا: ارتباط أوائل سورة القتال بختام سورة الأحقاف، إذ لما قال سبحانه وتعالى آخر الأحقاف: ﴿ناصر كما صبر أولو العزم من الرسل، والله تستعمل لهم، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾^(٧)، وقد بين أن الهالك هنا هو من كان عريقاً في ديمومة الخروج من محيط ما يدعو إليه هادي العقل والفطرة الأولى، وكذلك الخروج أيضاً من الطاعة الآتي بها النقل إلى طرق المعصية، التي نهى عنا النقل والعقل.

لما ختم سبحانه وتعالى هذه السورة بتعريف بعض جوانب الفاسقين، بعدما عرض لهم من الأدلة والبراهين العقلية والشرعية، أتبع هذا الحديث في أوائل سورة القتال على وجه

(١) آل عمران: ٢٠٠.

(٢) النساء: ١.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٧٠/٥-١٧٢.

(٤) إبراهيم: ٥٢.

(٥) الحجر: ١.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢/١١، وهناك مناسبات أخرى لهذه السورة، فانظر ما يلي هذه الصفحة، وانظر أيضاً: الغماري،

المرجع نفسه، ص ٤٥-٤٩.

(٧) الأحقاف، ٣٥.

المتابعة والتكميل والتوضيح، معرفاً بهم تعريفاً آخر قائلاً: ﴿الذين هضروا وصدروا عن سبيل الله أضل أعمالهم... فإزوا لقيتم الذين هضروا فحرب الرقاب حتى إذا أثقتهم فشرروا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾.^(١)

أي هذا جزء من التعريف بهم، لكن الحق بتمام أمرهم؛ إذ لما حُكم في ختام سورة الأحقاف بذكر هلاكهم، تابع سبحانه في مطلع هذه السورة ذكراً ما عُجل لهم من عذاب في الدنيا أولاً؛ وهو الإثخان في القتل ومن ثم الأسر؛ ليعلم المؤمنون أن الهدى والضلال بيسده سبحانه، وأن أمر قتالهم إنما هو ابتلاء واختبار فيه من الأجر العظيم ما فيه، ولذلك حضهم سبحانه وتعالى على نصرته دينه؛ ليكون النصر ملازماً لهم ما قاموا بذلك.^(٢)

وأما بخصوص سورة الرحمن، فقد صنف سبحانه وتعالى الناس فيها إلى ثلاثة أصناف: مجرمين، وسابقين، ولاحقين. وختم بعة ذلك وهو أنه سبحانه ذو الانتقام والإكرام: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾،^(٣) فقد شرح سبحانه وتعالى أحوال ما تقدم في سورة الواقعة، وبين وقت إكرامه وانتقامه غاية الظهور ومن الجدير بالذكر أن الله - سبحانه وتعالى - قد ذكر في سورة الرحمن نعيم أهل الجنة وأظن في الحديث عنه؛ الأمر الذي اقتضى تمة هذا الحديث. فلما كان ذلك كذلك فقد استوفت السورتان أنواع المنعم عليهم وكذلك المعتدين، أو السعداء والأشقياء على العموم،^(٤) قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ... وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ اليمين ما أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال والسابقون السابقون)....^(٥)

ومن أوضح الارتباط وأشدّه تناسباً على أساس التكميل والالتصيم ما هو قائم بين أوائل سورة التكوير وأواخر سورة عبس. إذ لما اختتمت سورة عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصاخة؛ لاجودهم وعصيانهم: ﴿فإزوا جاءت الصاخة، يوم يفر المرء من أخيه... وأنت هم الكفرة الفجرة﴾.^(٦) لما ختمت سورة عبس بما ذكرت من عذاب الجاحدين، يقول الإمام البقاعي ما معناه: فقد ابتدأت سورة التكوير بإتمام ذلك، حيث صور سبحانه وتعالى في "التكوير" ذلك

^(١) محمد ٤-١.

^(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٨/١٩٢-١٩٧.

^(٣) الرحمن: ٧٨.

^(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٩/١٩٥-١٩٦.

^(٥) الواقعة: ١-١٠.

^(٦) عبس: ٣٣-٤٢.

اليوم غاية التصوير. وبالتالي فما سكت عنه في "عبس"، قد تم في سورة التكويد حتى أصبحت صورة ذلك اليوم في غاية الوضوح والتمام، مصداقاً لقوله - صلى الله عليه وسلم - : (من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة رأي العين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾^(١)) فلقد بدأت السورة بالوعظ والإرشاد، مع الحث على عدم المبالاة والابتعاد عن التعلق بالعالم الخارجي أو بشيء من أسبابه، معلماً سبحانه بأن الخراب والدمار سيبدأ به أولاً قال تعالى فيه^(٢) ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَرَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعُشُورُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ وَإِذَا الْكُنُوزُ سُئِلَتْ مَا أُخْضِرَتْ...﴾^(٣)

وأختم - تحت هذا العنوان - بالتناسب القائم بين أوائل سورة الزلزلة وخواتيم سورة البينة، إذ ختمت الأخيرة بتبيان نصيب الصالح، وجزاء الطالح في دار البقاء، وذلك على ما أسلفوه في مواطن الفناء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاءُ هَمِّ عُنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ عَرْنُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَتِلْكَ لِنِ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾^(٤) ومن الاستطراد في الحديث عن هذا الموضوع، فقد ناسب أن يبدأ سبحانه "الزلزلة" بذكر أول مبادئ تلك الدار وأوائل غاياتها، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ نُتْقَالَهَا...﴾^(٥) وكان هذا من قبيل التتميم لجزاء الفريقين اللذين ذكرا في "البينة"، والتعريف أيضا بما سيؤول إليه حالهم، وخاصة أن البينة لم تعرض لتبيان أحوالهم، الأمر الذي استدعى استيفاء ذلك وتكميله وتوضيحه،^(٦) قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُصْرَرُ لِنَاسٍ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾^(٧).

^(١) انظر مستند أحمد ٢/٢٨٣ وأرقام الحديث عنده هي: (٤٨٠٦، ٤٩٣٤، ٤٩٤١، ٥٧٥٥)، وانظر أيضاً: سنن الترمذي، ٤/٢٧٣.

برقم: (٣٣٣٣).

^(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٧٥/٢١.

^(٣) التكويد: ١-١٤، بل انظر من أوفا إلى آخرها.

^(٤) البينة: ٦-٨.

^(٥) الزلزلة: ١- آخر السورة.

^(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٠٢/٢٢-٢٠٣.

^(٧) الزلزلة: ٦-٨.

٧- التناسب على أساس التعجب والإنكار:

عرض الإمام البقاعي في بداية حديثه عن سورة المعارج إلى نبذة من الأدلة التناسبية على وجوب وقوعها، إلى أن قال بما معناه: ودل على وجوب وقوعها سابقاً بما ختمه بتسميتها في السورة الماضية بالحاقة؛ تنبيهاً على أنه لا بد منها، ولا محيد عنها. ^(١) هذا ناهيك عن تحذير جميع الرسل منها، إلى آخر القرآن الذي قل أن تأتي فيه سورة إلا وهي معرفة بها غاية التعريف. وأما نحن فلنا آخر سورة الحاقة؛ إذ لما ختم سبحانه وتعالى أمرها؛ أعني الطامة الكبرى بوجوب وقوعها، ودلل عليه حتى لم يبق لأحد نوع شك في وجوب وقوعها، لما صنع كل هذا، أخبر عز وجل بأن هناك من ختم على قلبه، واسترسل في غيه، وما زال يكذب بها: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾. ^(٢)

والإمام البقاعي في ذلك كغيره؛ أحد أولئك الذين يعجبون وينكرون على هؤلاء الذين يكذبون بنعم الله. وهو بذلك يكشف عن سوء فهمهم، وعدم اتصافهم بحقيقة علمهم. بل حتى كان لسان حاله: يعجب كل العجب من أي سائل عن وقوعها، يقول: " ودل على أنه لو لم يسأل عنها إلا واحد من العباد، لكان جديراً بالتعجب منه، والإنكار عليه." ^(٣)

وبهذا يكون أول سورة المعارج: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾، ^(٤) قد تناسب مع آخر سورة الحاقة بعلاقة تعجبية إنكارية.

ومما جاء على أساس التعجب والتهويل والإنكار، ما هو قائم بين أوائل سورة النبأ وأواخر سورة المرسلات، إذ لما أخبر سبحانه وتعالى في سورة المرسلات تكذيبهم بيوم الفصل، وحكم على أن لهم بذلك الويل المضاعف، وكرر الآية التي تدل على ذلك عشر مرات، وزاد أن ختم السورة بأنهم إن كفروا بهذا القرآن فلن يؤمنوا بعده بشيء: ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ، نَبَأٌ حَرِيحٌ بَعْرَةٌ يُؤْمِنُونَ ﴾، ^(٥) وذلك لما لهذا القرآن من الإعجاز والبلاغة، والإخبار بالمغيبات وغيره مما لم يتضمنه كتاب إلهي فإذا كانوا مكذبين، فبأي حديث يصدقون؟. وفي ذلك يقول الإمام أبو حيان: " أي لا يمكن تصديقهم بحديث بعد أن كذبوا بهذا الحديث الذي هو القرآن" ^(٦) فقد افتتح سبحانه وتعالى سورة النبأ متعجباً منهم غاية العجب، زاجراً لهم، ومنكراً عليهم، ومتوعداً لهم، ومفخماً للأمر بصيغة الاستفهام، ومنبهاً كذلك على أنه ينبغي أن لا يعقل

^(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٨٦/٢٠.

^(٢) الحاقة: ٤٩.

^(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٣٨٩/٢٠، وانظر أيضاً: أبو حيان، المصدر نفسه، ٢٧٠/١٠-٢٧١.

^(٤) المعارج: ١.

^(٥) المرسلات: ٤٩-٥٠.

^(٦) أبو حيان، المصدر نفسه، ٣٨٠/١٠.

خلاقهم، ولا يعرف محل نزاعهم في هذا الأمر؛ الذي خالفوا فيه، وكذبوا من أجله الرسل، وهو بالمحل الظاهر، البين المعجز؛ الذي لا يختلف على إعجازه اثنان، ولا حتى تتناطح عليه عنزتان، (١) قال تعالى ﴿عم يتساءلون، عن النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون، كلا سيعلمون، ثم كلا سيعلمون﴾. (٢)

٨- التناسب على أساس التعليل والتخصيص:

يعد أسلوب التعليل أحد أهم الأساليب التناسبية في ربطه للسور بعضها ببعض؛ هذا اللون البلاغي الذي أكثر المفسرون من الوقوف عليه وذلك حين نظروا العلاقة التناسبية بين أوائل سورة قريش وأواخر سورة الفيل، حيث عدهما البعض لشدة ارتباطهما، وإحكام تناسبهما سورة واحدة. ولما كان هذا المثل مشهوراً في تاريخ البلاغة العربية، فلن أقف عليه في هذا المقام. وسأختار بدلاً منه - من باب التنوع - مثلين يقوم التناسب في كل على أساس التعليل. إذ لما تبين من التهديد في سورة "ص": "أنه سبحانه وتعالى قادر على كل ما يريد، وكان أن ختم سبحانه السورة بالتأكيد على أن القرآن ذكر للعالمين: ﴿إن هو إلا فؤاد لعالمين، ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ (٣)، كما أن كل ما فيه حق واقع لا محالة، لكن من غير عجلة، لما تبين ذلك، كان ربما قال متعنتهم: حاله إذا كان قادراً على كل شيء، لم يرجئه إلى حين، ولا يعجله؟! فكان تعليل ذلك السؤال القديم الجديد: إن هذا الكتاب المنزل من عند العزيز الحكيم: إنما هو على حسب الحكمة والتدرج؛ لموافقة المصالح الشرعية في أوقاتها المناسبة، ولتسهيل فهمه، وتطبيقه بين الناس، على ما له من العلو، حتى صار ذكراً للعالمين (٤)، قال تعالى في مطلع سورة الزمر: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ (٥)

ومنه أيضاً: التناسب القائم بين أوائل النكاثر وأواخر القارعة، إذ لما أثبت سبحانه وتعالى في القارعة أمر الساعة، وقسم الناس فيها إلى شقي وسعيد، وختم بالشقي: ﴿فأما من تقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأله هاوية، وما أوزان ما فيه نار حامية﴾ (٦) لما ختم "القارعة" بالشقي، فقد افتتح "النكاثر" بعلّة هذه الشقاوة، مقرونة بمبدأ الحشر، وما ذلك

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٩٠/٢١، ومن هذا التناسب أيضاً ما هو قائم بين أوائل سورة الماعون، وأواخر سورة قريش. انظر:

البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢٧٥-٢٢٧٧.

(٢) السأ: ١-٥.

(٣) ص: ٨٧-٨٨.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٣٧/١٦.

(٥) الزمر: ١.

(٦) القارعة: ٦-١١.

إلا لينزجر السامع عن هذا السبب، فيكون من القسم الأول. على أن وضوح هذه المناسبة^(١) لا يعني بحال من الأحوال عدم التفكير بها، إذ إن فيها تحذيراً بليغاً يذهب الوهم فيه كل مذهب، خاصة وقد حذف سبحانه وتعالى ما ألهى التكاثر عنه، فأطلقه ولم يحدده. وقد يكون من أحسن ما قيل في ذلك: إن الحرص على هذا التكاثر قد أهاكم عن التدبر في أمر القارعة، والاستعداد لها قبل الموت. ^(٢) قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِكُلِّ شَيْءٍ أَجَلٌ﴾. ^(٣)

ومن الثاني؛ أعني ما هو قائم على أساس التخصيص: ارتباط أوائل سورة الناس بختام سورة الفلق؛ إذ إن الاستعاذة في الأخيرة: كانت من شر الخلائق جميعاً، مع ذكر في السورة نفسها للشر الكامن في الليل، وفي السحر والحسد، ولكن على وجه الإبهام؛ إبهام "ما" وتتكبير "عاسق" و "حاسد"، حيث يجمع الثلاثة خفية، فتكون كشر العداة. لكن هذه الثلاثة لم تكن - طبعاً - إلا بعد أن تم التحذير والاستعاذة من جميع المضار العامة للإنسان وغيره، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ^(٤) وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان ثم جاءت سورة الناس بعد ذلك متضمنة للاستعاذة من شر خاص وهو: الوسواس قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس المنموس، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، ^(٥) وذلك لما بين الجن والإنس من العداوة. على أن هذا أخص من مطلق الحاسد، كما أن الوسواس يرجع إلى المعاييب الداخلة اللاحقة للنفوس البشرية، التي أصلها كلها الوسوسة، والتي هي سبب الذنوب والمعاصي. والإمام البقاعي يرى بهذا الخصوص بعد البدء بالعموم تناسباً بلاغياً يفي بالمقصود، ويحصل به جملة أكبر من معاني الاستعاذة. ^(٦)

٩- التناسب على أساس التأكيد:

من المعلوم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد تعرض إلى ألوان من الاتهامات إثر إعلانه: لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وعلى رأس هذه الاتهامات: تكذيب كونه رسولاً، رغم ما كان له من معجزات، وكرامات قبل نزول القرآن.

^(١) انظر: أبو حيان المصدر نفسه، ٥٣٥/١٠.

^(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢٥/٢٢.

^(٣) التكاثر: ١-٢.

^(٤) الفلق: ١-٢.

^(٥) الناس: ١-٦.

^(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٢٤/٢٢-٤٢٦.

وقد كان ختام سورة الرعد تتمة لما ذكرت، حيث ختمها سبحانه وتعالى بشهادته نفسه، على المعجزة الخالدة؛ التي أوضح الله بها الحجة، وكشف بها الغمة على وجه يوجب القطع واليقين. وبالتالي كانت هذه الشهادة من أعلى المراتب، التي لا تكافأ بشهادة قسال تعالى: ﴿يقول (الزبي) ضرراً لست مرسله، قل لحي بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم (الكتاب)﴾.^(١)

فهذا الكتاب بنظمه وما حوى، معجز بشهادة من عنده علم الكتاب. وقد تكرر الحديث عنه في هذا الكتاب كثيراً، نجد ذلك في أول البقرة^(٢) وغيرها. كما نجد وصفه قد تكرر أيضاً في سورة يونس،^(٣) وهود،^(٤) ويوسف،^(٥) والرعد^(٦) بأنه حكيم محكم، ومفصل مبين، بل هو الحق الثابت الذي تزول الجبال الرواسي وهو ثابت لا يتتبع شيء منه، ولا يزلزل معنى من معانيه. إلى أن كانت سورة إبراهيم - عليه السلام - وتعريفها به امتداداً لما تقدم على وجه من التأكيد والتحقيق أمام كل معاند ومكابح قال تعالى: ﴿أول كتاب أنزلناه إليك لتفخر (الناس) من الظلمات (إلى) النور يأتون ربهم (إلى) صراط (العزير) (المعير)﴾.^(٧)

ومن ذلك أيضاً: التناسب القائم بين أوائل الزخرف وأواخر الشورى قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنا نترى ما (الكتاب) والله (الذي) ولكن جعلناه نوراً نهري به من نشاء من عبوانا، وإنك لتبهري (إلى) صراط مستقيم، صراط (الذي) له ما في السموات وما في الأرض، أله (إلى) (الذي) تصير (المور)﴾.^(٨)

إذ لما أوحى الله إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - قرأنا تحيا به القلوب، بسلس نوراً، وبلسان عربي مبين كفيل بهداية الخلق، وإبدال حال من شاء منهم، وكان قد تقرر في السور الماضية^(٩) من أن هذا القرآن تنزيل من عند الله تارة بهذا اللفظ، وأخرى بلفظ الوحي، وكان ختام سورة الشورى ما ذكرت؛ من أن الأمور كلها بيد الله، لا يخرج أي أمر عن مراده، فهو الضامن بأن يرجعهم عما هم فيه، ويحاسبهم على كل صغير أو كبير، لما كان ذلك كذلك، فقد أقسم سبحانه بكتابه على كتابه، من باب التأكيد على كونه هداية للعالمين، في أسلوب بلاغي

(١) الرعد ٤٣.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: (الم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوفون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) البقرة ١-٥.

(٣) (الر، تلك آيات الكتاب الحكيم) يونس: ١ وما بعدها.

(٤) (الر، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هود: ١.

(٥) (الر، تلك آيات الكتاب الحكيم) يوسف: ١.

(٦) (الر، تلك آيات الكتاب، والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) الرعد: ١.

(٧) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٠/٣٦٩-٣٧٠.

(٨) إبراهيم: ١.

(٩) الشورى: ٥٢-٥٣.

(١٠) مثل: آل عمران، والأعراف، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والكهف، وطه، والفرقان، يس، والذمر، وعاف، وفصلت، وغيرها.

لطيف. إضافة إلى استخدامه الجعل هنا، وكان قبلاً بالإنزال، حتى لا يبقى - والحال كذلك - وادِّ بلاغي ولا مسلك فني يدل على عظمة كتابه وهدايته، إلا صيره - سبحانه وتعالى - شاهداً على هداية هذا الكتاب. قال تعالى: ﴿حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾^(١)

ومن هذا الباب أيضاً: التناسب القائم بين مطلع سورة نوح وختام سورة المعارج، قال تعالى: ﴿فلا أتمم ربك المشارق والمغرب إنا لقاورون على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين فزركم ينضون ويلعبون حتى يلائقوا يومهم الذي يعصرون يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يرفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يعصرون﴾^(٢)

لما ذكر الله - سبحانه وتعالى - حال كفار مكة مع النبي - صلى الله عليه وسلم - أنذرهم إنذاراً شديداً - وكانوا عباد أوثان، منكرين للبعث والجزاء - بعذاب في الدنيا، وآخر في الآخرة، أما العذاب الدنيوي، فقد انتقى لهم مثلاً عليه بما يشابه حالهم، بل ولأهمية هذا الأمر وتأكده فقد انتقى لهم أعظم عذاب دنيوي نزل بساحة قوم؛ قوم نوح حين كذبوا رسولهم. حالهم قريب من حالهم؛ عبادة أوثان، واستهزاء برسولهم، بل كانوا أشد تمرداً من قريش، وأجلف وأقوى وأكثر، فلم ينفعهم شيء من ذلك عند نزول البلاء والنقمة، فأنه عز وجل قادر على تغيير حالهم، فما حل بقوم نوح سيحل بكم: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عزاب أثيم﴾^(٣)

وهذا إنذار صريح لكفار قريش، فيه تخويف ووعيد من عواقب التكذيب، والتأكيد التام لأجل إنكارهم أن يكون الرسول بشراً، أو لتنزيلهم منزلة المنكرين، من حيث أقرؤا برسالته وطعنوا في رسالة غيره، مع المساواة في البشرية.^(٤)

^(١) الرحرف، ١-٣.

^(٢) المعارج، ٤٠-٤٤.

^(٣) نوح: ١.

^(٤) الشفاعي، المصدر نفسه، ٢٠/٤٢٢-٤٢٣.

المطلب الثالث: التناسب بين آخر السورة وأولها

أكشف في هذا المقام بعبارات وجيزة عن أهمية آخر السورة وأولها بلاغياً، ثم أقف على مجموعة من الأمثلة التي تعكس صورة هذا التناسب.

فقد تبين لي بعد استقصائي لأواخر سور القرآن أن الإمام البقاعي سلك طريقين في التماس هذا التناسب. أما الطريق الأولي: فهي تقوم على علاقات معنوية، تربط آخر السورة بأولها، وهذه الطريقة هي الشائعة عنده، إذ إن التناسب أمر عقلي، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكما يقول الإمام الزركشي: "المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول"^(١) وبالتالي فإن جميع هذه العلاقات ذهنية، تعتمد النظرة العقلية المنطقية في فهمها. بخلاف الطريقة الثانية؛ فهي تعتمد اللفظ أساساً في فهمها. ولسهولتها ووضوح التناسب في جانبها، فإن الإمام البقاعي لم يقف عليها طويلاً كما سنرى.

إذا كانت الفواتح وما تختص به من براعة الاستهلال أول شيء يقرع السمع، فإن خواتم السور لا تقل حسناً عن ذلك؛ إذ هي آخر ما يقرع الأسماع أيضاً، ولهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوف إلى نقص يريد تماماً.^(٢)

وقد سار الإمام البقاعي في تفسيره مع كل سورة يستخرج أسرارها، ويقف على تناسب آياتها، وجملها إلى أن يصل خاتمة السورة، فيؤولها تأويلاً تناسبياً لطيفاً يرجع به آخرها إلى أولها، ويربط فيه مفصلها بموصلها بأوثق ما يكون التناسب والارتباط، على أن الإمام البقاعي قد أولى هذا الأمر - بالفعل - عناية فائقة، واهتماماً كبيراً لا نجده عند غيره، وإن وجد، فليس بالشرح والإفاضة الذي هو في نظم الدرر.^(٣) الأمر الذي يعد من وجوه التجديد في تفسيره الكبير.

وللتعرف إلى هذا اللون من التناسب كان لا بد من تتبع الإمام البقاعي في تناوله له سورة سورة، إذ إن هذا ليس بالأمر الصعب، إذا ما قورن بتتبع آيات القرآن، والوقوف على تناسبها، وتتبعي لجميع محاولاته في ربط آخر كل سورة بأولها، فقد ألفيته يعيد هذا التناسب مرة للمعنى وأخرى للفظ، على أن إعادته للمعنى قد استحوذ على نصيب وافر إذا ما قورن

^(١) الزركشي، المصدر نفسه، ١٣١/١.

^(٢) انظر: السيوطي، الإتقان، ٢٩٢/٢-٢٩٩، وانظر: الغماري، المرجع نفسه، ١٦٦-١٦٩.

^(٣) أقول: لا تعدد هذا اللون من التناسب في كتب التفسير، وخاصة تفسير أبي حيان، على أنه عنده وعند غيره حديث عرضي، وليس مقصداً رئيساً كما هو عند الإمام البقاعي في "نظم الدرر" "تجد هذا واضحاً أيضاً إذا قارنت بين ما كتبه السيوطي في "تناسق الدرر"، وما جاء عند الغماري في "جواهر البيان"، وعند غيره جميعاً، إذ لم أجد وحجها للمقارنة بين هؤلاء وبين ما عند الإمام البقاعي، أعني من جهة التفصيل والشرح والإفاضة في هذا العرض.

بصنوه اللفظ، وما ذلك إلا لغموض هذه المناسبات وعدم وضوحها إذا لم تؤوّل معنوياً، بخلاف الحال مع اللفظ الذي تراه يناديك من بعيد ها أنذا ها أنذا.

١ - التناسب القائم على الارتباط المعنوي:

يعد التناسب القائم على الارتباط المعنوي عمدة رئيسة عند الإمام البقاعي، ففي جميع تفسيره، فضلاً عن ربط أواخر السور بأولها، ومن أمثلة هذا الضرب أختار ستة أمثلة، أطلب في جزء منها، وأوجز في الجزء الآخر بحسب ما يقتضيه المقام.

قال تعالى: في ختام سورة الأنعام ﴿ تِلْكَ أُخْرَىٰ لِأَنَّ أَيْدِي رِبَاٍ وَهُرْبِ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا تُكْسِبُ كُلِّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ لِّلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ وَرَجَاتٍ لِّيُبْلِيَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(١)

لقد وقف الإمام البقاعي على ختام سورة الأنعام، فوجد أنها في غاية التناسب مع مطلعها. فالآية تعجبية واستنكارية ممن يتخذ رباً غير الله مع كونه خالق السموات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، هذا الصنيع الذي يتطلب شكراً دائماً وليس عصياناً وميلاً وبعداً عن الحق، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(٢).

على أنه سبحانه وتعالى ورغم تمام قدرته على هؤلاء الظالمين المنهمكين في طرق الغي والهلاك، إلا أنه عظيم الرحمة بهم. فهو القاهر فوق عباده، السريع في عقابه، المتحكم في مجريات الأمور، من إبعاد هذا، أو تسليط ذاك عليه، وفي الوقت نفسه هو العالم بطبائع البشر؛ ولذلك يبدأ بالترهيب، ثم يعقبه بالترغيب في العفو. وقد أسبل سبحانه وتعالى ذيل غفرانه ورحمته بإمهاله العصاة، وقبوله لليسير من الطاعات، ولولا غفرانه هذا وسعة رحمته لأسقط عليهم السموات ولخسف بهم الأرضين؛ التي أنعم عليهم بالخلافة فيها، ولأذهب عنهم النور، وأدام لهم الظلام، لكنه قال في مطلع السورة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ تَضَىٰ أَجْلاً، وَأَجَلَ مَسْمًى عِنْدَهُ، ثُمَّ أَنْتُمْ حَمِيمُونَ﴾^(٣).

أي إنه سبحانه قد خلقكم من طين ثم بعثكم، ونشركم في الأرض، وحدد الأجل لكل، وما ذلك إلا لغاية تكررت في كثير من السور، وهي خلافته في الأرض، التي تستوجب عبادته سبحانه وتعالى، ولكن لما كان الناس على درجات في التزامهم، وامثالهم لما يطلب منهم، فقد

^(١) الأنعام، ١٦٤-١٦٥.

^(٢) الأنعام: ١.

^(٣) الأنعام: ٢.

ميز سبحانه كل واحد عن الآخر؛ فمنهم من رفعه ومنهم من وضعه، وقد فاوت بينهم في الدرجات بحسب ما تقدم من أمثالهم لأوامره، واجتتابهم لنواهيهم، ثم رتب سبحانه على ذلك عقاباً شديداً، وفي الوقت نفسه سريعاً لمن عصى واتبع هواه. ومغفرة ورحمة لمن أطاع، أو عصى ثم تاب من بعد ذلك؛ ليكون بذلك إيجاد الخلق سبباً وغاية في جعلهم خلفاء في الأرض، يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً. وبهذا يكون المقطع قد ردّ على المطلع في أحسن وجه، والله أعلم بالصواب...^(١)

ومنه أيضاً ختام سورة الروم بقوله تعالى: ﴿فأصبر إن وعد الله حق، ولا يستخفك الذين لا يوتنون﴾^(٢).

أي اصبر يا محمد أنت ومن معك على إنذار القوم، مع جفائهم، وردهم بالباطل والأذى، فإن الكل فعلنا، لم يخرج منه شيء عن إرادتنا، اصبر ولا تعجل، واحذر أن يفتك هؤلاء بحملهم إياك على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون، فإن هؤلاء قوم منافقون لا يصدقون بوعودنا تصديقاً جازماً ثابتاً في القلب. بل هم إما شاكون، حتى إن أدنى شيء يزلزلهم كمن يعبد الله على حرف. أو مكذبون بنصر الله لأوليائه المؤمنين، ولمن قاربهم في التمسك بكتاب الله، ولذلك فهم يبالغون في العداوة والتكذيب، حتى إنهم ليخاطرون في وعد الله بنصر الروم على فارس، كأنهم على ثقة وبصيرة من أمرهم في أن ذلك لا يكون، فإذا صدق الله وعده في ذلك بإظهاره عن قريب، علموا كذبهم عياناً، وعلموا - إن كان لهم علم - أن الوعد بالنصر على الأعداء وبعده الوعد بالساعة لإقامة العدل على الظالم، والعود بالفضل على المحسن كذلك يأتي وهم صاغرون ويحشرون وهم داخرون ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾^(٣) وبهذا يكون قد انعطف آخرها على أولها - ﴿ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون﴾^(٤) - عطف الحبيب على الحبيب، واتصل به اتصال القريب بالقريب، والتحم التحام النسب بالنسب، كما يقول الإمام البقاعي^(٥).

وفي سورة الأحقاف حيث ختمت بقوله تعالى: ﴿فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾^(٦).

(١) انظر: البقاعي، المصدر، نفسه، ٣٤٥/٧-٣٤٦.

(٢) الروم: ٦٠.

(٣) الشعراء: ٢٢٧.

(٤) الروم: ٤-١.

(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٣٦/١٥-١٣٩.

(٦) الأحقاف: ٣٥.

أي اصبر يا محمد ولا تعجل فإن في هذه السورة من الحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة لبيان لا لبس فيه على مسألة التوحيد اللازم تبليغها وإعلانها للناس، كما كان ختام سورة إبراهيم، إلا أنه قد زيد في هذه السورة: ﴿نهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ فتكون بذلك قد تعانقت مع مطلعها تمام التعانق. فهؤلاء الذين فسقوا، والذين يفسقون فإن هادي هذه السورة، وما فيها من براهين يردهم ويوصلهم إلى المقصود، لكنهم أعرضوا ففسقوا: ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾^(١)، وبالتالي فإن هذا الختام هو نتيجة إعراضهم.

وأما ذكر اليوم الموعود: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق، قالوا بلى وربنا، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾^(٢)، وقوله: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾. فإن ذكر هذا اليوم لهو في غاية التناسب مع قوله تعالى في أول السورة: ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾^(٣)، إذ إن اليوم الموعود، هو الأجل المسمى الذي أوجد الخائفين لأجله وبسببه، مع ما في ذلك من دلالة على قدرته بخلقهما من غير إعياء.

ثم إن ذكر البلاغ في آخر السورة: ﴿بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ ليلتحم التحاماً تاماً بقوله تعالى أول السورة: ﴿حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾^(٤)، إذ الأمر المطلوب بلاغه، هو هذا الكتاب المنزل من عند الله، الذي فيه الحكم الواضح البين على العريق في الفسق، وفيه أيضاً الحديث عن النجاة، كما أن فيه برهاناً تاماً على مسائل التوحيد، وكل ذلك من ثمرات العزة والحكمة المعلن عنها في أول السورة. وبالتالي يكون قد اتصل الآخر بالأول - على ما بينت - اتصال الجوهر النفيس في متين النظام، وقد التأم آخر السورة بأولها أيضاً أحسن التئام^(٥).

ومن هذا الوادي أيضاً التناسب القائم بين أواخر سورة الملك، وأوائل هذه السورة؛ إذ لما افتتح سبحانه وتعالى - السورة بعظيم بركته وتمام قدرته، وتفرده في مملكته، ودل على ذلك بتفرده بالإماتة والإحياء قال تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور﴾^(٦)، ختم بمثل ذلك بالماء الذي وجوده هو سبب الحياة، وعدمه سبب الموت فقال قارِعاً بالتببيه، مشيراً بتكرير

(١) الأحقاف: ٣.

(٢) الأحقاف: ٣٤.

(٣) الأحقاف: ٣.

(٤) الأحقاف: ١-٢.

(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١١٨/١٨-١٢٠، وانظر أيضاً: ١٨٩/١٨-١٩٣.

(٦) الملك: ١-٢.

الأمر إلى مزيد من التوبيخ، والزجر، والتبكي، دالاً على تعيين ما أبهم من أهل الضلال، وخصوصاً بما لوح إليه ذلك الإجمال: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾^(١). حيث رجع بذلك الآخر على الأول في أحسن وجه وأكمله، ولعل الآية الأخيرة هذه تتضمن: قل يا أعظم مخلوق، ويا أعلم رجل عند من يدعي العلم والقدرة ويُحادِث الله، هل لك أن تخبرني إخباراً لا لبس فيه ولا خفاء إن ذهبتم وقت الصباح؛ موضع ارتقاب الفلاح، عن مائكم هذا الذي تعدونه في أيديكم، وخاصة إذا رأيتموه نازلاً في الأرض، بحيث لا يمكن لكم نيله بنوع حيلة: ﴿فمن يأتيكم﴾ على ضعفكم حينئذ، وافتقاركم، وانخلاع قلوبكم، واضطراب اتكالكم: ﴿بماء معين﴾ جار دائماً لا ينقطع، أو ظاهر للأعين، سهل المأخذ، غير الله تعالى الذي أثبت في أول السورة أن الملك بيده وأنه على كل شيء قدير^(٢).
وبإيجاز تام أقول: إن هذا اللون من التناصب كثير جداً؛ بعدد سور القرآن، أختمه بهذين المثالين:

إذ لما ختمت سورة "الماعون" بقوله تعالى: ﴿ويعنون الماعون﴾^(٣). كان ذلك في غاية التناصب، إذ هو أولها؛ لأن الذي جر الناس إلى منعهم للماعون هو تكذيبهم بالثواب والعقاب: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾^(٤)، فلو صدقوا وأبقنوا بالجزاء النهائي لما فعلوا ذلك، على أن من منع هذه الأشياء الدنيوية التافهة الحقيرة، كان جديراً بأن يمنع ورود الكوثر في يوم الحشر^(٥).

وبالنسبة لسورة النصر أيضاً المختمة بقوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان تواباً﴾^(٦)، فهي من السور التي يتضح فيها كذلك رجوع آخرها إلى أولها، فلولا تحقق الوصف بالتوبة، لما وجد الناصر؛ الذي به كان الفتح ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا^(٧)، وبهذا يكون قد التحم مقطعها أي التحام بمطلعها، حتى علم أن كل جملة منها مسببة عما قبلها؛ فتوبة الله على عبده في آخر السورة، هي نتيجة منطقية لتوبته باستغفاره، الذي هو طلب المغفرة بشروطه، وذلك أيضاً ثمرة اعتقاده الكمال في ربه، وهو ما دلّ عليه علاؤه لدينه، وقسره للداخلين فيه على الدخول والامتثال، مع أنهم أشد

(١) الملك: ٣٠.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٧١/٢٠-٢٧٢.

(٣) الماعون: ٧.

(٤) الماعون: ١.

(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٨٣/٢٢.

(٦) النصر: ٣.

(٧) النصر: ١-٢.

الناس شكائهم وأعلامهم همما وعزائمهم، وقد كانوا في غاية الإباء له، والمغالبة للقائم به، ونلتسك هو فائدة الفتح الذي هو آية النصر^(١).

وعليه: فلقد سار الإمام البقاعي في إظهار التناسب بين أواخر السور ومطالعها كثيراً على أساس المعنى، ولا غرو إذ جل التناسب في كتابه قائم على هذا الأساس.

٢ - التناسب القائم على الارتباط اللفظي

إن نصيب الجانب اللفظي قليل جداً، بل يكاد يكون نادراً إذا ما قورن بالأول، وما ذلك إلا لوضوحه، وتمام ظهوره وانكشافه، وسهولة إدراكه والوقوف عليه. وقد اخترت لهذا المقام ثلاثة أمثلة:

أما المثال الأول: فكان بالوقوف على ختام سورة الجاثية، قال تعالى: ﴿وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾^(٢)، فلقد أشار - سبحانه وتعالى - بهذه الآية إلى غلبته الشاملة على كل شيء؛ لأنه الصانع الذي أحكم وضع الأشياء في أنقن نظام، وأحسن مكان، بل ولقد أحكم هذا النظم بجمله وآياته، وفواصله وغاياته، ناهيك عن تحرير معانيه، وتنزيله جواباً لما كانوا يعتنون به، فصار بذلك معجزاً في نظمه ومعناه، وإنزاله طبق أجوبة الوقائع على ما اقتضاه الحال، وهذا هو عين افتتاح السورة. قال تعالى: ﴿حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾^(٣).

وفي ذلك يتابع الإمام البقاعي قائلاً: وبهذا فقد انطبق آخرها على أولها بالصفيتين المذكورتين (العزة والحكمة)، وبالحث على الاعتبار بآيات الخافقين، والتصريح بما لزم ذلك من الكبرياء المقتضية لإزالة الأعداء، وإعزاز الأولياء^(٤).

وقريب من هذا أيضاً، قوله تعالى في ختام سورة الحشر: ﴿يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾^(٥)، وافتتاحها بقوله تعالى: ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾^(٦).

نلاحظ أن سورة الحشر قد اختتمت بالتسبيح، كما أنها قد افتتحت به أيضاً مع ختم كل من البداية والنهاية بهذين الوصفين الكريمين وهما: (العزة والحكمة)، وفي ذلك يقول الإمام

(١) انظر البقاعي، المصدر نفسه، ٣٢١/٢٢.

(٢) الجاثية: ٣٧.

(٣) الجاثية: ١-٢.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١١٧/١٨.

(٥) الحشر: ٢٤.

(٦) الحشر: ١.

البقاعي: "وقد انعطف على افتتاحها ختامها، وعانق ابتداؤها تمامها، ووفى مطلعها مقطعها، وزاد وبلغ الغاية من الإرشاد إلى سبيل الرشاد، فسبحان من أنزله برحمته رحمة للعباد، وهادياً إلى الصواب والسداد"^(١).

وأما المثال الأخير: فهو مع سورة الممتحنة، حيث اختتمت بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْغُوا الْكُفَّارَ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾^(٢). أي إن الله عز وجل قد نهى عن تولي من هذه صفته، حتى لا يكون بينه وبينهم ما بين الصديق القريب وصديقه، فإن توليهم في كل زمان وفي كل مكان، ضرر مؤكد، من عند الله - فضلاً عن معاينته على أرض الواقع - لا نفع فيه، إذ إن من غضب عليه الملك الشهيد لا يفلح هو، ولا من تولاه. وأقل ما في ولايته من الضرر: انقطاع المعاونة بينهما، والمشاركة بالموت، وإذا كان بعد الموت مشاركة، ففي العذاب الدائم المستمر الذي لا ينقطع عنهم، والخزي الملازم لهم. وبهذا يكون هذا الآخر هو أولها، وهذا الموصل هو مفصلها^(٣) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ... تَسْرَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٤).

هذا ما أردت تبيانه من التناسب القائم على أساس المعنى أو اللفظ في رد الإمام البقاعي للأخر على الأول، وللمقطع على المطلق، وهو كما أشرت على درجة عظيمة من الكثرة في الجانب المعنوي، لكنه قليل من جهة الارتباط اللفظي. فسبحان من أنزل كتابه معجزاً حكيماً، وقرآناً موجزاً جامعاً عظيماً.

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٤٨٢/١٩.

(٢) الممتحنة: ١٣.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٥٢٨/١٩.

(٤) الممتحنة: ١.

المطلب الرابع: التناسب بين مجموعة سور:

ومن المحاولات اللطيفة التي عرض لها الإمام البقاعي في تفسيره، وقوفه على التناسب القائم بين مجموعة من السور. وقد تتبعت هذه المحاولات فألفيتها تقوم على تأثر واضح بالعلوم المنطقية السائدة آنذاك، فضلاً عن كونها صفة غلبت على كثير من مصنفات المتأخرين. ولما كان الحديث في بداية هذا المبحث عن الوحدة الموضوعية - عند الإمام البقاعي - بين نجوم السورة الواحدة، فقد رغبت في ختم هذا المبحث بالوحدة الموضوعية - عند البقاعي - بين مجموعة من السور، والتي جعلتها تحت عنوان: التناسب بين مجموعة سور، وإن كان هذا المطلب لم يشع، ولم يطرد شيوخ المطالب الأولى واطرادها، إلا أنه - كما صرح بذلك البقاعي - قابل للتعميم من أول الكتاب إلى آخره.

ومن ذلك: التناسب القائم بين سورة الأعراف، وسورة الأنفال، وسورة التوبة (غزو الروم)، وسورة يونس؛ إذ لما تقدم في أول الأعراف الحث على إيلاغ النصيحة، والتذكير بهذا الكتاب ذي القدسية الربانية، وما كان من حث القوم على اتباعه دون غيره، مع النهي الجازم عن اتخاذ أي ولي من دون الله. ثم ما كان من توجيه وإرشاد، إلى الاعتبار بأحوال السابقين الذين عصوا ولم يتبعوا، بله التحذير التام من مثل وقائعهم، ونتيجة أعمالهم، قال تعالى: ﴿المص، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء، قليلاً ما تذكرون، وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون، فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين، فلنساءن الذين أرسل إليهم، ولنساءن المرسلين، فننقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾^(١). وكذلك ما استتبع هذا من توصيل القول في ترجمة هذا النبي مع قومه في أول أمره من الانتصارات، وحديث الأنفال والصدقات، وفي أثناءه وما كان بعد ذلك من أمر المنافقين، وترتيب مسالك الدعوة وتنظيمها، إلى أن ختم سبحانه وتعالى أمر الدعوة بأن توجهها بسورة براءة، المبرئة من المنافقين الكافرين، وما كان فيها من كشف تام لأحوال هؤلاء، وبالتالي التعامل معهم بالكيفية التي رسمتها سورة التوبة؛ سورة العذاب. على أن كل ما ذكرت ما هو إلا ترجمة لحال النبي صلى الله عليه وسلم - كما يقول الإمام البقاعي -: أول أمره وفي أثناءه ومنتهاه^(٢).

(١) الأعراف: ٧-١.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢١٦/٨-٢١٧/٨، ٣٥١-٣٥٠/٨، ٣٥٨-٣٦١.

ولتفصيل ذلك أقول: لقد ختم سبحانه وتعالى ما تقدم بأن سور هذا الكتاب تزيد كلاً مما هو ملائم له، ومتهيئ لقبوله، مع إبعادها له عن نقيض ذلك. كما وتشير -بذلك- إلى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد جمع من الأوصاف والأخلاق العلية ما يوجب الإقبال عليه، والإسراع إليه، مع التتويه والإخبار بأن توليهم عنه لا يضره شيئاً؛ لأن ربه كافيه، فهو وحده القادر على كل شيء، وهو رب العرش العظيم.

﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾^(١). ولما كان ذلك كذلك، فقد أعاد سبحانه القول في شأن الكتاب الذي افتتح به الأعراف^(٢)، وختم به سورة التوبة^(٣)، وكان أن زاده في سورة يونس -التالية للتوبة- بوصف الحكمة، وعلو الرتبة، وبعد المنال. فقال سبحانه مكرراً ومضيفاً إلى ما تقدم؛ من قبيل التأكيد التام بعد أن بلغ وحذر: ﴿الر، تلك آيات الكتاب الحكيم، أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾^(٤).

وبهذا يكون الإمام البقاعي قد أقام علاقة تناسبية بين أربع سور؛ الأعراف والأنفال والتوبة ويونس، أحسب أن من أساسها: التكرار القائم على الوصف بعد الإبلاغ والتحذير، إضافة إلى ما تخلل ذلك من شرح وربط وتحليل^(٥). ومن بديع هذا اللون أيضاً: ما أقامه الإمام البقاعي على أساس من التكميل المستند إلى الوصف بعد إظهار الدليل.

فقد وقف على سورة لقمان؛ السورة التي تعد حجر أساس في إثبات الحكمة للكتاب، اللازم منه حكمة منزله سبحانه في أقواله وأفعاله:

﴿الم، تلك آيات الكتاب الحكيم، هدى ورحمة للمحسنين، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾^(٦). وقف على هذه السورة، وبين أن قصة لقمان: فيها دليل واضح على ما سبق وذكرت؛ فكانه سبحانه وتعالى لما أكمل ما أراد من أول القرآن إلى آخر براءة؛ التي هي

(١) التوبة: ١٢٩.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿المص، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء، قليلاً ما تذكرون﴾ الأعراف: ١-٣.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة... لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾، التوبة: ١٢٤-١٢٨.

(٤) يونس: ١-٢.

(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٦٢/٩-٦٣.

(٦) لقمان: ١-٥.

غزو الروم وكان سبحانه قد ابتدأ القرآن، بعد أم القرآن بنفي الريب عن هذا الكتاب، وأنه هدى للمتقين^(١). وكان أن دلل سبحانه على ذلك في آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة- ابتدأ سورة يونس التالية لما تقدم من أدلة بعد سورة غزو الروم (التوبة) بإثبات حكمته «الر، تلك آيات الكتاب الحكيم»^(٢). ثم أتبع سبحانه وتعالى ذلك دليلاً، إلى أن ختم سورة الروم. هذا وبعد كل ما تقدم ابتدأ سبحانه وتعالى دوراً جديداً على وجه ربما يكون أضخم من الأول، حيث وصف سبحانه وتعالى كتابه في أول سورة لقمان التالية لسورة الروم بما وصفه به في سورة يونس التالية لغزو الروم (التوبة) أيضاً فقال:

«الم، تلك آيات الكتاب الحكيم، هدى ورحمة للمحسنين»^(٣). وذلك الوصف هو: الحكمة، وزاد في هذه السورة أنه هدى وهداية للمحسنين^(٤). وبعبارة أخرى: فإنه - سبحانه وتعالى - قد افتتح سورة البقرة بالإقرار والإخبار، ثم دلل على ذلك بمجموعة من السور، كان ختامها سورة غزو الروم؛ سورة التوبة. ثم ناظر بين ما تقدم، وبين سورة يونس وما يليها؛ فمطلع سورة يونس كأنه مطلع سورة البقرة إذ إن فيه إقراراً وإخباراً بوصف هذا الكتاب، والإشارة إلى حكمته: «الر، تلك آيات الكتاب الحكيم»^(٥). وما يلي سورة يونس؛ المناظرة لسورة البقرة من هذه الجهة، هو عينه ما يلي سورة البقرة، وخاصة أن ختام التذليل الثاني (على سورة يونس) هو سورة الروم، وهي بذلك مناظرة لسورة غزو الروم (سورة التوبة) في كثير من معانيها أيضاً.

هذا وبعد ما تقدم، شرع سبحانه وتعالى في دور آخر، لعله كما قال الإمام البقاعي على وجه أضخم مما ابتدأ به في مطلع سورة البقرة، حيث وصف سبحانه وتعالى كتابه في سورة لقمان؛ وهي التالية لسورة الروم؛ المناظرة لسورة يونس، إذ إنها بعد سورة غزو الروم (سورة التوبة)، وصفه بما وصفه أول سورة يونس، لكن مع إضافات جعلتها أعظم استفتاحاً من سورة يونس.

هذا ولم يكتف الإمام البقاعي بما تقدم فقط، بل ناظر بين سورة آل عمران وهي التالية لسورة البقرة، التي أثبت فيها إنزال القرآن بالحق - ناظر بينها وبين سورة السجدة - التالية لسورة لقمان - التي أثبت فيها أيضاً إنزال القرآن بالحق، مع نفي الريب عن كونه من

(١) إشارة إلى قوله تعالى: «الم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» البقرة: ١-٥.

(٢) يونس: ١.

(٣) لقمان: ١-٣.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٤٠/١٥.

(٥) يونس: ١.

عند الله - عز وجل - إلى أن قال الإمام البقاعي: "واستمر سبحانه فيما بعد هذا من السور مناظراً في الأغلب لما مضى، كما يُعرف ذلك بالإمعان في التذكر والتأمل والتدبر"^(١).

وبهذا يكون الإمام البقاعي قد وقف هنا على ثلاث محطات رئيسة هي: سورة البقرة، وسورة يونس، وسورة لقمان، ثم حاول وبأسلوب منطقي عقلي أن يجري مقارنات بلاغية، قوامها إظهار التناسب بين السور الثلاثة المذكورة، ثم ما يلي كل حسب المقصد والموضع. وهي لفئة بديعة، ومحاولة لطيفة منه في هذا المقام. إلا أن أوضحها ما جاء في ختام تفسيره حيث قال مصرحاً: "وكما التقى آخر كل سورة مع أولها فكذلك التقى آخر القرآن العظيم بأوله بالنسبة إلى تسع سور هذه أولها"^(٢)؛ -يعني سورة قريش-.

فلقد أخذ الإمام البقاعي، بدءاً بهذه السورة؛ سورة قريش إلى سورة الناس يناظر بينها، وبين ما يقابلها من مطلع كتاب الله - عز وجل - معتمداً في ذلك كله على المقصد، والهدف الذي ترمي إليه السورة موضوع المقارنة، وكذلك على ترتيبها ومنزلتها الرقمية من آخر الكتاب وأوله.

مثال ذلك: سورة "الماعون": رقمها من نهاية المصحف عدداً ثمانية، يناظرها من بداية المصحف عدداً أيضاً: الأنفال.

وبالعودة إلى سورة قريش يتبين أن حاصل هذه السورة - كما ذكر - هو المن على أهل مكة بالإعانة على المتجر إيلافاً لهم بالرحلة فيه، والضرب في الأرض بسببه، وكذلك اختصاصهم بعبادة الذي من عليهم بالبيت الحرام، وجلب لهم به الأرزاق والأمان.

هذا ومن أعظم مقاصد سورة "التوبة" - المناظرة لسورة "قريش" كونها التاسعة من الأول - البراءة من كل مارق، وأن فعل ذلك - من البراءة التي فصلها سبحانه وتعالى - سيكون سبباً للألفة بعد ما ظن البعض أنه سبب للفرقة. وكذلك ذكر مناقب البيت ومن يصلح لخدمته، والفوز بأمانه ونعمته سبحانه، مع البشارة بالغنى على وجه أعظم من تحصيله بالمتجر وأبهي وأجل وأفخر.

قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون... فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾^(٣).

وقال أيضاً:

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ١٤٠/١٥.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٦٧/٢٢.

(٣) التوبة: ١٧-٢٤.

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عينةٌ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء، إن الله عليم حكيم﴾^(١).

يقول الإمام البقاعي: وبهذه المشابهة بين سورة "قريش" وسورة "التوبة" يعلم ما في رد المقطع على المطلع من بلاغة، فلقد شابها بين سورة "التوبة" سورة "قريش"؛ سورة القوم الذين أكرمهم الله بأن أنزل القرآن بلسانهم، وأرسل نبيه؛ محمد -صلى الله عليه وسلم- من بينهم. إضافة إلى إكرامهم بالبيت الحرام وما كان من شأنه وشأنهم فيما يتعلق بغناهم وأمانهم^(٢). وليس هذا فحسب بل: "ومن أعظم المناسبات في ذلك كون أول السورة التي أخذ فيها في رد المقطع على المطلع شديد المشابهة للسورة المناظرة لها، حتى إن في كل منهما مع التي قبلها كالسورة الواحدة"^(٣).

يعني الإمام البقاعي بهذا كما صرح به لاحقاً: أن "براءة" و"الأنفال" كالسورة الواحدة. يقول بعد هذا "ومن أغرب ذلك أن السورتين اللتين قبل سورتي المناظرة^(٤) بين أمريهما طباق؛ فالأولى في الآخر، وهي الفيل أكرم الله فيها قريشاً بإهلاك أهل الإنجيل، والأولى في الأول، وهي: الأنفال، أكرمهم الله فيها بنصر أهل القرآن عليهم بإهلاك جبابرتهم، فكان ذلك سبباً لكسر شوكتهم، وسقوط نخوتهم، المفضي إلى سعادتهم، وعلم أيضاً أن البراءة وغيرها إنما هي عمل لإكرامهم؛ لأنهم المقصودون بالذات، وبالقصد الأول بالإرسال والناس لهم تبع، كما أن جميع الرسل تبع للرسول الفاتح الخاتم الذي شُرِّقوا بإرساله إليهم -صلى الله عليه وسلم-"^(٥).

وأما بالنسبة إلى سورة "الماعون" فقد التقت كلها مع مناظرتها في العدد من أول القرآن، إذ إن حاصل سورة "الماعون" هو: الإبعاد عن سفاسف الأخلاق ورديها ودنيها، من التكذيب بالجزاء الذي هو حكمة الوجود، المثمر للإعراض عن الوفاء بحق الخالق، وطاعة الخالق، والانجذاب مع النقائص، إلى الاستهانة بالضعيف الذي لا يستهين به إلا أنذل الناس وأرذلهم، وكذلك الرياء الذي لا يُلْمُ به إلا من كان في غاية الدناءة فكان ذلك موجبا للميل إلى أعظم الويل، وفي ذلك أعظم مرغب في معالي الأخلاق التي هي أضداد ما ذكر في السورة.

(١) التوبة: ٢٨.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٢٦٧-٢٦٨.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٢٦٨.

(٤) يعني سورتي: الفيل والأنفال: فالأول قبل سورة قريش، والثانية قبل سورة التوبة.

(٥) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٢٦٩.

على أن كلا الأمرين موجود في "الأَنْفَال" المناظرة لها في رد المقطع على المطلع على أتم وجه^(١):

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٢).

وقال: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣).

وقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَةً، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(٤).

وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ؛ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥).

وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(٦).

ربما يلحظ القارئ ما في هذه الآيات من تربية أخلاقية تناسب تماماً كما في سورة "الماعون"، على أن جماع ذلك كله هو استحضار آيات سورة "الماعون"، ثم قراءة ما نكرت من آيات "الأَنْفَال"، وذلك بتوقف وتؤدة ليصل إلى عمق هذا القرآن التناسبي، الذي استرسل فيه الإمام البقاعي من لدن سورة "قريش" إلى سورة "الناس"، وما يقابل ذلك من "الْفَاتِحَةُ" إلى سورة "التَّوْبَةُ"^(٧).

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٢٨٣-٢٨٤.

(٢) الأَنْفَال: ٣-٤.

(٣) الأَنْفَال: ٣٢.

(٤) الأَنْفَال: ٣٥-٣٦.

(٥) الأَنْفَال: ٤١.

(٦) الأَنْفَال: ٤٧.

(٧) أكتفي بالمثالين الآتفي الذكر، على أن تمة ما تقدم هو على النحو التالي:

- "الكوثر" تناظر "الأعراف": (البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٢٩٣).

- "والكافرون" تناظر "الأَنْفَال": (البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٣٠٩-٣١٠).

- "والنصر" تقابل "المائدة": (البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٣٢١-٣٢٣).

- "والمسد" تقابل "النساء": (البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٣٤٣).

- "والإخلاص" تقابل "آل عمران": (البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٣٨٤-٣٨٥).

- "والفلق" تناظر "البقرة": (البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢/٤١٨-٤١٩).

ومن الجدير بالذكر أن الإمام البقاعي وقف على فن فأقام جميع أعمدته تقريباً، فقد كان رحمه الله لا يترك فرصة يشعر أنها تسند النظم أو التناسب إلا جاء بها على خير وجه وأتمه. وما ذكرت أخيراً لهو خير شاهد على عنايته بهذا اللون من البلاغة، وبالوحدة الموضوعية لسور القرآن مهما تباعدت في ترتيبها.

الفصل الثالث

التناسب وبعض الظواهر السياقية
في الخطاب القرآني:
"دراسة تطبيقية"

— وفيه ستة مباحث —

المبحث الأول: التناسب في الترتيب أو التقديم والتأخير.

المبحث الثاني: التناسب في الحذف والذكر.

المبحث الثالث: التناسب في التكرار.

المبحث الرابع: التناسب في التنكير والتعريف.

المبحث الخامس: التناسب في الإفراد والجمع.

المبحث السادس: التناسب بين اللفظ والمعنى.

التناسب وبعض الظواهر السياقية في الخطاب القرآني: "دراسة تطبيقية"^(١)

نتعرف في هذا الجزء من الرسالة على نظرة الإمام البقاعي للأسلوب القرآني، وذلك من خلال تناوله لبعض الظواهر السياقية في هذا الخطاب. فقد انفرد الأسلوب القرآني بطريقة خاصة في إفادته للمعاني؛ طريقة قوامها: الجدة والوجازة والتنوع والتلاوم؛ التلاوم من جهة الموضوع والمخاطب والمخاطب. وبعبارة القديس: التناسب بين المقال والمقام. هذا التناسب ونظرة الإمام البقاعي له، سنتعرف إليه من خلال مجموعة من الظواهر السياقية؛ الترتيب أو التقديم والتأخير، الحذف والذكر، التكرار، التأكيد والتعريف، الإفراد والجمع، اللفظ والمعنى.

المبحث الأول: التناسب في الترتيب أو التقديم والتأخير:

يعد مبحث الترتيب أو التقديم والتأخير من المباحث الواسعة التي كتب فيها الباحثون وما زالوا، وذلك لما ينطوي تحته من فروع وجزئيات يدرسها كل حسب تقسيم؛ في الغالب يقوم على: التقديم بين جزئي الجملة، والتقديم في المتعلقات، ويقسم الأول إلى تقديم المسند إليه؛ الاسم على الفعل، والاسم على المشتق. وفي الثاني: يدرس الباحثون تقديم المتعلقات على العامل، وتقديم بعض المتعلقات على بعض، إلى غير ذلك من التقسيمات الكثيرة^(٢). وذلك لما لهذا المبحث من فوائد باقية ومتجددة أمام أصحاب الحس المرهف والذهن الثاقب، ورغم كل هذه الجهود فإن المكتبة العربية مازالت تعاني من نقص حقيقي في هذا الاتجاه. وعليه سيكون لسي في هذا المقام وقفة متأنية مع الإمام البقاعي في تناوله لهذا المبحث، وما أضافه رحمه الله عليه من لمسات بلاغية لطيفة، تصلح لأن يتخذ منها الباحثون المحدثون أصلاً لكثير من الدراسات الأسلوبية المعاصرة.

(١) انظر الحديث عن الأسلوب القرآني، والسياق وتعريفاته من: الرفاعي تاريخ أدب العرب، ٢/ ١٨٨-٢٥٧، وعبد الجليل، لغة القرآن الكريم، ص: ٢٨٧ وما يليها وكذلك: فضل عباس، البلاغة فنونها وأبنائها: علم المعاني، ص: ٦٥-٧٠.

(٢) انظر: أبو موسى، البلاغة العربية، ص ٣٢٤-٣٤٨. وانظر أيضاً: خلدون صبح، التقديم والتأخير في القرآن لتكريم. لقد عرض أغلب من كتب في علوم القرآن وإعجازه إلى أساليب القرآن لتكريم، وبالضرورة فإن التقديم والتأخير - وغيره مما سأذكر - أحد هذه الأساليب.

فقد رأيت الإمام البقاعي - ويتبعني الطويل لكثير من وجوه التناسب القرآني في تفسيره
بعامة - يعتمد المقام أساساً ومفتاحاً رئيساً لتأويل أي تناسب في الترتيب أو التقديم والتأخير.
ومن جهة أخرى، فقد ناظر البقاعي بين كثير من الآيات، التي يكتنفها التقديم والتأخير،
وسأقف والقارئ الكريم معي، على كل ما ذكرت - إن شاء الله تعالى -.

١ - الترتيب في النعم

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون،
الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً
لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾^(١).

نلاحظ في هذه الآية ترتيباً؛ من جهة التقديم والتأخير في الرتبة بين مجموعة من
الكلمات، إذ لما سبق الحديث قبل هاتين الآيتين عن المؤمنين والكافرين والمنافقين، وذكر
صفاتهم وأحوالهم، وما اختص به كل منهم، أقبل سبحانه وتعالى على عباده ملتفتاً إليهم، بما
يدعو هزهم والتأثير فيهم، طالباً منهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا معه أحداً، مذكراً إيهم
بمجموعة نعم، رتبها لهم في تسلسل منطقي يناسب ما طلب منهم التفكير فيه؛ فقدم الإنسان ثم
الذي قبله، ثم الأرض، فالسماء، فالماء وما يخرج بسببه، يقول الإمام البقاعي: 'وربت هذه النعم
الدالة على الخالق الداعية إلى شكره أحكم ترتيب؛ فقدم الإنسان لأنه أعرف بنفسه، والنعمة عليه
أدعى إلى الشكر، وثى بمن قبله لأنه أعرف بنوعه، وثالث بالأرض لأنها مسكنه الذي لا بد له
منه، ورتب بالسماء لأنها سقفه، وخمس بالماء لأنه كالأثر والمنفعة الخارجة منها، وما يخرج
بسببه من الرزق كالنسل المتولد بينهما'^(٢).

٢ - الترتيب في أحوال النفس

قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم
لنفسه، ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير﴾^(٣).

في هذه الآية حديث عن ظالم لنفسه، ومقتصد، وعن سابق بالخيرات وغيره، فما هو
التناسب القائم بين هذا الترتيب، أو ما التناسب القائم بين الختم بالسابقين ومقام الحديث في هذه
السورة؟ يجيب الإمام البقاعي: 'وختم سبحانه وتعالى بالسابقين لأنهم الخلاصة، وليكونوا أقرب

(١) البقرة: ٢١-٢٢.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١/١٤٦-١٤٧، وانظر أيضاً: إشارته إلى ترتيب النعم في سورة "الرحمن"
وتناسبها مع مقامها ١٩/١٥٤-١٥٥، ١٩٣/١٩.

(٣) فاطر: ٣٢.

إلى الجنات، كما قدم الصوامع في سورة الحج لتكون أقرب إلى الهدم، وأخر المساجد لتقارب الذكر^(١)، وقدم في التوبة السابقين عقيب أهل القربات من الأعراب، وأخر المرجنين، وعقبهم بأهل مسجد ضرار^(٢)، وقدم سبحانه في الأحزاب المسلمين ورقى الخطاب درجة درجة إلى الذاكرين الله كثيراً^(٣). فهو سبحانه تارة يبدأ بالأدنى، وتارة بالأعلى بحسب ما يقتضيه الحال كما هو مذكور في هذا الكتاب في محالته^(٤).

إن نظرة متأنية في هذا الجواب، لتكشف لنا عن كثير من معالم منهج البقاعي في علم التناسب؛ فقد ضم النص بين ثنياه إشارات واضحة -تمثلت فيما ذكر من إحالات- إلى وحدة القرآن بسوره وآياته، وحتى جملة وكلماته كما تقدم؛ الأمر الذي سوّغ للإمام البقاعي أن يُخرَج ما فيه -رما في غيره مما سبقه هنا- من عطف ترتيبي قائم على التقديم والتأخير، بطريقة أسلوبية تناسبية، محفوفة بالروح البلاغية من جميع جوانبها، كساؤها في ذلك كله نهجاً ترابطي فريد، ذو اعتماد تام على المقام وما يناسبه.

٣ - الترتيب في الحكم

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين... يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾^(٥).

يرى الإمام البقاعي أن ما في هذه السورة من حكم قد جاءت في أبداع ترتيبي، وأحسن تنظيم، فأنه سبحانه وتعالى قد أمر بالنتبث أولاً، وكان ربما أحدث ضغينة، فنهى عن العمل بموجبه من السخرية واللمز والتماذي، مع ما ينشره ذلك من الظنون. لكن إن أبست النفس إلا تمانياً وظناً، فلا بد ألا يصل هذا إلى التجسس، والبحث عن المعيب. فإن قدر الله، وحصل الاطلاع، فلا مناص عندها من الكف عن الذكر، والسعي الحثيث وراء الستر، مع التنبه إلى أن مقصود ذلك كله هو خشية الله وحده. وبالتالي فإن وقع المرء في شيء من ذلك، بادر المتاب وارْتَقِب -إن شاء الله- الثواب من عند الله^(٦).

(١) إشارة إلى آية (٤٠) من سورة الحج، انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٥٧/١٣.

(٢) إشارة إلى آية (١٠٦-١٠٧) من سورة التوبة، انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٤/٩-١٦.

(٣) إشارة إلى آية (٣٥) من سورة الأحزاب، انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٥١/١٥-٣٥٣.

(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ٥٦/١٦.

(٥) الحجرات: ٦-١٢.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٨٠/١٨.

هذه ثلاثة أمثلة، مختارة من سورة "البقرة" و"فاطر" و"الحجرات" جعلتها على هيئة تقديم وتمهيد، أمام الحديث التفصيلي عن مبحث الترتيب أو التقديم والتأخير.

فلقد وقف الإمام البقاعي على كثير من ترتيب القصص القرآني، وعلى كلمات قدمت في آيات، وأخرت في أخرى، ثم على تقديم وتأخير في بعض "الفواصل" والظروف، وجلى لنا - رحمه الله - ما توصل إليه من وجوه التناسب البلاغي في ذلك، وقد جعلت هذا الحديث في ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: الترتيب في القصص القرآني

إذا رجعنا إلى سورة "الشعراء"، نلاحظ أن فيها حديثاً طويلاً -نسبياً- عن قصص الأنبياء مع أقوامهم. حيث بدأت السورة باستعراض قصة موسى، ثم قصة إبراهيم، ثم قصة نوح، ثم قصة هود فصالح، إلى أن ختمت بقصة لوط، وقصة أصحاب الأيكة، على رسولنا وإخوته أفضل الصلاة وأتم التسليم. ومما يستدعي الانتباه في هذا المقام، تقدم قصة موسى -عليه السلام- على قصة إبراهيم، وعلى قصة نوح، وقصة عاد عليهم السلام، مع أن الترتيب الزمني غير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبِّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ...﴾^(١).

لقد وقف الإمام البقاعي على جميع هذه الآيات، التي ما ضربت إلا لأمة محمد، ولنبيهم - صلى الله عليه وسلم - تسلية لما يقاسيه من الأذى والتكذيب. وقد اعتمد البقاعي في تجليته لهذا التناسب الترتيبي على الهدف الرئيسي من وراء ضرب هذه القصص. إذ إن التسلية بموسى وإبراهيم عليهما السلام أم؛ لما لهما من انقرب والمشاركة في الهجرة، والقصد إلى الأرض المقدسة، وكذلك اختصاص موسى عليه السلام بالكتاب الذي ما بعد القرآن مثله، وكثرة الآيات التي أتى بها، وإقرار عينه بهداية قومه، وسياسة الأنبياء المجددين لشريعته و عدم استنصاتهم بالعذاب، والانتقام بأيديهم من جميع أعدائهم، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التي شابهوا بها هذه الأمة^(٢)، ناهيك عن مجاورتهم للعرب حتى في دار الهجرة، وموطن النصر. يقول الإمام

(١) لشعراء: ١٠-٦٨.

(٢) وبعبارة أخرى: لما نكر الحق تبارك وتعالى تكذيب قريش لما جاءهم من الحق وإعراضهم عنه، نكر قصة موسى عليه السلام وما قاسى مع فرعون وقومه؛ ليكون ذلك مسلاة لما كان يلقاه عليه للصلاة والسلام من كفار قريش؛ فقريش اتخذت أنه من دون الله، وكان قوم فرعون قد اتخذوه إلهاً، وكان أتباع ملة موسى عليه السلام هم المجاورون من آمن بالرسول -صلى الله عليه وسلم- وعليه فقد بدأ الحديث بقصة موسى عليه السلام. انظر البقاعي، المصدر نفسه، ١٤٢/٨. وانظر أيضاً: أبو حيان، المصدر نفسه، ١٤٢/٨.

البقاعي بعد ما تقدم: ليكون في إقرارهم على ما يسمعون من أخبارهم أعظم معجزة، وأتم دلالة، فقدمها مقدماً لموسى عليه السلام والتحية والإكرام^(١).

ثم أتبع سبحانه وتعالى قصة موسى بقصة إبراهيم عليهما السلام: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم...﴾^(٢).

إذ لما أتم سبحانه ما أراد من قصة موسى أتبعه دلالة على عظم رحمته بقصة إبراهيم عليهما السلام؛ وذلك لما تقدم من مشاركة في التسليّة، حيث وقع لقومه من التعنتات الشيء الكثير، ولما اختص به أيضاً من مقارعة أبيه وقومه في عبادتهم للأوثان، التي هي معبود العرب آنذاك، هذا فضلاً عن كون إبراهيم - عليه السلام - أعظم آباء العرب؛ ليكون ذلك حاملاً لهم على تقليده في التوحيد، إن كانوا لا ينفكون عن التقليد، ولما في ذلك أيضاً من زجر بليغ عن استعظامهم لفعل آباؤهم في عبادتهم، التي حاربها سيدنا إبراهيم عليه السلام^(٣).

ثم أعقب ذلك سبحانه وتعالى بقصة نوح عليه السلام: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين...﴾^(٤).

يقول الإمام البقاعي: «ولما أتم سبحانه قصة الأب الأعظم الأقرب، أتبعها - دلالة على وصف العزة والرحمة - قصة الأب الثاني، مقدماً لها على غيرها، لما له من التقدم في الزمان؛ إعلماً بأن البلاء قديم؛ ولأنها أدل على صفتي الرحمة والنقمة التي هي أثر العزة، بطول الإملاء لهم على طول منتهم، ثم تعميم النقمة مع كونهم جميع أهل الأرض»^(٥).

ثم لما كان كأنه قيل بعد قصة قوم نوح: إن هذا الأمر هائل، في مثله موعظة، فما فعل من جاء بعدهم؟ هل اتعظ؟! أجيب بقوله دلالة على الوصفين معاً: ﴿كذبت عاد المرسلين...﴾^(٦). وهكذا، فقد حاول الإمام البقاعي أن يقف على العناصر المشتركة بين هذه القصص، وبالتالي قربها وبعدها من حيث، الوعظ والتسليّة لهذه الأمة، ولنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم -، وما كان أثناء ذلك من ترتيب تتاسبي بليغ؛ قدمت فيه قصة موسى، ثم وليها الحديث عن قصة إبراهيم فنوح... الخ.

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ١٤/١٣-١٤.

(٢) الشعراء: ٦٩-١٠٤.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٦/١٤-٤٧.

(٤) الشعراء: ١٠٥-١٢٢.

(٥) البقاعي، المصدر نفسه، ٦١/١٤.

(٦) الشعراء: ١٢٣-١٤٠.

ومن هذا الوادي أيضاً: وقوف الإمام البقاعي على التناسب المتمثل في تعقيب قصة نوح بقصة عاد - على رسولنا، وعليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم - في سورة القمر.

قال تعالى: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكنبوا عبدنا وقالوا مجنون وازجر... كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر﴾^(١).

فقد وقف الإمام البقاعي على هذه القصة؛ أعني قصة عاد، يبين ما فيها من تناسب مع التي قبلها، معتمداً في ذلك على ما فيها من عبر وعظات تجعلها أنسب من غيرها في هذا السياق الدعوي القصصي، القائم على ذكر ما حل بالأمة السالفة ممن كذب وعصى؛ ليكون في ذلك كبير عظة وحسن اعتبار لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد من هذه الأمة.

يقول الإمام البقاعي: "ولما انقضت قصة نوح عليه السلام على هذا الهول العظيم، كان ذلك موجباً للسامع أن يظن أنه لا يقصر أحد بعدهم، وإن لم يرسل برسول فكيف إذا أرسل، فتشوف إلى علم ما كان بعده هل كان كما ظن، أم رجع الناس إلى طباعهم؟ وكانت قصة عاد أعظم قصة جرت بعد قوم نوح عليه السلام فيما يعرفه العرب فيصلح أن يكون واعظاً لهم، وكان عذابهم بالريح التي أهلكتهم، ونسفت جبالهم التي كانت في محالهم من الرمال المتراكمة، فنقلها إلى أمكنة أخرى أقرب لليل إلى أنه تعالى يسير الجبال يوم الدين، هذا إلى ما في صفها الخارج عن العوائد من تصوير النفخ في الصور تارة للقيامة وتارة للأحياء"^(٢).

وهكذا فقد تجلت العناية التناسبية للإمام البقاعي في وقوفه على لطائف بلاغية منبعثة من شأيا الترتيب القصصي، حيث اعتمد الهدف والسياق في تخريجه لهذه النكات البلاغية^(٣).

المطلب الثاني: كلمات قُدمت في آيات و أُخرت في أخرى

أدرس في هذا المقام مثاليين مطوَّكين؛ أتناول في الأول تأويله للتناسب القائم بين ترتيب كلمات مثل القلب والسمع والبصر. وفي الثاني كلمات مثل: الأبوة، والبنوة والأخوة وغيرها من قرابات النسب، وكل ذلك من خلال الآيات وتحليلها، مع رد في الثاني على ما جاء عند الأستاذ عفت الشرفاوي، في كتابه الموسوم بـ 'بلاغة العطف في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية'.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾^(٤).

وقال في سورة الإسراء:

(١) للقمر: ٩-١٨.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١١٣/١٩-١١٤.

(٣) انظر على سبيل المثال أيضاً في مناسبة ترتيب القصص: ٣٦٧/٩-٣٦٨.

(٤) البقرة: ١٨.

﴿ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ملأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾^(١).

نرى في هاتين الآيتين تقديماً وتأخيراً على وجه يختلف عن الآخر؛ ففي آية سورة البقرة نرى السمع أولاً ثم النطق ثم البصر. وفي سورة الإسراء يتقدم البصر على الجميع، ثم يليه النطق، ثم يُختم الأمر بالسمع فأى وجه للتناسب في ذلك؟!

قلت إن الإمام البقاعي يتميز بعرضه للأية وإظهار ما فيها من تناسب، ثم مقارنتها مع شبيبتها أو مع أخواتها، وإن تفرقت في سور مختلفة، لأن القرآن - كما نعلم - منظوم بأياته وكلماته وأصواته في عقد لؤلؤي فريد، فبين الآية وأخواتها من الآيات، أي نزلت تلك الآية يبقى التناسب قائماً، لكنه قد يتضح وقد يخفى. المهم أنه لا ينعدم أبداً بحال من الأحوال.

يقف البقاعي بحسب المرفف، وذهنه الثاقب على آية "البقرة"، ليرى وجه التناسب الذي جعل كلماتها تختلف في ترتيبها عن آية الإسراء، أو الثانية عن الأولى - فيتوصل إلى أن المقام هو العمدة في حل هذا الإشكال - إن جاز التعبير - إذ لما كان مقام آية البقرة: إجابة الداعي، وهذا لا يكون - بداهة - إلا بالسمع، حيث إنه الأساس في الاستقبال، لما كان ذلك كذلك نفاه، ثم ثنى بالقول؛ لأن الأصم قد يفصح عن مراده بالنطق وإن كان أصماً، لكن المرء قد يسلب منه السمع أو يختم عليه وكذلك النطق، ثم يكون بصيراً فيفهم بالإشارة؛ لذلك ختم سبحانه وتعالى ذلك بصفة "العمى"؛ ليكون الختم في مجال إجابة الداعي في غاية التمام.

وهذا بخلاف سورة الإسراء؛ إذ السياق فيها للانتقال من مكان إلى آخر؛ هداية وضلال وحشر؛ لذلك قدم البصر إذ هو أساس التنقل، وثنى بالنطق لأن الأعمى قد يسترشد به، وختم بالسمع لأنه كما يقول الإمام البقاعي: يمكن معه - وحده - نوع رشاد^(٢).

إذن هذا ما كان من تناسب عند الإمام البقاعي في ترتيب الكلمات الثلاث: العمى والبكم والصم في سورتي البقرة والإسراء، وسنرى لهذا مزيد إيضاح أيضاً في الآيات القادمة إن شاء الله تعالى.

فقد قال سبحانه وتعالى في سورة فاطر: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات، إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾^(٣).

نلاحظ أن في هذه الآيات تقديماً للعمى على البصر، وللظلمة على النور، وللظل على الحر، وللحي على الميت، فما وجه التناسب في هذا الترتيب؟

(١) الإسراء: ٩٧.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١/١٢١، ١١/٥١٧.

(٣) فاطر: ١٩-٢٢.

يرى الإمام البقاعي أن مقام هذه الآيات وسياقها هو وعظ المشركين، وبالتالي فإن المتنسي^(١) قبل المتزكي على ما قرّر قبل هذه الآيات. فتتظلم هذه الصفات على هذا الترتيب إنما هو مثال للكافر والمؤمن، والجاهل والعالم. ولكنه سبحانه وتعالى قدم مثال الجاهل؛ لأنه الأصل عند الإرسال، وأما الظلمة فقدت على النور، وذلك لأنها أشد إظهاراً لتفاوت البصر في هذا المقام. ولما كان الظلام ينشأ عن الظلال، وهو نسخ النور، قدمه سبحانه مثلاً للخير؛ لأن الرحمة سبقت الغضب، ثم كان تقديم الحياة كونها مظهرة لكل ما تقدم، إلى غير ذلك من التفصيلات التي أودعها البقاعي لمناسبة هذا الترتيب البديع^(٢).

بعد هذا الترتيب، أقف والقارئ في ختام هذا المثال المكبر على ما كان من قران ترتيبي بين القلب والسمع والبصر في آيتين من سورة البقرة، وآية من سورة الجاثية، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣).

وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٤).

نلاحظ أن الترتيب في آيتي البقرة غيره في آية الجاثية، أعني ترتيب الثلاثة التالية: القلب والسمع والأبصار فهي في آيتي البقرة على ما ذكرت، أما في آية الجاثية: فالسمع أولاً، ثم القلب ثم البصر فما وجه التناسب في ذلك؟!

يعتمد الإمام البقاعي كما ذكرت في غير ما موضع من هذه الدراسة على السياق والمقام اعتماداً رئيساً في تخريج أي وجه تناسب، فهو يرى أن الترتيب في آيتي البقرة قائم قبل ذلك على تسوية إنذار الكافرين وعدمه بالبهائم، فناسب أولاً الختم على القلب، لكن من ختم على قلبه قد يسمع أو يبصر وربما يفيد من ذلك فيهندي، ثم لما كان السمع أعم لأن المرء يسمع في النور وفي الظلام، بخلاف البصر فلا يكون إلا في الضياء، لذلك نفى سبحانه السمع عنهم، ثم البصر تسفيلاً لهم عن حال البهائم، بخلاف ما في الجاثية: فإنه لما أخبر فيها بالإضلال، وكان الضال أحوج إلى سماع صوت الهادي منه إلى غيره، نفاه فأصبح لا فهم له في الآيات المسموعة. ولما كان الأصم قد يفهم بالإشارة، فيعي ما من حقه وعيه قال: ﴿وَقَلْبِهِ﴾ فيبطل كل وعي يتعلق بذلك، على أن الأصم ولو كان مجنوناً- قد يبصر بعض مضاره ومنافعه فيباشرها مباشرة

(١) المتنسي هو المغوي. يقال: (نسي كسعى ضد زكا، ونسيه تسمية: أغواه، وافسده. انظر: القاموس، مادة (نسي).

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٥/١٦-٣٨.

(٣) البقرة: ٦-٧.

(٤) الجاثية: ٢٣.

البهائم؛ لذلك ختم سبحانه وتعالى بقوله: (وجعل على بصره غشاوة) فصار لا يبصر الآيات المرئية. وبالتالي فإن ترتيبها على هذا الأساس في غاية الروعة والجمال، وفيه من حسن التناسب ما فيه، فالترتيب في آيتي البقرة قائم على تسوية إنداز الكافرين وعدمه بالبهائم، وأما الترتيب في آية الجاثية فمبني على سياق الإضلال، فيكون فيه السمع أولاً لحاجته إليه أكثر من غيره ثم القلب ثم البصر؛ لشرف الفهم المتعلق بالقلب على بعض خصوصيات البصر، فقد يكون المرء ذا فهم مع غياب البصر، لكنه لا يكون بالضرورة ذا فهم مع وجود البصر^(١).

وفي المثال المكبر الثاني أوقف على آيات من سورة آل عمران، والتوبة، والمعارج، وعبس مع نقاش لما جاء عند الأستاذ الشرقاوي في كتابه 'بلاغة العطف'.

أفتتح هذا المثال بآيات سورة الأنعام التي بين الإمام البقاعي ما في ترتيبها من تناسب مع سياقها، حيث قدم سبحانه فيها الأعز الألتصق بالأكباد وختم بالمدافع على سبيل السترقي، إذا اعتبرنا أنه قدم الفرع ثم الأصل. حيث بدأ بالأدنى وختم بالأعلى^(٢).

قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، الحق من ربك فلا تكن من الممترين، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكافرين﴾^(٣).

لقد جعلت آيات "آل عمران" وما بيّنه الإمام البقاعي من تناسب ترتيبها في نفسها مطلعاً تمهيدياً للرد على الأستاذ الشرقاوي. ولكن يجدر بي قبل الشروع في الأمثلة والرد أن استسمح القارئ عذراً في البدء بـ "عبس"، فـ "المعارج"، فـ "التوبة" على خلاف ترتيبها المصحفي، وذلك تمشياً مع ذكرها عند الأستاذ الشرقاوي، حيث عرض لآيات هذه السور على الترتيب الذي ذكرت.

حاول الأستاذ عفت الشرقاوي أن يدرس العطف أسلوبياً على نهج حديث يحسب أنه تجديدي لم يعرض له القدماء، ثم بدأ دراسته -وليته توقف عند ما أعلن- فقد تجاوز إعلانه، ليرمى في كل صفحة من كتابه الموسوم بـ 'بلاغة العطف في القرآن الكريم': دراسة أسلوبية - بلاغة الجرجاني وغيره ممن جاء بعده، مع اعتذاره الدائم عن هذا الرمي أو القذف.

(١) انظر البقاعي، المصدر نفسه، ٩٧/١، ٩٧/١٨.

(٢) انظر البقاعي المصدر نفسه، ٤٤٢/٤-٤٤٣.

(٣) آل عمران: ٥٩-٦١.

عرف الأستاذ الشرقاوي دراسته هذه بقوله: "إنها محاولة أسلوبية جديدة للدخول في مباحث دلائل الإعجاز، من باب غير باب نظرية النظم التي ألح عليها الدارسون قرناً بعد قرن"^(١).

لما قرأت هذه العبارة وغيرها، أيقنت بأن الأستاذ الشرقاوي سيقع في حِمى القوم؛ وذلك لما في كتابه من قذف واضح للقدمات وبلاغتهم، ولما في عباراته من إطلاق يخلو من الأسس الرئيسية لأركان الاحتراس.

لقد سرت معه في كتابه هذا صفحة صفحة أسمع وأرى، حتى أخذ يقارن بين ما كتب وبين ما جاء عند المفسرين من قبل. عندها شعرت أن من حق الإمام البقاعي عليّ أن أبين بلن كل ما جاء به الأستاذ الشرقاوي إنما هو نزر يسير مما ذكره صاحبي في "نظم الدرر". قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿يَبْصُرُونَهُمْ، يَوْدُ الْمَجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾^(٣).

وقف على هذه الآيات وما فيها من تقديم وتأخير قائم على العطف، فلم يجد أحداً من المفسرين يشفي غليله، إلا ما لمح من تنبه خاطف لدقائق بلاغية يسيرة كلها في عطف المفردات. وهو إذ يستحسن هذا عند من أورده كالزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، والرازي (ت ٦٠٦هـ) وابن جزري (ت ٧٤١هـ) والشيخ عبد القادر المغربي (١٣٧٥هـ)، فإنه في الوقت نفسه يأخذ عليهم: إغفالهم لعطف الجمل، بل التناسب القائم بين التقديم والتأخير في الآيات التي تتشابه من هذا الوجه، وهو - الشرقاوي - إذ يأخذ على هؤلاء وأمثالهم، فلا يروق له ما تركه الآخرون^(٤).

يقول: "وهكذا غاب عن هؤلاء المفسرين مغزى اختلاف نسق المتعاطفات في الآيتين، والحق أن ذلك لا يحتاج إلى إيغال في التأويل؛ لأن المقام في النص الأول مقام الفرار من الأحبة، انشغالاً بالنفس في يوم الفزع الأكبر"^(٥).

فالترتيب عند الأستاذ الشرقاوي على معنى الترقى في الحب، وهو ما يناسب فكرة الفرار، ولذلك تأخر ذكر البنين، فلو بدأ النص بذكرهم لما احتاج بعد ذلك إلى ذكر غيرهم، كما

(١) للشرقاوي، بلاغة العطف، ص ٤٢-٤٣.

(٢) عبس: ٣٤-٣٧.

(٣) المعارج: ١١-١٤.

(٤) الشرقاوي، المرجع نفسه، ص ١٠٤-١٠٩.

(٥) الشرقاوي، المرجع نفسه، ص ١٠٧.

أن الوصف بالتخلي عن نجدة الأبناء، والانصراف عنهم، هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه التعبير عن مدى انشغال الإنسان بهومومه الخاصة ومشكلاته الذاتية عن كل ما حوله^(١).

ثم يقول: "وهكذا يتأكد لنا أن عطف الألفاظ هنا عطف يقوم على اختيار جمالي خلص، ويهيئ لتصور معين، ويحقق كل شروط الفن البلاغي، بحيث تتفاضل صورته بتفاضل تراكيب التعاطف، ومراتب البلغاء، واختلاف المقامات"^(٢).

ثم عرض للآيات الأخرى من سورة المعارج وبين جمال بلاغتها، وما فيها من حسن عرض، إذ لم يذكره أحد من قبل -على حد قوله- . كما بين أن التناسب الترتيبي في هذه الآيات متناسق مع مقامها، الذي هو مقام الافتداء، وبالتالي فإن نسق العطف هنا يختلف باختلاف الغرض البلاغي، الأمر الذي أغفله كثير من المفسرين كما يقول:

"على أن الذي فات المفسرين في هذا المقام من معنى التفرقة بين مغزى التدرج هنا، ومغزى التدرج في النص السابق هو مسألة أصيلة في قضية بلاغة عطف المفردات، ولقد كان من المتوقع أن يكون هذا السؤال وارداً؛ لأن النصين يتعلقان بوصف أحوال الإنسان يوم القيامة. ذلك هو سر لاختلاف النسق بين المعطوفات باختلاف مقام التعبير..."^(٣).

أقول: لو اطلع الأستاذ الشرقاوي على ما جاء عند الإمام البقاعي، أن الرجل رائد في علم الأسلوب وتراسلاته؛ تطبيقاً وتحليلاً لكثير من الفنون البلاغية. بل ربما أفاد منه كثيراً، فقدم وأخر في كتابه، وأضاف وحذف، واعتمد البقاعي مصدراً رئيساً له في 'بلاغة العطف'، ولجعل ما تناوله البقاعي من تناسب نيراسا في علم التناسب وتراسلاته بعامة.

لقد عزا الأستاذ الشرقاوي فكرة التقديم والتأخير في آيات "عبس" إلى السياق؛ إذ هو للفرار، الذي اقتضى الترقى في الحب على الوجه الذي كان. فانظر إلى ما يقوله الإمام البقاعي في هذا، وقارن بعد ذلك بين الوقتين. يقول الإمام البقاعي:

"ولما كان السياق للفرار قدم أذناهم رتبة في الحب والذنب، فأذناهم على سبيل الترقى، وأخر الأوجب في ذلك فالأوجب بخلاف ما في "سأل" كما مضى^(٤) فقال: (من أخيه)؛ لأنه يألفه صغيراً وقد يركن إليه كبيراً مع طول الصحابة وشدة القرب في القرابة فيكون عنده في غاية العزة.

(١) انظر الشرقاوي، المرجع نفسه، ص ١٠٨.

(٢) الشرقاوي، المرجع نفسه، ص ١٠٨.

(٣) الشرقاوي، المرجع نفسه، ص ١٠٩-١١١.

(٤) يشير إلى آيات المعارج [١١-١٤] إذ المعارج تسبق عبس ترتيباً لكنني عرضت لها كما عرض لها الأستاذ الشرقاوي لمناسبة التعقيب على ما قاله.

ولما كانت الأم مشاركة له في الإلف، ويلزم من حمايتها أكثر مما يلزم الأخ، وهو لها ألف وإليها أحن، وعليها أرق وأعطف قال: **«وأمه»**، ولما كان الأب أعظم منها في الإلف لأنه أقرب في النوع، وللولد عليه من العاطفة لما له من مزيد النفع أكثر ممن قبله قال: **«وأبيه»**، ولما كانت الزوجة التي هي أهل لأن تصحب، ألصق بالفؤاد، وأعرق في الوداد، وكان الإنسان أنب عنها عند الاستداد، قال: **«وصاحبته»**، ولعله أفردا إشارة إلى أنها عنده في الدرجة العليا من المودة بحيث لا يألف غيرها.

ولما كان للوالد إلى الولد من المحبة والعاطفة والإباحة بالسر والمشاورة في الأمر ما ليس لغيره، ولذلك يضيع عليه رزقه وعمره قال: **«وبنيه»** وإن اجتمع فيهم الصغير الذي هو عليه أشفق، والكبير الذي هو في قلبه أجل وفي عينه أنبل، ومن بينهما من الذكر والأنثى. ولما ذكر فراره الذي منعه قراره علله فقال...^(١).

هذا عن آيات سورة عبس فماذا عن آيات سورة المعارج، هل أغفلها الإمام البقاعي كما رمي به المفسرون على لسان الشرقاوي - عفا الله عنه - أم وقف عليها وزاد زيادة حسنة لم يأت بها الأستاذ الشرقاوي وإن حاول للتجديد سبيلاً.

يقول صاحبنا: **«ولما كان السياق للافتداء، بدأ بأعزهم في ذلك بخلاف ما يأتى في عبس»** فقال: **«ببنيه»** لشدة ما يرى، ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد، وأعز من يلزمه لنصره والذب عنه، أتبعه ما يليه في الرتبة والمودة، وما الافتداء به - لا سيما عند العرب - من أقبح العار فقال: **«وصاحبته»** أي: زوجته التي يلزمه الذب عنها، والكون دائماً معها؛ لكونها عديلة روحه في الدنيا. ولما ذكر الصاحبة لما لها من تمام الوصلة، أتبعها الشقيق الذي لا يلزم من الذب عنه ما يلزم من الذب عن الحريم، وربما كان مبايناً فقال: **«وأخيه»**. ولما كان من بقي من الأقارب بعد ذلك متقاربين في الرتبة ذكر أقربهم فقال: **«وفصيلته»** أي: عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنه **«التي تؤويه»** أي: تضمه إليها عند الشدائد وتحميه؛ لأنه أقرب الناس إليها وأعزهم عليها، فهم أعظم الناس حقاً عليه وأعزهم لديه. ولما كانت هذه الآية في الفديسة، قم الأبعد عن ذلك فالأبعد من جهة النفع والمعرفة. ولما كانت آية عبس في الفرار والنفرة، قم الألصق فالألصق، والأعلق في الأوس فالأعلق...^(٢).

وهكذا فقد حام الأستاذ الشرقاوي كثيراً حول آيات عبس وآيات المعارج لينكر أن سبب الترتيب في الأولى هو سياق الفرار والنفرة، وسببه في الثانية هو التضحية والافتداء، وقد أحسن - كما نكرت - لو وقف عند هذا، ولم يشن حملة على القمء، ويأخذ عليهم إغفالهم لهذا التناسب،

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٢١/٢٧٠-٢٧١.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٠/٣٩٦-٣٩٧.

مدعياً بعد ذلك أنه جاء بثلاثة الأثافي، وليته كما قلت وقف عند هذا كله بل أخذ يسترسل في أمثته مبتدئاً بعبس ومثنياً بالمعارج ومثلثاً بالتوبة على هذا الترتيب الغريب.

فقد وقف على آية التوبة - «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين»^(١) - وبين ما فيها من جمال أسلوبه قائم على التقديم والتأخير، مما لم يعرض له الأقدمون كما سبق وذكر، إلا ما جاء من نكات عند صاحب تفسير المنار، اقتصر في غالبها على عطف الجمل، هذا ولم يكد الأستاذ الشرقاوي ينهي اقتباسه من صاحب تفسير المنار في آية التوبة حتى أتحنفاً بهذه العبارة التي لم نقرأ صفحة من كتابه، إلا ووجدنا رائحتها بين ثنايا سطوره يقول: "هذا الجانب النسقي من بلاغة العطف لم يلتفت إليه البلاغيون قط، ولم يعن ببيان المفسرون إلا نادراً، اقتصاراً على مباحث عطف الجمل... بل إن البلاغيين كانوا على حذر من إقامه في موضوع عطف الجمل، الذي أطلقوا عليه بلاغياً: "باب الفصل والوصل"...^(٢).

ويقول أيضاً: "وهكذا لم يلتفت البلاغيون إلى عطف المفردات، إلا على سبيل التقديم والقياس لموضوع بحثهم الذي هو عطف الجمل"^(٣).

إذا كان ذلك كذلك، فماذا نقول في تفسير الإمام البقاعي لهذه الآية، هل أغفلها؟ وترك أمرها للأستاذ الشرقاوي وتراسلاته؟ في الحقيقة، لقد تنبه الإمام البقاعي في تفسيره إلى كل هذا، ولا غرو، فهو يستخرج التناسب مما يظن البعض ألا تناسب فيه. فما بالك، وهذه الآيات تنادي بترتيبها - من مكان بعيد - على كل بليغ أن يتفكر فيها ويرى جمال تناسبها. يقول الإمام البقاعي في هذه الآية:

"ولقد رتبها سبحانه أحسن ترتيب، فإن الأب أحب المنكورين؛ لما هنا من شائبة النصره، وبعده الابن، ثم الأخ، ثم الزوج، ثم العشير الجامع للذكور والإناث، ثم المال الموجود في اليد، ثم المتوقع ربحه بالمتجر، وختم بالمسكن؛ لأنه الغاية التي كل ما تقدم أسباب للاسترواح فيه والتجمل به..."^(٤).

إن لم يكن الإمام البقاعي صاحب يد طولى في تبيان الجمال الأسلوبى الكامن خلف هذه الفنون البلاغية، بله علماً من الأعلام التاريخية التي حجبها غيوم صيف الجمود

(١) للتوبة: ٢٤.

(٢) الشرقاوي، المرجع نفسه، ص ١١٤.

(٣) الشرقاوي، المرجع نفسه، ص ١١٧.

(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ٤٣٢/٨.

والتخلف^(١)، في حين أشبعها الإمام البقاعي بحثاً وتفسيراً في كلمات وجيزة هي وغيرها من الآيات.

هذا ما رغبت في تبيانه فيما يتعلق بالكلمات التي تقدم في آيات وتؤخر في أخرى. حيث رأينا عناية تامة من الإمام البقاعي في محاولته إظهار ما توصل إليه من وجوه تناسبية، وروابط وشيجة ولطيفة بين هذه المفردات، حتى وإن ابتعدت في منازلها، فإن المقام والسياس مفتاحان رئيسيان يسعفانه -بقدر الحاجة- في كل حين.

ومن المعلوم لدى القارئ المتخصص أن مبحث الترتيب أو التقديم والتأخير من المبلحط الطويلة الشائقة، التي لا يسعها هذا المقام، وإن حاولنا لذلك سبيلاً. ولكن أملاً في تنمية بعض معالم هذا الفن، فقد رأيت أن أسطر مطلباً ثالثاً في هذا المقام، أتحدث فيه - على وجه من الإيجاز - عن التناسب الترتيبي في الفواصل والظروف.

المطلب الثالث: الترتيب في الفواصل والظروف وتناسب ذلك مع السياق.

أ - الترتيب في الفواصل القرآنية:

لقد تحدث القوم كثيراً عن الفاصلة القرآنية، فما من أحد عرض للإعجاز النظمي في القرآن الكريم، إلا تحدث عن هذا الموضوع^(٢).

(١) لقد عرض الأستاذ الشرقاوي لمسألة الترتيب أو التقديم والتأخير في الآيات التي ذكرت من ص ٩٦-١٣٦ ومن قبل ذلك كان يقدم ويمهد للحديث عن هذه الآيات وغيرها. ولو قدر الله واطلع على تفسير الإمام البقاعي لأفاد، وربما جعل عنوان كتابه "بلاغة العطف في القرآن الكريم عند الإمام البقاعي: دراسة أسلوبية". مع التنويه بأنني أعتز من القارئ الكريم عن أي كلمة خرجت عن أدب البحث العلمي خلال السرد على الأستاذ الشرقاوي.

(٢) انظر: الحصانوي، الفاصلة في القرآن. فهي من الدراسات الطيبة التي عرضت لهذا الموضوع. وباختصار شديد:

الفاصلة: هي الكلمة الأخيرة من الآية القرآنية، ويقابلها في الشعر القافية، أو قرأتين السجع، لكن الفاصلة في القرآن تختلف عن قافية الشعر، وقرينة السجع لاختلافها جوهرياً من حيث المبنى والمعنى؛ فهي لا تنتزم رويًا واحداً، كما لا تأتي لمجرد الوزن والنغم والموسيقى، وإنما تتصل بمضمون الآية اتصالاً وثيقاً. وقد أكتسب الباحثون من الحديث عن السجع، وعن الفاصلة في القرآن الكريم، فمن قائل بأن القرآن راعى في ختمه لبعض الآيات "السجع أو الفاصلة"، ومن عائب لهذا القول مظهراً فساداً، كما أعلن ذلك صاحبنا البقاعي، فقد ذكر في غير ما موضع من كتبه رأيه القاطع في هذه المسألة. حيث ينفي رحمه الله نفياً قاطعاً أن يكون القرآن قد رتب فيه شيء لأجل الفواصل. ثم تراه يعظم القول على من ادعى بأن في القرآن كلاماً جاء لمناسبة السجع، أو لنواصل وقد أشبع القول في هذه المسألة حيث استغرقت إحدى وثلاثين صفحة من كتابه (مساعد النظر: ١/١٧٦-٢٠٧)، وذكر هذه المسألة أيضاً في آخر تفسيره لسورة براءة في صفحات أربع (نظم الدرر، ٩/٥٧-٦١). ثم عاد وأكد هذه القضية مرة أخرى في سورة طه عند تفسيره لقوله

وسأحاول في هذا المقام أن أقف والقارئ الكريم، على نظرة الإمام البقاعي لترتيب بعض الفواصل القرآنية، وتتاسبها مع سياقها. فلقد عرض الإمام البقاعي لكثير من الفواصل القرآنية، وخاصة ما كان منها مشكلاً، وعليه فقد اخترت من ذلك بعض الأمثلة البسيطة التي تمثل -فيما أحسب- هذه النظرة التناسبية.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أُولِمُ تُوْمَنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ فخذ أربعةً من الطير فصرهنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهنَّ يأتينك سعياً، واعلم أن الله عزيز حكيم، مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبله مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، الشَّيْطَانُ يُعَدِّمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعْدَمُ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

إذا نظرنا إلى آيات الأمثال هنا وجدنا أنها تبدأ بقوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون﴾ ثم تتحدث الآيات في موضوع الإنفاق في سبيل الله، وكيفية خلوصه من كل شائبة، ثم التعريف بمميزات الصدقة المقبولة، وعلامات غير المقبولة، بل كيف يحق ثواب الصدقة؛ تحذيراً بذلك كله لمن يسعى لنيل مرضاة الله تعالى. فقد ضرب لهؤلاء مثلاً كما ضرب لمن سبقهم، إلى أن بين سبحانه وتعالى أنه لا يقبل من الصدقة إلا ما كان طيباً، فهو الغني عن كل ذلك، ولما كان هذا -أعني الإنفاق من أفضل شيء يملكه الإنسان- مدعاة السؤال عن الغنى والفقر، فقد بين أنه سبحانه المحيط بكل الكائنات، الذي يثيب كل محسن، أما الشيطان، عدو البشرية فهو الذي يسول للمرء معاني الفقر وما يتبعه. وبعبارة أخرى فإن لهذه الآيات ارتباطاً وثيقاً بالحديث عن الرزق والإنفاق أول السورة، كما ولها تناسب تام مع الآيات التي سبقتها بقليل كقوله تعالى: ﴿من ذا

تعالى: ﴿فألقى السحرة سجداً، قالوا آمنا بربنا﴾ طه: ٦٩ (المصدر نفسه، ٣٠٩/١٢-٣١١). ولم يكتف بذلك، بل عاد لينبه في ختام تفسيره لقوله تعالى: ﴿وان لنا للأخرة والأولى﴾ الليل: ١٣، على هذه القضية. (المصدر نفسه، ٩٣/٢٢). وقد ردَّ رحمه الله- في أثناء ذلك على كثير من الأئمة، كما بين أن جميع ما نكر لا ينفي بحال من الأحوال- أن يكون في السجع والشعر ما هو حسن جداً وبلغ. وعلى كل فقد فصل القول في هذه المسألة تفصيلاً لا يحتاج -فيما أحسب- إلى زيادة في هذا المقام.

(١) البقرة: ٢٦٠-٢٦١.

(٢) البقرة: ٢٦٧-٢٦٨.

الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون»^(١).

وكقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، والكافرون هم الظالمون﴾^(٢)؛ ولذلك فقد ختمت آية ﴿مثل الذين ينفقون﴾ بالتأكيد على مضاعفة الأجر والثواب لأهل الإنفاق في سبيل الله، ولكن على قدر ما علم من نياتهم. والملاحظ أنه سبحانه وتعالى قد ختم الآية الأخيرة في هذا الموضوع بنفس الفاصلة. يقول الإمام البقاعي بما معناه: ولما ختم أول آيات هذه الأمثال بهاتين الصفتين ختم آخرها بـ: ﴿واسع عليم﴾^(٣)، إشارة بذلك إلى أن سعته قد أحاطت بجميع الكائنات، فلا يضيع شيء وإن دق، ولذلك فهو جدير بالإثابة في الدارين، إضافة إلى أن علمه قد شمل كل معلوم فلا يخشى أن يترك عملاً، ناهيك عما في هذا الختم أيضاً من ترغيب وترهيب^(٤).

وليس هذا فحسب بل انظر إلى تنمة كلام الإمام البقاعي في هذا الترتيب حيث يقول: "وفي ترتيبها على "واسع عليم"^(٥) بعد "غني حميد" بعد "عزيز حكيم"، التحذير من التعريض لإنفاق ما يردده لعزته وغناه وسعته، ويذم عليه لعلمه لرداعته أو فساد في نيته، وإن خفي فإن ذلك خارج عن منهاج الحكمة مناء، ومقتضى الحكمة منه سبحانه وتعالى، كما وقع لقابيل إذ قرب رديناً كما هو مشهور في قصته، ولعله لوح إليه بالتكر في ختام هذه الآية^(٦)، ثم بقوله: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾، فصار كأنه قال سبحانه وتعالى: "واعلم أن الله عزيز حكيم يؤتي الحكمة... من يشاء"^(٧).

وقد وقف الإمام البقاعي أيضاً على مناسبة تقديم الأرض على السماء -إذ المعتاد عكس ذلك- في قوله تعالى: ﴿طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تنكرة لمن يخشى، تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى﴾^(٨). وقف على ذلك وبين أن هذا ما كان إلا ليناسب مقتضى الحال المتضمن لسكن المدعويين المعنى بتكررتهم، وهداية من أريد منهم، وما في ذلك أيضاً من

(١) البقرة: ٢٤٥.

(٢) البقرة: ٢٥٤.

(٣) البقرة: ٢٦٨.

(٤) لنظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٧٦/٤، ٩٣/٤.

(٥) بدأ من الآخر، البقرة: ٢٦٨، ثم عاد لما قبلها.

(٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكر إلا أولو

الألباب﴾ البقرة: ٢٦٩.

(٧) البقاعي، المصدر نفسه، ٩٤/٤.

(٨) طه: ٤-١.

مزيد اعتناء بالترفق التام بسكانها؛ ليملاها بالإيمان منهم تحقيقاً لمقصود السورة، وتشريفاً للمنزل عليه. ولذلك أتبعها محل الإنزال على سبيل الترقى من بيت العزة إلى ما تنزله في خزانة العرش. هذا فضلاً عن كون الأرض أقرب إلى الحس والملامسة والمباشرة من السماء، إذ العقل يقتضي التفكير في القريب أولاً قبل البعيد^(١)؛ «وفي أنفسكم أفلا تبصرون»^(٢).

ومنه أيضاً تقديم هارون على موسى -عليهما السلام- في قوله تعالى: «فأتقني السحرة سجداً قالوا أمنا برب هارون وموسى»^(٣).

فلقد تنبه الإمام البقاعي إلى هذا التقديم، وبين أن هذه الآية، وأمثالها من آي هذه السورة وغيرها مما قدم فيه ما يتبادر أن حقه التأخير وبالعكس، إنما هو لأنحاء من المعاني نقيصة. الأمر الذي حمل -كما يقول- بعض من لم ترسخ قدمه في هذا إلى أن يقول: إن القرآن يراعي الفواصل، كما يتكلف بلغاء العرب السجع. وقد تبع هؤلاء وأمثالهم جمع من المتأخرين تقليداً واتباعاً، لا اجتهاداً وبحثاً^(٤).

وقريب من هذا أيضاً، ما كان من ترتيب في فاصلة قوله تعالى: «ثم للإنسان ما تمنى فله الآخرة والأولى»^(٥).

فقد قدم سبحانه وتعالى الآخرة على الأولى، فأى وجه للتناسب في ذلك؟ يرى الإمام البقاعي أن هذا التقديم ليس للفاصلة -البنية- بل لأن الآخرة هي دار اللذات الحقيقية، وموطن السعادة الأبدية، التي لا ينالها إلا من تبع هداه، وخالف هواه. فهي الغاية والمقصد. أما الأولى: فطريقاً من سلكه تاركاً لهواه، فقد نال أمانيه في الآخرة.

أما بالنسبة لأولئك الذين يتبعون أهواءهم، فقد ابتاعوا -لا شك- الفاني بالباقي، ثم تمنوا على الله الأمانى، فخسروا -والحال ما ذكرت- خسراً مبيهاً^(٦).

وبهذا المثال أختم عرضي لما أردت إظهاره، من عناية واضحة للإمام البقاعي في وقوفه على وجوه التناسب الترتيبي، فيما يتعلق بالفاصلة القرآنية، إذ رد رحمه الله كل ما تقدم

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢٣/١، ٢٦٨/١٢. وانظر أيضاً: البيضاوي، توار التنزيل، ٢٢٣/٤.

(٢) الذاريات: ٢١.

(٣) طه: ٧٠.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٠٩/١٢-٣١٨. فقد عرض في هذا المقام أيضاً للسجع ونفيه عن القرآن.

إذ المعنى يتبع اللفظ في السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن. مع إسناده كل ذلك بجملة من أدلة الأصحاب، والإحالة على كثير من المواضع الأخرى أيضاً. وانظر أيضاً: عبد الجليل،

لغة القرآن الكريم ص ٣٠٩-٣٢٢ فقد عرض لأراء الفريقين، وحاول التوفيق بينهما.

(٥) النجم: ٢٤-٢٥.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٦٢/١٩. وشبيهه منه أيضاً: تقديم صحف موسى على إبراهيم النجم:

٣٦-٣٧، البقاعي، المصدر نفسه، ٧١/١٩.

إلى سياق المقام، ونفى - في أثناء ذلك، نفياً قاطعاً- أن يكون في القرآن سجع أو حتى كلمة رتبت لمناسبة الفاصلة^(١).

ب - الترتيب في الظروف:

لقد كثر حديث الإمام البقاعي عن التقديم والتأخير في الظروف، وما في ذلك من نكات تناسبية لطيفة. وهذان مثالان - على سبيل الذكر - واحد للتقديم، وآخر للتأخير نتعرف من خلالهما نظرة البقاعي لمناسبة ترتيب الظرف في الآية القرآنية.

قال تعالى: ﴿إِنْ رَبَّهُمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾^(٢).

يرفض الإمام البقاعي أن يكون تقديم الظرف هنا للاختصاص، فإله سبحانه وتعالى - خبير بهم وبغيرهم، وبالتالي فإن تقديمه إنما هو من قبيل الإبلاغ في التعريف؛ من كونه سبحانه وتعالى على علم تام، ومحيط بكل أمر. وليس للاختصاص بهم - كما ذكرت - ومثاله - كما يقول الإمام البقاعي - لو قال لك شخص: أتعرف فلاناً؟ فقلت: ولا أعرف إلا هو، فإن قصدك بذلك أن معرفتك به في غاية الاتقان، لا نفي معرفة غيره. وفي هذا إشعار وتبويه لكل غافل يتردى ويفعل ما يشاء، ويحسب أن الله غير مطلع عليه. بل هو سبحانه العالم بجميع الأحوال. فسبحانه وتعالى عما يصفون^(٣).

(١) ولمزيد من الاطلاع على حسن عرض الإمام البقاعي لهذه الفواصل، وتخريجه لتناسبها، انظر على سبيل

المثال فواصل الآيات التالية من نظم الدرر:

١. البقرة: ١٢-١٣ (لا يشعرون، لا يعلمون) ١١٣/١.
٢. البقرة: ١٠٧ (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) ٩٩/٢.
٣. البقرة: ١٧٩ (المعلم تتقون) ٣٠/٣-٣٢.
٤. النساء: ٣٥ (عليما خبيراً) ٢٧٥/٥.
٥. المائدة: ٢ (شديد العقاب) ١١/٦.
٦. المائدة: ٤ (سريع الحساب) ٢٣/٦.
٧. المائدة: ٤٤-٤٧ (الكافرون، الظالمون، الفاسقون) ١٤٦/٦، ١٧٥/٦.
٨. المائدة: ٨٩ (المعلم شكرون) ٢٩٠/٦.
٩. الأنعام: ٩٨ (تقوم يفتقون) ٢٠٨/٧.
١٠. براءة: ١٠٦-١٠٧ (عليه حكيم، إنهم لكانبون) ١٥/٩-١٦.
١١. الشعراء: ٩ (العزیز أرحيم) ١٢/١٤.

(٢) العاديات: ١١.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه. ٢١٨/٢٢-٢١٩.

وقال تعالى: ﴿ جناتِ عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب، إنه كان وعده مأتياً، لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيا ﴾^(١).

فقد تقدم الظرف في آية "العاديات"، ورأينا مناسبة تقديمه، وأما هنا فهو متأخر؛ ليناسب دوام رزق عباد الله في الجنة، بحيث لا يحتاجون إلى طلبه في وقت من الأوقات، بل يؤتون طعامهم على ما كانوا يشتهون في الدنيا وأحسن. ولذلك فقد خوطبوا بما يعرفون، وبالتالي لو قدم الظرف لأوهم بعدهم - كما يقول الإمام البقاعي - عن ذلك في الجنة^(٢).

بعد هذه الوقفة التناسبية مع ترتيب النعم، وأحوال النفس، والحكم، وما تبع ذلك من تقديم لبعض القصص على بعض، ثم ما كان من الكلمات التي قدمت في آيات وأخرت في أخرى، وحديثنا عن الترتيب في الفاصلة، وفي الظرف وعلاقة ذلك كله بالمقام. أظن أن جميع ما ذكرت لا يعدو كونه جزءاً يسيراً مما كان من أمر الإمام البقاعي مع التقديم والتأخير، الذي لسو استقصيته بحق لخرجت عن غرض الرسالة، فهناك - سوى هذا الجزء القليل الذي ذكرت - التقديم والتأخير في سياق النفي، أو في سياق الخبر المثبت أو المنفي، وتقديم النكرة على الفعل، وعلاقة التقديم والتأخير بأسلوب القصر، بله التقديم والتأخير في الجملة الاسمية. وفي الجملة الفعلية كذلك، إضافة إلى علاقة ذلك كله بالسياق، وما في هذا من معان بلاغية رفيعة إلى غير ذلك مما لا يسع المقام نكره، الأمر الذي جعلني أختار بعض الأمثلة التي غلب على ظني أنها واضحة بيّنة، تمثل ما نحن بصدده، والتي أرجو الله في النهاية أن أكون قد وفقت في اختيارها، فهو حسبي ونعم الوكيل^(٣).

(١) مريم: ٦٦-٦٢.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢٧/١٢.

(٣) ولمزيد من الاطلاع على باب التقديم والأخير عند الإمام البقاعي انظر ما يلي من "نظم الدرر" على سبيل

النكر لا الحصر:

- | | |
|-----------------------------------|----------------------------|
| ١. البقرة: ٣٣-٣٤، ٢٨٠/١، ٢٨١-٢٨٠. | ٨. النمل: ١٧، ١٤/١٤١. |
| ٢. النساء: ١٢، ٥/٢٠٨. | ٩. القصص: ٢٠، ١٤/٢٦١. |
| ٣. النساء: ٩٢، ٥/٣٦٢-٣٦١. | ١٠. المنكوت: ٥٢، ١٤/٤٦١. |
| ٤. المائدة: ٥، ٦/٣٠. | ١١. يس: ٢٠، ١٦/١٠٩. |
| ٥. المائدة: ٨، ٦/٤٠. | ١٢. الرحمن: ٧، ١٩/١٤٧-١٤٨. |
| ٦. المائدة: ١٨، ٦/٦٨. | ١٣. الحشر: ٢٢-٢٤، ١٩/٤٨٢. |
| ٧. الفرقان: ٤٨-٤٩، ١٣/٤٠٢. | ١٤. الليل: ١٢-١٣، ٢٢/٩٢. |
١٥. الإخلاص: ٤، ٢٢/٢٨٢. إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي تراجع في مظانها.

المبحث الثاني: التناسب في الحذف والذكر

أ - التناسب في الحذف

تعددت الدراسات التي تناولت موضوع الحذف والذكر^(١). والملاحظ أن كتب النحو كان لها حظ وافر من ذلك، فلقد احتضنته سنين طويلة، إلا أنها سكنت في أغلب الأحيان عن ذكر أسرارها، فلم تكن ببيان ما في الحذف -مثلاً- من جمال بقدر عنايتها ببيان المحذوف، فضلاً عن شيوع مجموعة من الأمثلة وتكررها في كتب النحو وحتى كتب البلاغة. إلى أن جاء الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي قال في قيمة "الحذف":

"هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين"^(٢). جاء الشيخ، فأشار إلى جل ما ذكروا، ولكن مع نفثه الروح البلاغية في هذه الأمثلة وغيرها. على أن وقتي هذه عند الشيخ لم تكن إلا لكون الرجل يمثل مدرسة تامة وجامعة تغني عن استقصاء ما بينها وبين عصر البقاعي.

ولقد لاحظت في أثناء دراستي لتفسير الإمام البقاعي أن له مشاركة طيبة في هذا الموضوع، حيث عرض -رحمه الله- لكثير من الآيات التي دخل الحذف أجزاءها، وبين كثيراً من أسرارها -أيضاً- على نهج علماء البلاغة، وحذاق المفسرين وغيرهم في استخراج لطائف فنونهم. ولقد حاولت تصيد مجموعة من تلك الأسرار التناسبية التي وقف عليها صاحبنا في موضوع الحذف؛ إذ إن أسرار هذه الفنون لا يمكن حصرها، وذلك "لاختلاف المقامات والأحوال ووظيفتها في الكلام... ومقامات الكلام متفاوتة تفاوتاً يفوق الحصر، والأغراض تتعدد بتعدد ما يعثور النفس من أفكار وأحوال"^(٣).

لقد أشار صاحب منهاج البلغاء -فيما نقله الزركشي في برهانه، والسيوطي في إتقانه- إلى أن الحذف لا يكون إلا عند العلم وأمن اللبس، والشيء إذا علم، وشهر موقعه سهل حذفه وإسقاطه، يقول: "إنما يحسن الحذف ما لم يشكل به المعنى، لقوة الدلالة عليه، أو يقصد به تعديد

(١) انظر على سبيل المثال: أبو موسى، البلاغة القرآنية، ص: ٤٠٣-٤١٣. و أبو موسى، خصائص

التراكيب، ص ١١١-١٤٥. ناصر الخنين، النظم لقرآني في آيات الجهاد، ص ٣١٨-٣٤٥.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٤٦ ونظر كذلك ما بعدها.

(٣) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص ٢١٣.

أشياء، فيكون في تعدادها طول وسامة، فيحذف ويكتفى بدلالة الحال عليه، وتترك النفس تجول في الأشياء المكتفى بالحال عن نكرها على الحال^(١).

ولقد صدق الإمام البقاعي على هذا، حين قال معلقاً على حذف جواب لما في قوله

تعالى:

﴿لما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيبة الجب، وأوحينا إليه لتبينهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾^(٢).

قال:

ولكن لما كان هذا الجواب في غاية الوضوح لدلالة الحال عليه ترك لأنهم إذا أجمعوا عليه على أنهم لا مانع لهم منه؛ ثم عطف على هذا الجواب المحذوف لكونه في قوة الملفوظ: (وأوحينا) أي بما لنا من العظمة^(٣).

فنحن نرى: أنه قد ساع حذف جواب "لما" رغم استطالة الكلام، لأن هدف اللغة كما نعلم هو التواصل، فإذا فهم هذا المحذوف بالسياق وقرائن الأحوال، وأمن اللبس، مال الكلام إلى الإيجاز؛ إذ هو البلاغة بعينها ولكن لا بد - كما سبق ونكرت - أن يكون فيما أبقى دليل على ما أُلقي^(٤) حتى يكون عدم الذكر أفصح من الذكر. وعلى كل فقد جاء هذا المبحث في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حذف الأسماء والضمائر

أبدأ في هذا المقام بحذف المفعول - الذي يكثر في أفعال المشينة والقدرة^(٥) - حيث إن فيه من الملاحظات القيمة ما فيه، بل حتى إنها لتبلغ الغاية في الدقة وسمو الإدراك - ولا غرو - إذ هو باب واسع، وبحر لا ساحل له. يقول أبو إسحاق الزجاج - تحت عنوان: هذا باب ما جاء في التنزيل من حذف المفعول والمفعولين، وتقديم المفعول الثاني على المفعول الأول، وأحوال الأفعال المتعدية إلى مفعوليتها، وغير ذلك مما يتعلق به - يقول:

(١) الزركشي، البرهان، ١٧٧/٣، ونظر: السيوطي، الإتيان، ص ١٢٧.

(٢) يوسف: ١٥.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٨/١٠.

(٤) انظر: الزركشي، البرهان ١٨٤/٣.

(٥) انظر: السيوطي، الإتيان ص ١٥٠.

'ونحن ننكر من ذلك ما يدق النظر فيه؛ لأن ذلك لو حاول إنسان أن يأتي بجميعه توالى عليه الفتوق، ولم يمكنه القيام به لكثرتة في التنزيل، وكان بمنزلة من يستقي من بئر زمزم فيغلبه الماء'^(١).

قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

هذه صورة لموقف عظيم، فيه لكل امرئ شأن يغنيه، وعليه من الأدلة التحذيرية في كتاب الله وسنة رسوله ما يجعل المرء يذهب بنفسه، فيتخيل ويتصور أموراً هائلة فظيعة، يقول البقاعي: 'والمعنى: لو رأيت إيقافهم ووقوفهم في ذلك الذل والانكسار والخزي والعار، وسؤالهم وجوابهم لرأيت أمراً هائلاً فظيماً ومنظراً كريهاً شنيعاً، ولكنه حذف تفخيماً له؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب، وجاز حذفه للعلم به في الجملة'^(٣).

وهذا هو ما أورده الزركشي والسيوطي نقلًا عن مقدمة منهاج البلغاء:

قال ولهذا القصد - إذا كانت الدلالة على حذفه قوية - يؤثر في المواضع التي يراد بها التعجب والتهويل على النفس'^(٤).

ومما حذف لأجل التعظيم والتهويل قوله تعالى:

﴿أَهْلِكُمُ التَّكَاثُرَ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(٥).

نلاحظ أن إيهام حذف الشيء الملهو عنه في هذه الآية، قد أدى إلى تفخيمه وتعظيمه، والدلالة على أنه ليس غيره مما يؤسف على اللهو عنه، وهذا كقيل - طبعاً - بأن يجعل النفس تذهب فيه كل مذهب، وتحاول أن تتشوف إلى تحديده، فتعود قاصرة عن إدراكه، فيعظم بذلك شأنه، ويعلو في النفس مكانه، فيصبح له - والحال ما ذكرت - أثر كبير، بخلاف ما لو نكر في الكلام^(٦).

وقد يكون حذف المفعول للدلالة على التعميم، وأنه يتناول كل ما يصح أن يدخل تحت هذا

الفعل، فليس ذكر البعض بأولى من الآخر كما في قوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٧).

(١) الزجاج، إعراب القرآن، ٤٠٥/٢ ثم ذكر أمثلة كثيرة على ذلك.

(٢) الأنعام: ٢٧.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٨٧/٧.

(٤) الزركشي، المصدر نفسه، ١٧٧/٣، والسيوطي، المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٥) التكاثر: ١-٢.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢٦/٢٢.

(٧) المائدة: ٩.

يقول الإمام البقاعي: "وترك المفعول الثاني أقعد في باب الإشارة، فإنه يحتمل كل خير، وتذهب النفس في تحريزه كل مذهب"^(١).
ومنه قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٢).

ففي حذف المفعول هنا إثارة متولدة من الإبهام، فكأنه حذف للنهي عن التقدمة، أو ليعم كل ما يصح تقديمه، فيذهب التخيل فيه كل مذهب يقود إلى التأدب مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول الإمام البقاعي:

"وحذف المفعول ليعم كل ما يصح تقديمه فيذهب الوهم كل مذهب، ويجوز أن يكون حذفه من قصد إليه أصلاً، بل يكون النهي موجهاً إلى التقدمة نفسها، أي لا تتلبسوا بهذا الفعل..."^(٣).
ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى:

﴿مَا ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾^(٤).

فقد حذف الضمير ليعم كل أمر فيه أذى أو تخلٍ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول الإمام البقاعي:

"أي وما أبغضك بغضاً ما، وحذف الضمير اختصاراً لفظياً ليعم، فهو من تقليد اللفظ لتكثير المعنى، وذلك لأنه كان انقطع عنه الوحي مدة لأنهم سألوه عن الروح وقصة أهل الكهف وذي القرنين"^(٥).

هذا من جهة التعميم^(٦)، لكن قد يحذف من سياق كونه غير مراد فيه، وإنما المراد هو الفعل نفسه - فيشير البقاعي لذلك وينبه على المقصود - وذلك كما في قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا وردَ ماءَ مَدْيَنَ وجدَ عليه أُمَّةٌ منَ النَّاسِ يسقونَ ووجدَ منَ دونهمِ امرأتينِ تزدودان﴾^(٧).

يقول البقاعي: "يسقون؛ أي مواشيهم، وحذف المفعول لأنه غير مراد، والمراد الفعل، وكذا ما بعده، فإن رحمته عليه الصلاة والسلام لم تكن لكون المذود والمسقي غنماً بل لمطلق

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٤٤/٦.

(٢) الحجرات: ١.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٣١٥/١٨.

(٤) الضحى: ٣.

(٥) البقاعي، المصدر نفسه، ١٠٣/٢٢.

(٦) انظر ذلك أيضاً: الحج: ٥، ١٠/١٣، العلق: ١، ١٥٤/٢٢.

(٧) القصص: ٢٣.

الذياد، وترك السقي^(١). فالغرض من الكلام هنا أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين نود، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقي، فأما ما كان المسقي؟ أغتماً أم ايلاً أم غير ذلك، فخارج عن الغرض، وموهم خلافه^(٢).

ومما حُذِف لدلالة السياق عليه قوله تعالى:

﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث﴾^(٣).

فسياق هذه الآية هو: العون والتضافر والتعزيز، وبالتالي فإن حذف المفعول مفهوم؛ لأن المقصود هو إظهار الاقتدار على إيقاع الفعل وتصريفه في كل ما أريد له^(٤).

وقد يحذف الاسم من سياق ما، وذلك من قبيل الصيانة والتشريف كما يقول السيوطي^(٥).

ومن ذلك تجاهل ذكر اسم السيدة عائشة - رضي الله عنها - في سياق آيات حديث الإفك.

قال تعالى: ﴿إن الذين جاعوا بالإفك عصبة منكم، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم،

لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم...﴾^(٦).

يقول الإمام البقاعي: "وترك تسميتها تنزيهاً لها عن هذا المقام، إبعاد لمصون جانبها العلي

عن هذا المرام"^(٧).

وقد ينظر الإمام البقاعي في مجموعة آيات من سياق "ما" في موضوع معين فيلمح نكتة

بلاغية لطيفة، فيودعها تفسيره ولا يغفلها، فقد لاحظ بأن قصة إبراهيم عليه السلام في سورة

الشعراء قد خلّيت من ذكر الإهلاك، على حين ورد ذلك في باقي القصص من السورة نفسها

يقول:

"وأخلى قصة أبيهم عليه السلام من ذكر الإهلاك إشارة إلى البشارة بالرفق ببنيه العرب

في الإمهال كما رفق بهم في الإنزال والإرسال"^(٨).

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٦٤/١٤.

(٢) انظر تفصيل الحديث عن هذه الآية: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: ١٦١-١٦٢.

(٣) يس: ١٣.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٠٥/١٦.

(٥) انظر: السيوطي، المصدر نفسه، ص: ١٢٩.

(٦) النور: ١١.

(٧) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢١/١٣.

(٨) البقاعي، المصدر نفسه، ١٣/١٤.

المطلب الثاني: حذف الحروف

قد يلحظ الإمام البقاعي حذف حرف من حروف المعاني في الآية، فيشير إليه وإلى بلاغة حذفه، وما أفاده من معنى^(١) يقول عند قوله تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٢).

يقول: وقد أثبت "من" التبعية مع البصر إشارة إلى العفو عن النظر الأولى، وأن المأخوذ به إنما هو التماذي، ولما كان حفظ الفرج لخطر الواقعة أسهل من حفظ البصر، ولأنه لا يفعل به من غير اختيار، حذف "من" لقصد العموم فقال (ويحفظوا فروجهم) أي عن كل حرام من كشف وغيره... الخ^(٣).

وقد يكون الحذف لحرف أو صوت واحد فيكشف - رحمه الله - عن سر من أسرار حذفه كما في قوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ... وَأَحْلَ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ...﴾^(٤).

يقول الإمام البقاعي: "ولما كان الكلام في المنع لم يصرح بالفاعل بل قال: 'حُرِّمَتْ' ترفقاً في الخطاب حثاً على الآداب، فلما وصل الأمر إلى الحل أظهره تطبيياً للقلوب وتأنيساً للنفوس"^(٥).

ومنه أيضاً قوله تعالى في قصة صالح: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^(٦)، وفي قصة شعيب: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^(٧).

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع: لزرکشي، المصدر نفسه، ٢٧٩/٣-٢٨٥، ونظر أيضاً: أبو موسى، خصائص التركيب، ص ١١٢ وما بعدها.

(٢) النور: ٣٠.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٥٤/١٣.

(٤) النساء: ٢٣-٢٤.

(٥) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٣٣/٥. ونظر أيضاً هذا المثال، قال تعالى: (هل أتيتكم على من تنزل الشياطين) لشعراء: ٢٢١. فالبقاعي يرى أن حذف اللام من "تنزل" - إذ إن أصلها تنزل - في غير القرآن - هو

لمناسبة ستراتها لسمع على وجه الخفاء، ١١١/١٤.

(٦) هود: ٦٧.

(٧) هود: ٩٤.

يرى الإمام البقاعي أن حذف علامة التأنيث في قصة صالح هو لمناسبة عظم هذه الصيحة. وأما إثباتها في قصة شعيب فهو للدلالة على أن صيحتهم كانت دون صيحة نود؛ لأنهم كانوا أضعف منهم، فلذلك أبرز علامة التأنيث في هذه دون تلك^(١).

المطلب الثالث: الحذف في القراءة القرآنية

قد يقع الحذف في القراءة القرآنية، فترى الإمام البقاعي يقف عليه، وينبئه على جمال تناسبه.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَاتَا مَاك لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾^(٢).

فالبقاعي يرى أن حذف حركة الرفع في "تأمننا" إنما هو لمناسبة اضطراب، وعدم سكون قلب يعقوب عليه السلام على يوسف، رغم أن إخوته -عليهم السلام- ظنوا في ذلك الموقف أنهم أهل لأن يسكن إليهم بذلك غاية السكون.

قال الإمام البقاعي:

"وأجمع القراء على حذف حركة الرفع في "تأمن" وإدغام نونه بعد إسكانه تبعاً للرسم، وبعضهم إدغاماً محضاً، وبعضهم مع الإشمام، وبعضهم مع الروم، دلالة على نفي سكون قلبه عليه، عليهما الصلاة والسلام بأمنه عليه منهم على أبلغ وجه مع أنهم أهل لأن يسكن إليهم بذلك غاية السكون، ولو ظهرت ضمة الرفع عند أحد من القراء فات هذا الإيماء إلى هذه النكتة البديعة"^(٣).

وربما أوضح من هذا، وقوفه على قوله تعالى:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِر﴾^(٤).

فقد وقف الإمام البقاعي وقفة متأنية على قراءة هذه الآية، وعرض في مطلع حديثه للرأي المتداول في تخريجها؛ وهو الذي يتمثل بقصة المؤرج مع الأخفش^(٥)؛ إذ لما أثبت ابن كثير ويعقوب الياء في "يسري"، وحذفها الباقر من غير ناصب ولا جازم، كان ذلك مدعاة للسؤال عن علة الحذف والإثبات، وقصة المؤرج مع الأخفش تجيب عن وجه حذفها من جهة الدلالة

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٢٥/٩-٣٢٦، ٣٦٧. وانظر للاستزادة: قبلد: ١٧-١٨، ٦٦/٢٢،

وانظر أيضاً: الحشر: ٥٤، ٨٢/١٩.

(٢) يوسف: ١١.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٦/١٠.

(٤) الفجر: ٤.

(٥) انظر تفصيل هذه القصة في: الزركشي، المصدر نفسه، ١٧٨/٣-١٧٩، والسيوطي، المصدر نفسه، ١٢٨،

والشوكاني، المصدر نفسه، ٤٧١/٥-٤٧٢، وأبو موسى، خصائص التركيب: ص ١١٢-١١٣.

المعنوية، إذ الليل يُسرى فيه ولا يسري، وهو من باب «وما كنت أمك بغياً»^(١). وقد رد الشوكاني هذا التعليل ولم يرضه^(٢).

وكذلك الحال مع الإمام البقاعي الذي لم يرض مثل هذا التعليل رغم شيوعه فسي كتب التفسير وعلوم القرآن، إذ يلزم من هذا الأمر كما يقول رد روايات الأثبات، ويرى -رحمه الله- أن الحكمة المعنوية في ذلك هي من جهة الساري وما يقع السرى فيه، وقد جاءت بناءً على ذلك في غاية التناسب مع مقامها.

يقول: فأما من جهة الساري فانقسامهم ليلة النفر إلى مجاور وراجع إلى بلاده، فأشير إلى المجاورين بالحنف حثاً لهم على ذلك، لما فيه من جلالة المسالك، فكان ليل وصالهم ما انقضى كله، فهم يغتمون حلوله، ويلتذنون طوله من تلك المشاهد والمشاعر والمعاهد. وإلى الراجعين بالإثبات إذ لما سرى الليل بحدافيره عنهم أبوا راجعين إلى ديارهم فيما أنكشف من نهارهم^(٣).

فقد انقسم الليل من جهة الساري فيه إلى ذي حضر وذي سفر، وعليه فذو الحضر ناسبه الحنف؛ لعدم استعجاله، وكونه مقيماً مجاوراً للبيت أو المشعر الحرام. بخلاف المسافر؛ فهو بحاجة إلى الليل كله، وإلى استغلال كل أمر ولو أمعن أهل الفقه في هذا التخريج والتعليل، لربما لمحو منه -فيما أحسب- حكماً شرعياً، أو حكماً تتعلق بوقت الرمي وما يناسب ذلك وغيره، بالنسبة إلى المقيم وإلى المسافر-.

هذا من جهة الساري، أما من جهة ما وقع فيه من السرى فإن البقاعي يقول: وأما من جهة ما وقع فيه السرى فلإشارة إلى طوله تارة، وقصره أخرى، فالحنف إشارة إلى القصير، والإثبات إشارة إلى الطويل بما وقع من تمام سراه، وما وقع للسارين فيه من قيام وصف الأقدام بين يدي الملك العلام كما قال الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- حيث قال مشيراً لذلك:

كم ليلة فيك وصلنا السرى لا نعرف الغمض ولا نستريح^(٤)

فقد أشار الإمام البقاعي هنا إلى انقسام الليل إلى ذي طول وقصر، فالقصر يناسبه الحنف، والطول يناسبه الإثبات لما فيه من كثير عبادة وازدحام عليها. وعلى كل فقد علل الإمام البقاعي إثبات القراءة، وحنفها في كلمة يسر بما يناسب وسبب نزولها وموضوعه، ويتأويل لم أر أحداً من المفسرين -حسب اطلاعي- أشار إليه.

(١) مريم: ٢٨.

(٢) نظراً: الشوكاني، المصدر نفسه، ٤٧١/٥-٤٧٢.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٣/٢٢.

(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٣/٢٢-٢٤.

هذا ما كنت أود نكره من أمر الحذف، لكن وبعد اطلاعي على هذا الموضوع في كتب علوم القرآن، وخاصة "البرهان" و"الإتقان"، وحديث الزركشي والسيوطي عن أنواعه، وذكرهما للاحتباك، وإدراجه ضمن هذه الأنواع^(١)، رأيت أن أتحدث عن هذا الفن - وإن كان يشبه فيما أحسب المحسنات البديعية - فقد أفرده البقاعي بالتصنيف، بل إن كتابه "نظم الدرر" مليء بالإشارة إليه.

فما هو هذا الاحتباك؟

الاحتباك في اللغة من الحبك، وهو الشد والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب^(٢). وأما في الاصطلاح، فهو: "أن يؤتى بكلامين يحذف من كل منهما شيء إيجازاً، يدل ما نكر من كل على ما حذف من الآخر، وبعبارة أخرى: هو أن يحذف من كل جملة شيء إيجازاً، وينكر في الجملة الأخرى ما يدل عليه"^(٣).

ومن أول الأمثلة التي خرجها الإمام البقاعي على فن الاحتباك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم ﴾^(٤).

فقد أشارت الآية إلى أن الله قد خلق لنا ما في الأرض جميعاً، ولكنها لم تنكر أن الله خلق لنا سبع أرضين، إذن فقد اقتصر مطلع الآية على ذكر أن ما في الأرض لنا، مع حذف كون الأراضي سبعاً، ثم بعد ذلك نكرت السماء بعدها سبع سموات، لكن حذف كون ما فيها لنا أيضاً. فحذف من الأول ذكر عدد الأرضين، وأثبت في الثاني عدد السموات، كما أنه حذف من الثاني أن ما في السموات لنا، وأثبت ذلك في الأول. وهذا هو الاحتباك، الذي أرى أنه من تأثر هؤلاء العلماء بالأسلوب المنطقي - في العصور المتأخرة - إذ لم تسلم منه حتى علوم الشريعة الإسلامية.

يقول الإمام البقاعي في الآية الأنفة الذكر:

(١) انظر: الزركشي، المصدر نفسه، ٢٠٦-١٨٩/٣، والسيوطي، المصدر نفسه، ص ١٤٣-١٤٧.

(٢) انظر: لسان العرب مادة (حك).

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٦٣/٤. وقال للسيوطي في الاحتباك أيضاً: "وهو من أطف الأنواع ولبدعها، وقل من تتبّه له، لو نبّه عليه من أهل فن البلاغة، ولم أره إلا في شرح بديعية الأعمى (ابن جابر) لرفيقه الأندلسي، ونكره لزرکشي في البرهان، ولم يسمه هذا الاسم، بل سمّاه للحذف المقابلي، وأفردته بالتصنيف من أهل العصر برهان الدين البقاعي. قال الأندلسي في شرح البديعية: من أنواع البديع الاحتباك وهو نوع عزيز، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول". السيوطي، المصدر نفسه، (الصعدي) ص: ١٤٥-١٤٧ وانظر أيضاً: انعكاسي، المعجم المفصل، ص ٣٣-٣٥.

(٤) البقرة: ٢٩.

"فالآية من الاحتباك، حذف أولاً كون الأراضي سبباً لدلالة الثاني عليه، وثانياً كون ما في السماء لنا لدلالة الأول عليه، وهو فن عزيز نفيس جمعت فيه كتاباً حسناً ذكرت فيه تعريفه ومأخذه من اللغة، وما حضرني من أمثله من الكتاب العزيز وكلام الفقهاء وسميته: "الإدراك لفن الاحتباك"^(١).

إن كان للإمام البقاعي اهتمام واضح بهذا الفن، سواء أكان ذلك متمثلاً في تصنيفه، أم في الكثرة البالغة من وجوده في "نظم الدرر"^(٢).

لقد وقفت في مبحث الحذف على مقدمة قصيرة، ثم أسندتها بمجموعة من الأمثلة، التي حاولت جهدي أن تكون ممثلة لكثير من عناية الإمام البقاعي بهذا الموضوع والتناسب للقرآني. ثم ختمت ذلك كله بالاحتباك، الذي من أعلى شروطه وأولاهها: أن يكون في المنكور ما يدل

(١) البقاعي، المصدر نفسه ٢٢٥/١.

(٢) وهذان مثالان آخران لتوضيح إجراء الاحتباك عند الإمام البقاعي في نظم الدرر:

(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير، وصدّ عن سبيل الله، وكفرّ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل. ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافرٌ فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (البقرة: ٢١٧).

"فقد حذف من كل جملة ما دل عليه ما ثبت في الأخرى فهو من وادي الاحتباك، ومر ما صنع في هذا الموضوع من الاحتباك أنه لما كان للقتال في الشهر الحرام قد وقع من المسلمين حين هذا السؤال في سرية عبد الله بن جحش أبرز السؤال عنه والجواب، ولما كان القتال في المسجد الحرام لم يقع بعد وسيقع من المسلمين أيضاً عام الفتح طواه وأضمّره، ولما كان للصد عن سبيل الله الذي هو البيت والكفر الواقع بسببه لم يقع وسيقع من الكفار عام الحديبية أخفى خبره وقتره، ولما كان الإخراج قد وقع منهم نكر خبره وأظهر سبحانه وتعالى ما أبرزه على يد الحنثان، وأضمّر ما أضمّره في صدر الزمان، وصرح

بما صرح به لسان الوقع، ولوح إلى ما لوح إليه صارم الفتح القاطع - والله الهادي" ٢٢٩/٣.

وقال تعالى: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويتسحّبون نساءهم إنه كان من المفسدين) (القصص: ٤).

يقول الإمام البقاعي: "فالآية من الاحتباك، نكر العلو لولا دليلاً على السفل ثانياً، والافتراق ثانياً دليلاً على الاجتماع لولا" ٢٣٩/١٤ ولمزيد من الاطلاع على أمثلة هذا الفن عند الإمام البقاعي في "نظم الدرر" انظر ما يلي: ٣٣٤/٢، ٣٢٤-٣٢٥/٣، ٧٥/٤، ١٥٥، ٢٦٣، ٣٦/٥، ١٤٠/٦، ٩٦/٧، ٢٦٧، ٣٥٧،

٤٦٠، ٥٢/٩، ٤٩/١٠، ٨٦، ٩١، ٤٠٦، ١١١/١١، ١٧٥، ٢٨٥، ٤٠٠/١٣، ١٠/١٤، ٢٢٠، ٢٢٥،

٢٢٦، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٨١، ٣١٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٤٠٠، ٤٨٣، ٦١/١٥، ٢٨٧، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٤،

٣١٢، ١٦٩/١٦، ٣٠٧/١٧، ٢٦٠/١٨، ١٩٤/١٩، ٢٢٠، ٤٥٩/٢٠، ٤٦٠، ١٦٣/٢١، ٢٨٢، ٨/٢٢،

٦٣، ٧٧، ٨٨، ٩٥، ١٤٦، ١٦٧، ١٦٨، ٢٢٣، ٢٣٠، ٢٧٩، ٣٢١.

على المحذوف، إما من لفظه أو من سياقه، وإلا لم يتمكن من معرفته، فيصير اللفظ مخلاً بالفهم، وربما يدخل الكلام بهذا باب الألفاظ، فيهجن في الفصاحة.

ب - التناسب في الذكر:

قد تبدو بعض المعاني أشد علقه في النفس، فيحرص المتكلم على إبرازها وإشاعتها في جو كلامه؛ يكون هذا في كلام البشر، وفي كلام الله بالضرورة أولى وأكد. فللذكر أغراض لا يغني الحذف عنها، على أن الذكر المراد في هذا المقام هو الذكر الموجز البليغ الذي يقابل الحذف في بلاغته، فيعطي من المعاني والتناسبات ما يعطي، إذ البلاغة مراعاة المقامات والأحوال، فالذكر في موطنه بليغ مطابق، والحذف في موطنه بليغ مطابق كذلك. "وقد قلوا إن يحيى بن خالد بن برمك أمر اثنين أن يكتبوا كتاباً في معنى واحد. فأطال أحدهما واختصر الآخر، فقال للمختصر، وقد نظر في كتابه: ما أرى موضع مزيد، وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان"^(١).

ومن الأمثلة التي تشي باهتمام الإمام البقاعي بـ "الذكر" ما يلي:

قال تعالى: ﴿فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾^(٢).

يرى الإمام البقاعي أن التاء هنا جاءت لتناسب كون العلو عليه أصعب من نقبه؛ وذلك لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل. يقول الإمام البقاعي: "وقد حكى ابن خرداذبة عن سلام الترجمان؛ الذي أرسله أمير المؤمنين الواثق إليه حتى رأى أن ارتفاعه مد البصر ولأنهم لو احتالوا ببناء درج من جانبهم، أو وضع تراب حتى يظهروا عليه لم ينفعهم ذلك؛ لأنه لا حيلة لهم على النزول من الجانب الآخر، ويؤيده أنهم إنما يخرجون في آخر الزمان بنقبه لا بظهوره..."^(٣).

وقد يلحظ الإمام البقاعي قيداً ما في الآية، فيرى أن هذا القيد ضروري لمناسبة تأكيد المعنى المراد، وتجليته؛ لما قد يكون فيه من الغرابة، أو المجاز الذي يحتاج إلى زيادة كشف وتوضيح وتصوير. وذلك كتأكيد ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة، ونفيه عن الأبصار كما في قوله تعالى:

﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾^(٤).

(١) أبو موسى، خصائص التركيب، ص ١٣٥.

(٢) لكهف: ٩٧.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ١٢/١٣٨-١٤٠.

(٤) الحج: ٤٦.

وأكد المعنى بقوله: "التي في الصدور" لوجود الضرر بعماها المبطل لمنفعة صاحبها، وإن كان البصر موجوداً، فاحتيج في تصوير عماها إلى زيادة تعيين؛ لما تعرف من أن العمى إنما هو للبصر؛ إعلماً بأن القلوب ما نكرت غلطاً بل عمداً؛ تنبيهاً على أن عمى البصر عدم بالنسبة إلى عماها...^(١).

هذا وقد يفيد الذكر كمالاً وتاماً لا يفيد الإضمار، كما في قوله تعالى:

﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾^(٢).

يقول البقاعي: "ولما كان المقصود المبالغة في تعظيم العلم، بُني للمفعول، وأظهر ما كان أصله الإضمار فقال: "أوتوا العلم" دلالة على أنه العلم الكامل النافع فلا يقدر أحد على تحريف شيء منه لبيان الحق لديهم، وفي ذلك إشارة إلى أن خفاءه عن غيرهم لا أثر له"^(٣).

وقد يكون في الذكر أيضاً إظهار لوصف يكون سبباً في الهلاك والتهديد، بل وعبرة جلية لمن ألقى السمع وهو شهيد وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾^(٤). يقول الإمام البقاعي: "وكان الأصل: عاقبتهم؛ أي آخر أمرهم، ولكنه أظهر فقال: "عاقبة المفسدين"؛ ليدل على الوصف الذي كان سبباً لأخذهم؛ تهديداً لكل من ارتكب مثله"^(٥).

هذا ما أردت تبيانه، فالحنف له مواطن جعلت له فخلق لها، والذكر كذلك، إلا أنني لم أقف عليه طويلاً لكونه الأصل، فلا يحتاج كثيراً إلى تدليل. وعلى كل أرجو وأمل أن يكون في التمثيل على تناسب كل منهما ما يفى ويمتع:

إذا نطقت جاءت بكل مليحة وإن سكنت جاءت بكل مليح

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٦٤/١٣ وقريب من هذا أيضاً ما جاء في قوله تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) العنكبوت: ٤٨. نلاحظ أن في هذه الآية ذكر واضح لكلمات ما جاءت إلا تأكيداً لكلام مثبت ومنفي أيضاً، وذلك لأمر دعوي خاص بالرسالة، يقول الإمام البقاعي: (ولما كان المراد نفسي التلاوة عن كثير الزمن الماضي وقليله، أدخل الجار فقال: "من قبله"... وأكد استغراق الكتاب فقال: "من كتاب" أصلاً، "ولا تخطه" أي تجند وتلازم خطه، وصور الخط وأكده بقوله: "بيمينك" أي التي هسي أقوى الجارحين، وعبر بذلك إشارة إلى أنه لا تحدث الريبة في أمره لعقل إلا بالمواظبة لمثل ذلك مواظبة قوية ينشأ عنها ملكة، فكيف إذا لم يحصل أصل الفعل" ٤٥٣/١٤.

(٢) العنكبوت: ٤٩.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٤٥٤/١٤.

(٤) النمل: ١٤.

(٥) البقاعي، المصدر نفسه، ١٣٨/١٤.

المبحث الثالث: التناسب في التكرار:

ازدهر هذا الفن في ظل الدراسات القرآنية، إذ لما وجّه الطاعنون أسنتهم -وكماعتهم فسي كل زمان- إلى ألفاظ وآيات خُيل إليهم أنها تكررت تكرراً معيباً، كان لزاماً -والحال ما ذكرت- أن ينهض أهل البلاغة من أصحاب هذا اللسان للنب عن كتابهم، وتبيان زيف ما هذى به هؤلاء وأمثالهم ممن لم يرزقوا حظاً من رهافة الحس وسلامة الذوق.

ومن أبرز من عرض لهذا المبحث أهل التفسير، ومن كتب في إعجاز القرآن، أو أي من علومه. أما كتب التفسير، فقد وقفت في الغالب على كثير من الألفاظ والآيات التي تكررت، وحتى على بعض القصص التي بدا فيها تكراراً، وقفت واستخرجت جملة عظيمة من أسرار تلك وفوائده، وأثبتت بما لا يدع مجالاً للشك: بأن كل تكرار في كتاب الله هو ذو أسرار ودقائق لا يمكن حصرها، وإنما يأخذ منها كل حسب استعداده، بله تتحي أمامها جباه أساطين البيان، وتسحر كل سليم قلب، وصافي ذهن، وقوي إدراك. تسحره في سمو معانيها، وسلاسة مبانيها، فلا تجد في كتاب الله تكراراً قبيحاً جاء حشواً لغير فائدة، حاشي- أن تجد في كلام من لورام لجاءهم -كما يقول الإمام البقاعي- بعبارات لا يشمون رائحتها، وبلاغات لا يهتدون إلى وجه معناها أصلاً^(١).

لقد نظرت، ووسعت دائرة النظر محاولاً استقصاء من عرض لهذا الفن، وإذا القوم -فيما خُيل إلي- قد أشبعوه بحثاً ودراسة، الأمر الذي دعا إلى التريث والتروي لمعرفة ما يناسب ذكره هنا، حتى اهتديت -بحمد الله- إلى أن الزيادة في هذا الحقل باتت صعبة. ولذلك نجد الجرجاني وقد اهتم بالريادة في كتبه لم يول هذا المبحث كبير عناية- كما يقول الدكتور أبو موسى^(٢). إلا أن هذا لا يعني أن التجديد مستحيل، بل قد يكون الباحث رائداً بتجديده، أو بلمساته الجديدة لهذا المبحث. وهو ما وجنته عند الإمام البقاعي.

فلقد وقف -رحمه الله- على التكرار بأنواعه، فاستخرج من فوائده وأسواره الشيء الكثير، حتى غدا من درس هذا الفن ولم يطلع على ما كتبه البقاعي، يتمنى -بعد أن أخذ على البلاغيين تجاهلهم لأسرار كثير من الآيات التي تكررت على نمط خاص- لو عرضوا لأسرار هذا التكرار أسلوبياً. ولعمري لو نظر هذا وغيره في "نظم الدرر" لأغناهم وأثرى بحوثهم، وأجاب على كثير من تساؤلاتهم^(٣). وعلى كل فلقد جاء هذا المبحث في مطلبين:

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٠٨/١٩.

(٢) انظر: أبو موسى، البلاغة للقرآنية، ص ١٩٥.

(٣) انظر تعجب وتساؤلات: محمد قاسم، التكرار في القرآن، ص ٥٢.

المطلب الأول: التكرار المفرد أو البسيط

إن المقصود بهذا الضرب هو التكرار الذي يقع - غالباً - في الألفاظ المفردة. قال تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾^(١).

يرى الإمام البقاعي أن تكرار التعريف في هذه الآية يشير إلى أن أخبار القرآن ثابتة مقطوع بصحتها، وهو من باب إنزال الجاهل منزلة العالم، تنبيهاً على أن هذا لا يمكن أن يجله عاقل^(٢).

وقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم، إن الله يحكم ما يريد، يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا شهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً، وإذا حللتم فاصطادوا، ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾^(٣).

نلاحظ أن في هاتين الآيتين أكثر من تكرار، لكن أبرزه: هو تكرار نداء المؤمنين، وتكرار الأمر بالتقوى. أما تكرار نداء المؤمنين فواضح في تناسبه، إذ إن هذه الأوامر وما تبعها من عموم نهي، وخاصة إحلال فرائض الله وانتهاك حرمانه لهو من أعظم الموبقات. كل هذه الأوامر وجوباً وتركاً، وما فيها من إلزام، لا يقوم به أي أحد بل تحتاج إلى من دخل الإيمان في قلوبهم وتمكن منها حتى أصبح علماً دالاً عليهم، لذلك ناسب أن يخاطبهم جل وعلا بهذا الوصف الذي يقتضي رعي العهود، مكرراً إياه كما يقول الإمام البقاعي: تنويهاً بشأنهم، وتنبيهاً لعزائمهم، وتذكيراً لهم بما ألزموه أنفسهم^(٤).

ولأهمية هذا الأمر وعظمه كرر سبحانه الأمر بالتقوى أيضاً إشارة إلى أنها الحاملة على كل خير^(٥)، فلا بد منها سداً لازماً بجانب الإيمان. ولما كانت سورة المائدة خطاباً وإلزاماً ناسب ذكر التقوى فيها بجانب الإيمان أكثر من مرة.

(١) للبقرة: ٢٤.

(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١/١٨٥.

(٣) المائدة ١ - ٢.

(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ٦/٨.

(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٦/١٠.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلةَ وجاهدوا في سبيله لعنكم تفلحون﴾^(١)، ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأنخلناهم جناتٍ للنعيم﴾^(٢)، ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين﴾^(٣).

ولا غرو فإن التقوى هي خوف الله الحامل على البعد عن المحرمات، من لازمها وصل إلى مقام محمود؛ مقام المراقبة الذاتية، وما فيها من غنى عن رؤية غير الله: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾^(٤).

هذا شيء مما قيل من جانب التكرار - في بلاغة الآيتين الأولين وإلا فقد أوردت كتب التفسير فيما حكاه النقاش " أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن. فقال: نعم اعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطبق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عاماً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا"^(٥).

أما قوله تعالى:

﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان...﴾^(٦).

فلقد وقف أنمة التفسير على هذه الآية يناقشون تكرر "اليوم"، إذ سبق هذا قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً، فمن اضطر في مخصصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾^(٧).

(١) المائدة: ٣٥.

(٢) المائدة: ٦٥.

(٣) المائدة: ٩٣.

(٤) المائدة: ٨٨.

(٥) الشوكاني، لمصدر نفسه، ٦/٢.

(٦) المائدة: ٥.

(٧) المائدة: ٣.

لكن جميع تخريجاتهم اقتصرت على القول: بإتمام النعمة في الدنيا كما أتمها فيما يتعلق بأمر الدين، ثم التأكيد على إحلال الطيبات التي سُئل عنها، ومحاولتهم تبيان المقصود باليوم أهو تكرار للتأكيد أم أنه يختلف في كل حالة^(١). هذا ما دار حوله أغلب المفسرين وقريب منه، فأبي شيء بقي للإمام البقاعي؟!

إن نظرة خاطفة في تبيان الإمام البقاعي لمناسبة هذا التكرار لتكشف عن صفاء ذهن الرجل ورهافة حسه، وما كان له من لمسات جديدة في هذا المبحث، إذ لما تقدم النهي عن نكاح المشركات، والمنافرة من جميع أصناف الكفار، وبيان بغضهم وعداوتهم، والحث على طردهم ومنابتهم، وإظهار الغظظة والغلظة لهم لتعظيم دين الله. لما تقدم ذلك، ووصل الدين عند حدّ عظيم لا يحتاج فيه إلى تعظيم معظم، وكانت مخالطة أهل الكتاب لأبد منها عند فتوح البلدان التي وعد الصادق بها، وسبق في الأزل علمها، ووسع الأمر بحل طعامهم ونساتهم في وقت باتت الفتنة في حدّ الأمن، لما كان ذلك كذلك، قال تعالى مكرراً ذكر الوقت الذي أنزل فيه هذه الآيات تنبيهاً على عظم النعمة فيه؛ بتكر ما هم فيه من الكثرة والأمن والجمع والألفة، وتذكر ما كانوا فيه قبل ذلك من القلة والخوف والفرقة. فقال معيداً لصدر الآية التي قبلها إعلماً بعظم النعمة فيه، ومفيداً بذكر وقت الإحلال أنه إحلال مقصود به الثبات لكونه يوم إتمام النعمة فهو غير الأول: ﴿اليوم﴾^(٢).

لم يتوقف البقاعي كغيره عند ذكر التأكيد، أو المقارنة بين هذا اليوم والذي قبله فقط، بل سير غور الآية، مستفيداً كل الفائدة من مناسبة نزولها، ليخرج لنا بلمسة تناسبية لطيفة لم يتبسه لها كثير من المفسرين.

وانظر كذلك إلى تنبيهه لأمر أغفله كثير من المفسرين أيضاً؛ ففي الوقت الذي صب المفسرون فيه جهودهم على استخراج الأحكام الشرعية، وتوجيه الخلافات الفقهية في الآية السادسة من سورة المائدة — ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنبا فاطهروا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾^(٣) — كان اهتمام الإمام البقاعي في التنبيه إلى تناسب وفوائد تكرار الأوامر فيها، يقول:

(١) نظر الرازي، مفاتيح الغيب ٢٩٣/٤، وأبو حيان، المصدر نفسه، ١٨٢/٤-١٨٣، وأبو السعود، المصدر

نفسه، ٢٣٧/٢، وتقايمي، المصدر نفسه، ٤٧/٣.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٤/٦.

(٣) المائدة: ٦.

ولعل تكرير الأمر بالغسل والتيمم للاهتمام بهما، وللتذكير بالنعمة في التوسعة بالتيمم، وأن حكمه باق عند أمنهم وسعتهم؛ كراهة أن يظن أنه إنما كان عند خوفهم وقلقهم وضيق التبسط في الأرض؛ لظهور الكفار وغلبتهم، كما كانت المنة تباح تارة وتمنع أخرى نظراً إلى الحاجة وفقدها، وللإشارة إلى أنه من خصائص هذه الأمة، والإعلام بأنه لم يرد به ولا بشيء من المأمورات والمنهيات قبله الحرج، وإنما أراد طهارة الباطن والظاهر من أناس الذنوب وأوضار^(١) الخلائق السالفة...^(٢).

فقد وظف الإمام البقاعي تلك الأحكام الفقهية لاستخراج الحكمة التناسبية من وراء تكرار الأوامر في هذه الآية، وهو أمر لم ينبه عليه أغلب المفسرين، إذ صُلب الاهتمام على ما في الآيات من أحكام وخلاقات فقهية دارت رحاها على صفحات طويلة من كتب التفسير. إن هذه مجموعة أمثلة تعرفنا من خلالها جزءاً بسيطاً من عناية البقاعي بالتناسب القائم على التكرار المفرد أو البسيط - إن جاز التعبير -^(٣). فماذا عن التكرار المشكل أو المركب؟

(١) الوضوء: محرقة: وسخ الدسم واللبن، أو غسالة السقاء والقصعة ونحوهما، وبقية لهناء وما تشمه من ريح تجدها من طعام فاسد، جمعه: لوضار... انظر: لقاموس مادة (وضر).

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ٣٤/٦.

(٣) ولمزيد من الوقوف على التكرار المتعلق بأجزاء الآية، أو هذا التكرار البسيط، أحيل القارئ إلى التناسب البلاغي الذي استخرجه البقاعي من هذه الآيات: وذلك من نظم الدرر:

١- (أهنا للصلوات المستقيم، صراط الذي نعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) لفتحة: ٦-٧، ٣٨/١-٣٩.

٢- (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات، أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً، إن الله على كل شيء قدير ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وإنه للحق من ربك، وما الله بغافل عما تعملون) البقرة: ١٤٨-١٤٩، ٢/٢٣٢.

٣- (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) البقرة: ٢١٩.

٤- (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) يوسف: ٣٧، ١٠/٨٤.

٥- (وقال الذين كفروا إذا كنا تريباً وأبأؤنا أننا لمخرجون)، النحل: ٦٧، ١٤/٢٠٦.

٦- (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم) العنكبوت: ٢٣، ١٤/٤٢٠.

٧- (وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار، ...، ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار) غافر: ٣٨-٤١، ١٧/٧٦-٧٦.

٨- (يومئذ تحت أخبارها، إن ربك أوحى لها، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) الزلزلة: ٤-٦، ٢٢/٢٠٧.

المطلب الثاني: التناسب في التكرار المشكل أو المركب

لا شك أن هذا النمط من التكرار على درجة من اللطافة والصعوبة إذا ما قورن بالأول، ولذلك كانت عناية القوم به أكثر من صنوه المفرد. والإمام البقاعي قد أشار أيضاً إلى أن الأول -على ما فيه- سهل قريب، ولكن الآخر ليس كذلك، إذ إنه مركب صعب، لا يقوى عليه إلا من أدام الطرق، والتأمل فأعانه الله على ذلك بأن فتح له باباً من الأسرار والعجائب التي تحار في حسنها العقول، وتنتبه أمام جمالها الفهوم. وبهذا فقط يتبين القارئ أسرار القصص المكررات، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى أدعى في تلك السورة، استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سبقت له السورة السابقة، وكذلك الحال -كما سنرى- مع ما تكرر من آيات^(١).

فلقد وقف أحد الباحثين ممن كتب في التكرار خاتماً جزءاً من رسالته بقوله: «إلا أنه مع تقديرنا للجهد العظيم الذي قمنه هؤلاء العلماء الأجلاء، فإنه غني عن البيان أن نشير إلى ضيق الثوب الذي فصله البلاغيون قديماً، وعجزه عن احتواء هذا الأسلوب القرآني بأشكاله المختلفة. وهناك كثير من الآيات القرآنية جاءت بأسلوب التكرار على تنوعه، ولم يحاول البلاغيون بعامة دراستها واستبطان أسرارها. من ذلك على سبيل المثال لا الحصر تكرار آيتي: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَةٌ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٢). ثماني مرات في سورة الشعراء... لقد كان حرياً بالبلاغيين أن يتأملوا هذه الآيات وغيرها مما جاء بأسلوب التكرار ولا يتسع المقام لذكرها»^(٣).

أحسب أن هذا الباحث لم يطلع على تفسير البقاعي، ولو اطلع عليه ورأى ما كتب في تكرار هذه الآيات، لما قال مستنجباً في ختام جزء من رسالته ما ذكرت؛ فإن تكرار ما نكر في سورة الشعراء، وما سأنكره أو أحيل عليه في سورة القمر وسورة الرحمن، وسورة المرسلات، وسورة العلق لمغنٍ إن شاء الله لكل من رام ربطاً وتناسباً بين هذه الآيات وسياقها.

تكرر قوله تعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ في سورة الشعراء ثماني مرات^(٤) وكل ذلك عقب قصص الأمم السالفة؛ تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - وتخويفاً لمن عصى أو تمثل أفعال من سبقه من هذه الأمم، وفي الوقت

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١١/١-١٤.

(٢) الشعراء: ٨-٩.

(٣) محمد قاسم، المرجع نفسه، ص ٥٢.

(٤) الشعراء: ٨-٩، ٦٧-٦٨، ١٠٣-١٠٤، ١٢١-١٢٢، ١٣٩-١٤٠، ١٥٨-١٥٩، ١٧٤-١٧٥، ١٩٠-

نفسه استعطافاً لأصحاب البصائر النيرة، مع سبق الرحمة للغضب: فلقد وُصف سبحانه بالرحمن الرحيم مطلع كل سورة، حتى كلما مر القارئ بآية عذاب تذكر رحمة الله سبحانه وتعالى - فكان دائماً بين خوف ورجاء، يلقه ترغيب دائم، وفي الوقت نفسه ترهيب مصاحب له. يقول الإمام البقاعي: "وفي تكريره سبحانه هذه الآية آخر كل قصة على وجه التأكيد، واتباعها ما نلت عليه من كفر من أتى بعد أصحابها من غير اتعاض بحالهم، ولا نكوب عن مثل ضلالهم خوفاً من نظير نكالهم أعظم تسليّة لهذا النبي الكريم، وتخويف لكل عليم حلِيم، واستعطاف لكل ذي قلب سليم"^(١).

وقال تعالى: في سورة القمر - حيث فصل الإمام البقاعي القول في التناسب التكراري هنا تفصيلاً:-

١- ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكتبوا عبدنا وقتلوا مجنوناً وزادجراً.. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾^(٢).

نبّه الإمام البقاعي أولاً على عظيم فعل العلم والقرآن. ثم أشار برهافة حسّه، وحده نظره، وحسن ربطه إلى التناسب القائم بين لازمة سورة القمر ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾. وبين ما تقنمها من سور أربع هي: "ق"، و"الذاريات"، و"الطور"، و"النجم"، ونلك كما فعل في سورة الشعراء^(٣). وتفصيل ذلك، هو أن قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ جاءت أولاً في ختام قصة نوح -عليه السلام- مع عمومها لجميع القرآن، وذلك إشارة إلى خصوص التذكير بسورة "ق"؛ لما بينهما من جامع الإحاطة؛ أي إحاطة جبل "ق" - على ما قال الإمام البقاعي - بالأرض كلها، وهذا مناسب لطوفان قوم نوح -عليه السلام- بعمومه جميع الأرض.

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٧٩/١٤. ثم شرع الإمام البقاعي بعد ذلك يستخرج ما في هذا التكرار من لطائف تناسبية بديعة، مبتدئاً ذلك بقوله: "وكرر الختام بهذا الكلام في هذه السورة ثماني مرات فلعل من أسروره...٩٣/١٤-٩٤، ولكن نظراً لكونه -على ما ذكر- مختصراً هنا، ومفصلاً في سورة القمر، بحيث جعل ما قال فيها مرجعاً يحيل عليه، فقد رأيت أن أقف والقارئ على هذا التفصيل مكتفياً بما تكررت أو أشرت بالنسبة لسورة الشعراء.

(٢) القمر: ٩-١٧.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٩٤-٩٣/١٤.

٢- قال تعالى: ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر... ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

يرى الإمام البقاعي أن هذه اللازمة ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾^(١). في آخر قصة عاد هي في غاية التناسب مع سورة الذاريات؛ لأن كليهما كان بالريح. فهلاك قوم عاد كان بريح صرصر عاتية قال تعالى: ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرأ في يوم نحس مستمر، تنزع للناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾^(٢). كما أن مطلع سورة الذاريات كان قسماً بالريح وما تفعله، قال تعالى: ﴿والذاريات نرواً، فالحاصلات وقرأ، فالجاريات يسرا، فالمقسّمات أمراً﴾^(٣). إضافة إلى حديث السورة عن عذاب قوم عاد بالريح. قال تعالى: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم، ما نذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾^(٤).

٣- قال تعالى: ﴿كذبت ثمود بالنذر... ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾^(٥).

إن لازمة قصة ثمود ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ هي أيضاً في غاية التناسب مع سورة الطور، بجامع ما بين القصتين من الرج والرجف والذل والصعق، أما في قصة ثمود فظاهر، وأما بالنسبة للطور؛ فلما كان من نكته، وصعق بني إسرائيل فيه. هذا وقد ذكر الصعق شاهداً على ذلك آخر السورة قال تعالى: ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾^(٦).

٤- قال تعالى: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر... ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾^(٧).

(١) القمر: ١٨-٢٢.

(٢) القمر: ١٨-٢٠.

(٣) الذاريات: ١-٤.

(٤) الذاريات: ٤١-٤٢.

(٥) القمر: ٢٣-٣٢.

(٦) الطور: ٤٥.

(٧) القمر: ٣٣-٤٠.

ما أبدع ما أشار إليه الإمام البقاعي أيضاً من تناسب بين لازمة قصة لوط: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من منكر﴾ وبين سورة النجم، حيث إن مدائن قوم لوط قد ارتفعت - كما هو معلوم - إلى عنان السماء، ثم أهويت وأتبعَت الحجارة والحصباء^(١).

ولم يكتف الإمام البقاعي بهذا بل قال عقب ذلك: "وللتكرير نكتة أخرى بديعة جداً..."^(٢). وهذا ملخصها، أو مفادها:

يرى الإمام البقاعي بأن التكرار المتقدم ما هو إلا تأكيد للتقرير، دلالة على اشتداد غضب الله عليهم، المقتضى بالضرورة أنهى العقوبات، إذ إن من اشتد غضبه من إنكار شخص لأمر كان في غاية البيان، ولد في تلك الأمر غاية اللد، فإنه يأخذه ويجمع له جمعاً لا يقدر على العدول عن الحق بحضرتهم، خصوصاً وقد ألقى القبض عليه، فيؤتى به كما ذكرت، فتعرض عليه المعاني المرادة بين ذلك الجمع، فيصير كلما ذكر له نوعاً منها بحضرتهم، قال له: هل ظهر لك هذا؟ فيقول ذاك المنكر: نعم ظهر لي، فلا يزيد ذلك إلا غضباً لما تقدم من عظيم غضبه. ثم يذكر له معنى آخر فيقول: هل ظهر لك هذا؟ فيجيب: بنعم وهكذا يكرر هذا حسب الحاجة، لا يريد بذلك اعترافه بل الزيادة في تبيته وتخجيله، كالمذنب وقد ثبت عليه ذنبه، فتسأله هل فعلت كذا، وأنت عالم - وهو كذلك - أنه فعله، كما أنك متوقع إجابته بالإقرار. وفي حشد من الناس؛ زيادة في الإقرار المفضي إلى التبييت والتخجيل، للقائد إلى درجات في العذاب. وهكذا كما قلت يبقى التكرار إلى أن يشتفي، وفي كل ذلك تنبيه على رده وعصيانته وإقامة الحجة عليه.

لاشك أن هذه نكتة بديعة، فإن فيها من الصور والخيال ما يجعل النفس تتقبل، بله تستدل ما يقول. وكأنه مستحضر لكل طاقاته الذهنية والحسية والمعنوية وغير ذلك في إخراجه لتلك النكتة التناسبية من هذا التكرار.

وفي محاولة منه لإتمام هذا المعلم التكراري التناسبي نقل نص الزمخشري في فائدة تكرار لازمة سورة القمر. فالزمخشري يرى أن فائدة هذا التكرار هو: "أن يجددوا عند استماع كل نبا من أنباء الأولين اذكراً وواعظاً، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعق لهم الشن تارات، لئلا يغلبهم السهو، ولا

(١) انظر جميع ما تقدم من حديث عن التكرار في سورة القمر: ١٠٩/١٩-١١٣ حيث بدأ حديثه عن التكرار بنكر مواضعه في سورة القمر والرحمن ثم قال: "فنظرت في سر تلك فظهر لي والله الهادي...". وهو ما لخصته وبينته.

(٢) انظر، البقاعي المصدر نفسه، ١١١/١٩.

تستولي عليهم الغفلة وهكذا حكم التكرير عبر حاضره للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان^(١).

ومازلنا مع التكرار في سورة القمر فإذا كانت اللازمة المتقدمة، هي اللازمة الرئيسية والمشهورة في السورة، فإن هناك تكراراً آخر فقوله تعالى: «كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ» تكرر أربع مرات في السورة نفسها^(٢). وقوله تعالى: «فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ» تكرر مرتين في قصة لوط^(٣)، فما وجه التناسب في ذلك؟

بدأ الإمام البقاعي بتخريج هذا التناسب على هيئة تحليل رقمي طويل، لكنه في غاية من الدقة والجمال^(٤). ثم أرفف -رحمه الله- ذلك بكلام لطيف آخر منه: وقوفه على تكرار قوله تعالى: «كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ» مرتين في قصة عاد، حيث رأى أن هذا التكرار المخصوص على درجة عالية من التناسب مع حال قريش؛ قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعاد قوم تغطرسوا وتكبروا بشدتهم وقوتهم، وقريش مثل ذلك أيضاً -أو قريب منه- لقولهم إنهم أمنع العرب، وأقوامهم، وأجمعهم للكمالات وأعلامهم. ولذلك كررت هذه الآية في قصتهم مرتين؛ زيادة في تنكير قريش وتحذيرها؛ ولا سيما وقد كان بدء عذابهم من بلدهم مكة المشرفة.

أما تكرار قوله تعالى: «فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ» مرتين أيضاً في قصة لوط، فهو من باب الإشارة إلى أن قوم لوط -عليه السلام- عذبوا بما يردع من كان له قلب بالطمس، فلما لم ينفعهم ذلك أتاهم أكبر منه فكانوا كأمس الدابر ففي كل مرة من العذاب نوح، ولما كان العذاب مرتين، ناسب أن يكون الأمر بالنوح مرتين أيضاً. ولم خصوا بالنوح نون غيره؟ ذلك واضح؛ لما في فاحشتهم الخبيثة ما يستلونه^(٥).

(١) انظر: الزمخشري، المصدر نفسه، ٤/٤٢٨.

(٢) مرة في قصة نوح: القمر: ١٦، ومرتين في قصة عاد: القمر: ١٨، ٢١، ورابعة في قصة ثمود: القمر: ٣٠.

(٣) القمر: ٣٧، ٣٩.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٩/١١٢-١١٣.

(٥) انظر هذا وما تقدم من البقاعي، المصدر نفسه، ١٩/١١٣ ولتتمة بعض أجزاء هذا المبحث، انظر حديثه عن

تكرار قوله تعالى: «فَبَايَ آلَاءِ رِيكَمَا تَكْتَبِينَ» إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن، حيث قال ما ملخصه: لقد تكررت هذه الآية في هذه السورة لفوائد جمّة منها أن المنكر إذا تكرر إنكاره جداً بحيث أحرق الأكباد في المجاهرة بالعناد، حسن سرد ما أنكره عليه، وكلما نكر بفرد منه قيل له: لم تتكره؟! سواء أقر به حال التقرير أو استمر على العناد، فالتكرار حينئذ يفيد التعريف بأن إنكاره قد تجاوز الحد.

وكذلك لتغاير النعم وتعددها واختلافها فقد حسن تكرر التوقيف عليها واحدة واحدة تنبيهاً على جلالها، فإن كانت نعمة فالأمر فيها واضح، وإن كانت نعمة فالنعمة برفعها أو تأخير الإيقاع بها.

والحائثات وإن أصابك بؤسها فهو الذي أنباك كيف تعيها

انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٩/١٥٣.

وهكذا فقد عشنا مع مجموعة من الأمثلة التناسبية لكلا التكرارين؛ التكرار البسيط، والتكرار المركب. ورأينا كيف كان الإمام البقاعي يفوص إلى أعماق بحار التناسب الكامن في التكرار، ثم يحلق في سمائه. فيخرج لنا في الأولى بدرر تناسبية لؤلؤية، وفي الثانية يطلعنا على صور ملونة في غاية الجمال لهذا التناسب وسياقه، بل وما تقدمه من آيات وسور، مما لم يعرض له أغلب المفسرين أو يقفوا عليه. ودون أن يغفل -رحمه الله- تناسب مفردة من المفردات، كما فعل مع لفظة "فثوقوا". الأمر الذي جعلنا نتخيل كيف دب هذا الإمام نفساً جديداً فأحيا أسلوباً بلاغياً لطالما رُمي من قبل بعض من يدعي العلم، ويحسب أنه كذلك^(١).

(١) ينكر أنني تجاوزت في هذا المقام عن كثير من التحليلات الأسلوبية للتكرار القرآني عند الإمام البقاعي، من تلك التي مبناها؛ التفسير الإشاري، والرقمي وغير ذلك. انظر: البقاعي المصدر نفسه، ٩٤-٩٣/١٤، ١١٢/١٩-١١٣، ١٩٣/١٩. ولمزيد من التوسع في موضوع التكرار فيما يتعلق وتكرار الآيات بالذات، انظر سوى ما تقدم؛ وقوفه على مناسبة تكرار آية المرسلات: «ويل يومئذ للمكذابين» عشر مرات ١٧٠/٢١-١٧١، وقوفه على تكرار آيتي سورة العلق: «أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى، أرأيت إن كذب وتولى، ألم يعلم بأن الله يرى» سورة العلق: ١١-١٤، ١٦٤/٢٢-١٦٥ فقد تحدث في ذلك بكلام نفيس أيضاً.

المبحث الرابع: التناسب في التذكير والتعريف:

يعد أسلوب التذكير والتعريف في القرآن الكريم، من الأساليب البلاغية التي تقتضيها أحوال المخاطبين، فلكل منهما موضعه الذي يتطلبه، ولا يحسن فيه غيره، فما يفيد التذكير غير ما يفيد التعريف، وما يناسب مقام هذا غير ما يناسب مقام ذاك. وعلى كل فإن أسلوب القرآن الكريم ينفرد من غيره من الأساليب ويتميز منها، من حيث مطابقتها أسلوبه للموضوع، وللمخاطب معاً... الخ.

ويشبه مبحث التذكير والتعريف - إلى حد ما، من بعض وجوهه - مبحث المطلق والمقيد عند الأصوليين^(١). ولما كان المطلق - عندهم - أصلاً للمقيد، فإن التذكير - إلى حد ما - أصل للتعريف، وبه سابداً: إذ الآخر فيه الحصر والتقييد بالأوجه المعروفة عند النحاة، أما التذكير فليس له أداة يعرف بها، وإنما الأمر قائم على خلو اللفظ من أدوات التعريف^(٢).

أ - التناسب في التذكير

إن ما يهمنا في هذا المقام هو وقوف الإمام البقاعي في بحثه لمفردات القرآن الكريم على كثير من ضروب التذكير، ومحاولته كشف بعض أسرار التناسبية من حيث مطابقتها لسياق المقام.

فلقد حاولت استقصاء عدد كبير من الكلمات القرآنية التي تتميز بتكثيرها. ثم انتقيت جملة منها، وتتبع تفسيرها عند الإمام البقاعي، فألفيته قد تنبه لإظهار بعض وجوه تناسب كل مفردة يرى أنها بحاجة إلى توضيح.

(١) وتوضيح ذلك، انظر في هذين المثالين:

قال تعالى: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقة من قبل أن يتماسا﴾ المجادلة: ٣.

فكلمة "رقة" في هذه الآية لفظ مطلق من كل قيد، تحمل على إطلاقها، فيكون الواجب تحرير أي رقة مسلمة كانت أو كافرة ذكياً كانت أو أنثى بخلاف آية النساء، قال تعالى: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقة مؤمنة...﴾ النساء: ٩٢. إذ هي مقيدة بكونها مؤمنة، هذا ولأهل الأصول في ذلك كلام يظول، برامع في مضانه.

انظر على سبيل المثال: المنصري، أصول الفقه الإسلامي، دروس ومحاورين، ص ١٥١-١٥٦.

وانظر أيضاً: محمد حسين عبد الله، الواضح في أصول الفقه، ص ٣٣٠-٣٣٤.

(٢) من الكتب الحديثة التي عرضت لهذا المبحث تعريفاً وتطبيقاً: عبد الجليل، لغة القرآن الكريم، ص ٣٤٠-٣٤٥.

محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص ٣٠٢-٣٢٣.

مير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجنس، ص ٥٥-٧٠.

ناصر الخنين، النظم القرآني في آيات الجهاد، ص ٦٨-١١٩.

هذه عينة طيبة من الكتب التي درست هذا البحث، أما فيما يتعلق بمراجعة الحوابة فسنذكر بعد قليل في جزء المعرفة.

ومن الجدير بالذكر قبل عرض ذلك، أن أنوّه بأن الدكتور أحمد بدوي قد أشار في كتابه "من بلاغة القرآن": إلى أنه نُظِرَ في مبحث التتكير نظرة طويلة حتى خرج بفوائد جليّة، ذكر أنه لم يسبق إليها^(١). إلى أن قرأت للدكتور أبو موسى فرأيتُه عرض لكلام نفيس رأى فيه غير ما ذكر الدكتور^(٢).

قال تعالى:

﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات﴾^(٣).

في هذه الآية جاءت كلمة "بعض" نكرة؛ إذ لم يصرّح سبحانه وتعالى بذكر من فضل على الآخر، رغم أن المقصود -حتماً- بالفضل: هو سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-. ونحن نلاحظ أن عدم التصريح، وميل الخطاب إلى الإبهام أو الغموض قد أثار النفس، وجعلها تتشوف لمعرفة منزلة هذا الذي فضل على غيره من الأنبياء. وبالتالي فإن هذه الكلمة قد أعطت وقفاً أدبياً ومعنوياً رائعاً. حيث ناسبت بتتكيرها معنى بلاغياً فريداً قوامه: تعظيم شأن الحبيب محمد -صلى الله عليه وسلم- مع إعلاء قدره بما لا يخفى. على أن التتكير ما جاء في هذه الآية، إلا وحببنا علم لا يشتبه، ومتميز لا يلتبس -الأمر الذي ينسحب على أمته ما التزمت بسنته-. إذ هو كما يقول الزمخشري -بما معناه-: من واد قولك للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: أحذكم أو بعضكم، يريد به الذي تعرف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح به وأنوّه بصاحبه. وقد سئل الحطينة عن أشعر الناس، فنكر زهيراً والنابعة ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي، لم يفخم أمره^(٤).

ومنه قوله تعالى:

﴿فإن تولوا فاعلم أنّما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾^(٥).

نلاحظ أن كلمة "بعض" في هذه الآية أيضاً جاءت نكرة، فما وجه التناسب ومقامها؟ إن إبهام كلمة "بعض" إنما هو للزيادة في استدراج وإضلال أولئك الذين تولّوا عن حكم الله، وأرادوا خلافه. فهذا التولّي -على ما فيه من العظمة- هو مجرد ذنب من ذنوب كثيرة جمّة، فقد عظم عليهم أمرهم بسبب هذا الإبهام الذي اكتنف ذنوبهم، فلا يعلمون -والحال ما ذكرت- عين الذنب الذي أصيبوا به؛ حتى لا يحملهم ذلك على الرجوع عنه، وهذا هو قمة الخزي والعار لهم، فضلاً عن كونه تحذيراً من جميع مساوئ أعمالهم. وبالتالي فقد وضع تناسب هذا التتكير مع السياق

(١) انظر: أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص ١٢٨.

(٢) انظر: أبو موسى، المرحع نفسه، ص ٣١٩-٣٢٣.

(٣) البقرة: ٢٥٣.

(٤) انظر البقاعي، المصدر نفسه، ٤/٣-٤، وانظر أيضاً: الزمخشري، المصدر نفسه، ١/٢٩٣.

(٥) المائدة: ٤٩.

الذي أذن بتعظيم هذا التولي، والتشنيع على هؤلاء القوم بكثرة ذنوبهم واجترائهم على مواعنتها^(١).

هذا بالنسبة لكلمة 'بعض' حيث تكررت كثيراً في كتاب الله. فانظر بعدها في قوله تعالى:

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾^(٢).

أي أرض تلك؟ إنها أرض منكورة، مجهولة، خالية، بعيدة عن العمران، يسرح فيها الخيال بعيداً، يتصور من خلالها نفوس إخوته وهم يتأمرون، فالحل إما بقتله أو بإلقائه في هذه الأرض، بحيث يهلك فيها، فلا يُسمع له خبر، ولا يكون له قرار^(٣).

وقد يفيد التتكير معنى التقليل، وربما تشويه رائحة التحقير أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾^(٤).

فرغم كثرة الرزق، ونصيب كل من الخلائق بحيث لا يحصى لكثرتهم، رغم ذلك كله فقد نكره سبحانه وتعالى، وكما يقول الإمام البقاعي -جما معناه- قليلاً وتحقيراً له بجانب قدرة الله سبحانه وتعالى^(٥).

وقد يتحد التتكير مع الأفراد فيعطي معاني كثيرة منها التقليل الذي يفوح برائحة التوبيخ للعموم. كما في كلمة 'نفس' من قوله تعالى: ﴿ولتنتظر نفس ما قدمت لغد﴾^(٦).

لقد نكرت كلمة 'نفس' في هذه الآية بصيغتها الإفرادية - مع إفادتها التعميم - تشير فيما تشير إليه إلى قلة الممثل لهذا الأمر. إذ الحاصل أن النفوس ورغم كل الأوامر، إيجاباً ونفيًا، وترغيباً وترهيباً - إلا ما رحم ريك - لازالت سادرة في غيها، بعيدة عن الحق، متكببة لطريقه، الأمر الذي ينذر بمصير لا تحمد عقباه. حيث زاد الأمر هولاً وتعظيماً ما كان من تتكير كلمة غد وتووينها بعد ذلك، فكل ما لا بُد منه فهو في غاية القرب، لا سيما إذا كان باقياً غير منقضى، ولكنه على طريق الإيهام؛ لتبقى النفس في حالة دائمة من الاستعداد^(٧).

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٨٤/٦.

(٢) يوسف: ٩.

(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٣/١٠.

(٤) البقرة: ٢٢.

(٥) انظر البقاعي، المصدر نفسه، ١٤٧/١ - ١٤٨.

(٦) الخشر: ١٨.

(٧) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٥٥٧/١٩.

ومن الكلمات النكرة التي وقف عليها الإمام البقاعي، وقد امتزجت بالإفراد وأفادت
التقليل كلمة "أذن" في قوله تعالى:
﴿وتعها أذن واعية﴾^(١).

فما زال التاريخ يحدثنا عن قلة الوعاة، حتى إن المدح في كتاب الله كل المدح للقلة، أما
ما يقابلهم من كثرة فإن نصيبها في كثير من الأحيان الذم بعدم التفكير، وغياب العقل عنه، وانتفاء
السمع وغير ذلك من العيوب. وبالتالي فقد أظهرت هذه الآية أن المنتفع بما يسمع قليل،
والحافظ له أقل. دل على ذلك كما يقول الإمام البقاعي: "توحيد الأذن ثم تكثيرها"^(٢).

فهذه الأذن أعني التي تحفظ ما تعي من الأقوال والأفعال الإلهية، وكذلك الأسرار الربانية
فتجعل ذلك رصيماً لصاحبها، هذه الأذن رغم قلتها، إلا أنها مباركة بركة نوح عليه السلام ومن
آمن معه، فهم قليل لم يتجاوزوا المائة، لكن الله بارك في نسلهم حتى امتلأت كما نرى -
الأرض. وقد أفاد التقليل -زيادة على ذلك من الجانب الآخر- تويخاً للناس بقلة الواعي منهم،
إلى غير ذلك من المعاني التي ألمح لها الإمام البقاعي في تفسيره^(٣).

وقد يفيد التكرير -سوى ما تقدم- معنى التكرير. والبقاعي يبين وجه دلالة هذا التماسب،
وكيف يكون التكرير -وهو في الأصل دال على الوحدة- مفيداً لمعنى التكرير.
قال تعالى: **﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتِ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾^(٤).**

إذ النفس في هذه الآية متعاقبة في تناسبها مع سياق الخطاب، حيث يجوز أن يكون المراد
بهذا التكرير كل نفس؛ لكثرة التفريط وقلة الحفظ، وهذا كله عند وقوع العذاب ونزوله، يقول
البقاعي: "وإفرادها وتكريرها كاف في الوعيد؛ لأن كل أحد يجوز أن يكون هو المراد"^(٥)، وبالتالي
فإن هذا التكرير الذي اكتنفته هذه الصيغة إنما هو -كما يقول الزمخشري بما معناه- من بسبب
قولك: رب بلد قطعت، ورب بطل قارعت، ولا تقصد بذلك كله إلا التكرير^(٦).

^(١) الحاققة: ١٢.

^(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٠/٣٥١.

^(٣) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٠/٣٥١-٣٥٢.

^(٤) الزمر: ٥٦.

^(٥) البقاعي، المصدر نفسه، ١٦/٥٣٧ وقريب من هذا أيضاً كلمة "نفس" في قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ التكوير: ١٤ إذ إنه
سياق مهول، فيه تكشف الصحف، فتذكر عدداً من النفوس ما قدمت، فالنفس هنا -كما يقول الإمام البقاعي-
إشارة إلى كل واحدة من النفوس. انظر البقاعي، المصدر نفسه، ٢١/٢٨٣.

^(٦) انظر: الزمخشري، المصدر نفسه، ٤/١٣١-١٣٢، ٤/٥٩٦.

وقد يفيد التكرير أيضاً -إضافة إلى ما تقدم- التحديد والاقتصار كما في قوله تعالى: ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وأزلقنا من السماء ماءً طهوراً، لنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنْعَمَ كَثِيراً﴾^(١).

يقول الإمام البقاعي -ما معناه-: ونكر ما تقدم؛ لأن حفظ هذا الماء في الغدران -لأهل البوادي الذين يبعدون عن الأنهار والعيون وغيرهم- إنما هو لمن أردنا؛ لأنه تعالى لا يسقي جميع الناس على حد سواء، ولكن يصيب بالغيث من يشاء، ويصرفه عن يشاء، ويسقي بعض الناس من غير ذلك، ومصدقا لما رواه ابن عباس رضي الله عنهما - حيث قال: ما من عام بأمر من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما يشاء -رتلا هذه الآية...^(٢).

هذا جزء يسير ربما أقل من القليل - من معانٍ للتكرير كثيرة عرض لها الإمام البقاعي وتناسبها مع مقامها. فمن الإبهام والتقليل والتكثير والتحديد إلى معنى تناسبى أخسر أختم به التكرير، وأفتح به التعريف. قال تعالى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا، فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾^(٣).

يحمل التكرير في هذه الكلمات الربانية تناسبات ومعاني وصوراً أدبية بليغة وعظيمة، فسورة المزمّل من أول ما نزل، وكان الدين آنذاك ضعيفاً، وكان أهله في غاية القلة والذلة والصغار -ليعتبر بهم أهل هذا الزمان، بل كل من آل أمره إلى أن كان في زمان صار فيه الدين غريباً كغريبته إذ ذاك- وكان فرعون في زمانه أعتى الناس وأجبرهم، وأشدهم خداعاً وأمكرهم، وكان بنو إسرائيل في غاية الذل له والطواعية لأمره. ومع ذلك فقد أرسل الله إليه موسى -عليه السلام- وأظهره، وأهلك فرعون ونجى بني إسرائيل -رغم القتل والاستحياء وغيره- تنبيهاً لقريش والعرب وغيرهم، على أن من كان الله معه فلا ينبغي أن يقاوى، ولو أنه أضعف الخلق، وتنبيهاً لهم كذلك على الاعتبار بحال هذا الطاغية الذي يزيد عليهم بالملك وكثرة الجنود والأموال. وقد تم سبحانه هذا المعنى بتكرير كلمة رسول أولاً؛ تنبيهاً على أنه ليس من قوم فرعون، وبالتالي فلا مانع يحميه ولا قريب حميم يشفع فيطاع، تسلياً وإيناساً للحبيب المصطفى وأمه، فرسولهم من عشيرة ذات رفعة ومكانة، فيها من الأقارب من يزود عنه ويحميه، وبالجملة فإن الحال أسهل مما كان. ثم لما أصبح موسى -عليه الصلاة والسلام- معهوداً معروفاً، على ما جاء من معجزات وبيّنات، كانت النتيجة أن عصى فرعون وقومه

^(١) الفرقان: ٤٨-٤٩.

^(٢) انظر: البقاعي، انصر نفسه، ٤٠٢/١٣-٤٠٣، وانظر تخريج الحديث المذكور أيضاً من نفس الإحالة.

^(٣) المزمّل: ١٥-١٦.

الرسول، فاستحقوا عندهما الأخذ والتقهر والغضب؛ ترهيباً للأمة وقد عرفت رسولها وسنته، وكل معجزاته، تنبئها لها وترهيباً من مصير حتمي، ونتيجة منطقية من الغضب والعقاب^(١).

ب - التناسب في التعريف:

أما التعريف فهو ضد التكرير، وهو الإفراد، وهو التخصيص بعد التعميم، وإن شئت فهو تحديد الشيء بين المتكلم والسامع حتى يدور الكلام حوله، هذا يتحدث عنه، وذلك يفكر فيه، وهو نفسه يفرض نفسه على المتكلم والمخاطب^(٢).

وقد عرض العلماء لهذا الأسلوب من الكلام قديماً، وهنا إذ أتحدث عنه من الوجهة التناسبية البلاغية، فقد استغرق هو وصاحبه "التكرير" من الجرجاني في دلائل الإعجاز صفحات كثيرة^(٣).

ويتتبع هذا المبحث عند البلاغيين والنحاة، ألفت أن له أساليب وصوراً متعددة يتعلق بها أغراض محددة، إلا أن غرض المتكلم الأساسي من التعريف، هو الذي يملئ عليه الأسلوب المناسب الذي يحقق ما في نفسه؛ وذلك لأن " لكل أداة من أدوات التعريف طعماً ومذاقاً يختلف عن الآخر، والذي يحدد الاختلاف: ثقل الكلمة ومكانها وقيمتها وشحناتها المختلفة عند المخاطب، فالضمير غير اسم الموصول، غير التعريف بأل...^(٤).

هذا، ولا بد من إشارة خاطفة إلى أن التعريف مبحث نحوي متعدد الأنواع، واسع الأغراض، محله كتب النحو، إذ عرضوا للمعارف فقالوا أرفعها مثلاً: ضمير متكلم، فمخاطب، فعلم، فغائب، فإشارة، فمنادى^(٥). ثم فصل النحاة ذلك؛ فعرضوا لما وضع لشيء بعينه كالمضمرات، والأعلام، والمبهمات، وما عرّف بالألف واللام، أو بالنداء، والمضاف إلى أحدها معنى...^(٦).

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٤/٢١-٢٥ ولزبد من الوقوف على توضيح قاعدة إعادة الكرة والمعرفة انظر: ١٢٤/٢٢-١٢٧ من المصدر نفسه.

(٢) انظر: منير سلطان، بلاغة الكلمة والخملة والخملي، ص ٥٤.

(٣) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٧٧-١٩٨.

(٤) منير سلطان، المرجع نفسه، ص ٥٨.

(٥) السيوطي، مع الخواص، ١/١٨٥.

(٦) انظر على سبيل المثال، بالنسبة للتكبير والتعريف معاً:

سيويه، الكتاب، ٣/١٥.

الأسترابادي، شرح كافي ابن الخاحب، ٣/٣١٦-٣٥٦.

ابن هشام، أوضح المسالك، ١/٧٦-١٦٦.

السيوطي، مع الخواص، ١/١٨٥-٣٠٣.

إذن فإن محل تلك التقسيمات والتحديدات هو كتب النحو، التي عُنيت بذلك واشتغلت بأمثته، وأما ما يعينني من ذلك كله في هذه الدراسة، فهو ما يعني رجل البلاغة من أسرار بيانية، ونكات تعبيرية تصاحب تعبيراً ما دون غيره، ومحاولة الوقوف على الغرض التناسبي من اختيار أداة دون أداة، وسبب تفضيلها على غيرها، أو على الأقل محاولة كشف المعنى المراد منها، وماذا يحدث لو تركها إلى سواها مما هو من نوعها؟ كل ذلك وغيره سأحاول تجلية ما استطعت منه، من خلال عدد من الأمثلة القرآنية التي عرض لها الإمام البقاعي. ووفقاً بذلك على ثلاثة معالم مختارة جعلتها في ثلاثة مطالب رئيسة:

المطلب الأول: التعريف باسم الإشارة

قد يفيد اسم الإشارة معنى العلو في المنزلة، والبعد في الرتبة، وفي موطن آخر قد يفيد إضافة إلى ذلك العظمة والقدرة والتشريف والتبويه بذكر المشار إليه، سواء أكان ذلك للقريب أم للبعيد. كما أنه قد يشير إلى معنى التحقير والتصغير. والسياق وحده عامل رئيسي في الكشف عن هذه الإشارات وإيرازها هي وغيرها. وللبقاعي في هذا كلام جيد، فإنه ليقف على كثير من أسماء الإشارة، ويبين لنا تناسبها مع مقامها مجلياً بذلك جزءاً كبيراً من فوائدها. قال تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾^(١).

نلاحظ من خلال هذه الآية أن أداة البعد "تلك" قد أشارت إلى علو مقادير جميع الأنبياء، وكذلك بعد مراتبهم، وفي الوقت نفسه: علو منازلهم؛ حيث إنها بالمحل الذي لا ينال، والمقام الذي لا يرام. وفي هذا من التناسب ما فيه. فضلاً عن رسمها صورة مثالية علياً للتعاظ وحسن الاعتبار، فإن كان لابد من التقليد والتأسي، فهذه الأمثلة العظيمة المجربة^(٢).

ومنه قوله تعالى في سورة مريم: ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾^(٣).

فاسم الإشارة في هذه الآية قد جاء بعد الحديث عن دار الباطل، وهو في غاية التناسب مع مقامة، فقد أفاد علواً وعظمة تناسب سياق توصيف الجائزة ومدحها، بل بيان قدرها ونبلها، الأمر الذي يقتضي بالضرورة مدح صاحبها ومستحقها. قال الإمام البقاعي: "ولما باينت بهذه

-- العنان، حاشية النصاب على الأخرى، ١/١٥٤-٢٧٤.

^(١) البقرة: ٢٥٣.

^(٢) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤/١-٢.

^(٣) مريم: ٦٣.

الأوصاف دار الباطل، أشار إلى علو رتبته، وما هو سببها بقوله: (تلك الجنة) بأداة البعد؛ لعلو قدرها وعظم أمرها^(١).

هذا وقد يدرك الإمام البقاعي معنى فنياً ذا سمت خاص في استخدام أداة من أدوات الإشارة، فإن أداة القرب "هذه" تدل في موقف ما على سرعة وسهولة في الإخراج، وذلك أعظم في التثبيت والتقرير. يقول في قوله تعالى:

﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكن شرب يوم معلوم﴾^(٢).

فأخرج الله لهم من الصخرة ناقة عشراء كما اقترحوا، فقال مشيراً إليها بأداة القرب إشارة إلى سهولة إخراجها وسرعته...^(٣).

وقد يقصد باسم الإشارة إضافة إلى التثوية والتفخيم، الحضور المخصوص دون غيره. قال تعالى:

﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها﴾^(٤).

وقد ناسب تعيين البلدة التي أشار إليها بأداة القرب؛ لأنها حاضرة في الأذهان، ثم لعظمتها، وشدة الإلف بها، وإرانتها بالأرض التي تخرج الدابة منها، فهي بالتالي حاضرة مانحة إذا أطلقت، انصرف الذهن سريعاً إليها، وعرف أنها مكة^(٥).

وقد ينبه بأداة الإشارة الدالة على البعد إلى معنى دعوي يؤخذ منه عبر وعظات، ومعنى بلاغي عظيم آخر في طياته إشارة إلى القدرة الإلهية، وهوان الظالمين المتمادين في الغي قولاً وعملاً، إضافة إلى ما يفيد من تحقير وإهانة لمتل هذه الأعمال. يقول الإمام البقاعي في تعليقه على تناسب هذه الأداة من قوله تعالى:

﴿وكم أهلكننا من قرية بطرت معيشتها، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين﴾^(٦).

^(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢٧/١٢، وقرب منه أيضاً قوله تعالى: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ قريش: ٣. انظر: لو أن هذه الجملة في غير كتاب الله كانت: "فليعبدوا رب الكعبة" - إذ المراد بالبيت هو الكعبة - لما كان لها من جمال الأولى شيئاً، ولغات تفحبه المشرك إليه، ولضعفت العبارة، وسلبت حياتها، فسبحان من أبدع هذا، وناسبه مع سياقه، وبث في كل من الحيوية ما يخصه به عن غيره. يقول الإمام البقاعي في ذلك: "عمر عنها بالإشارة تعظيماً؛ إشارة إلى أن ما تقدم في السورة للماضية (الفيل) من المدافعة عنهم معروف أنه بسببه، فلا يحتاج إلى تصريح، وأن ذلك جعله متصوراً في كل ذهن حاضراً مشاهداً لكل مخاطب، وفي هذا التلويح من التعظيم ما ليس للتصريح"، ٢٦٦/٢٢.

^(٢) الشعراء: ١٥٥.

^(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٧٧/١٤.

(٤) النحل: ٩١.

^(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٢٢٧/١٤.

^(٦) القصص: ٥٨.

"ولما تسبب عن هذا الاختيار تشوف النفس إلى آثار هذه الديار، سبب عنه الإشارة بأداة البعد إلى منازلهم؛ تنبيهاً على كثرتها وسهولة الوصول إليها في كل مكان؛ لكونها بحيث يشار إليها وعلى بعد رتبها في الهلاك - دليلاً على الجملة التي قبلها"^(١).

وكان الإمام البقاعي ينادي: يا أيها النفس المتشوفة إلى رؤية هذه الديار: اتعظي؛ فرغم شدة حصون هذه الأقوام، ومنعة ديارهم، فقد تركتها آيات العذاب خاوية على عروشها كأن لم تكن بالأمس دياراً.

وقد يرمز اسم الإشارة فيما يرمز إليه إلى تعظيم أمر خبيث تحذيراً من قرب، وإرشاداً إلى ضرورة البعد عنه، فيكون هذا الاسم في غاية التناسب مع معناه كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ، وَمَا أَهْلَ لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما نكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام، نلكم فسق﴾^(٢).

"ولما كانت هذه الأشياء شديدة الخبث أشار إلى تعظيم النهي عنها بأداة البعد، وميم الجمع فقال (نلكم) أي الذي ذكرت لكم تحريمه (فسق) أي فعله خروج من الدين"^(٣).

المطلب الثاني: التعريف "بال"

للبقاعي في التعريف "بال" ملحوظات بلاغية لطيفة، وقف على كثير منها فبين تناسبها مع سياقها، بل وربما قارن بين معنى وآخر، وتناسبه مع سياق الآية التي جاء فيها. يقول في قوله تعالى:

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنِي أن نعبد الأصنام﴾^(٤).

يقول: "وكان هذا الدعاء صدر منه بعد أن سكن الناس مكة، وصارت مدينة، والذي في البقرة كان حيث وضع ابنه بها مع أمه وهي خالية عن ساكن، فدعا أن يجعلها الله بلداً، وأن يجعلها بعد ذلك موصوفة بالأمن، وهو سكون النفس إلى زوال الضرر"^(٥).

إن فالدعاء هنا كان بعد أن صار المكان بلداً، فطلب له الأمن، كأنه قال: اجعل هذا المكان الذي صيرته بلداً ذا أمن وسلامة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿واجنبني وبنِي أن نعبد

(١) البقاعي، المصدر نفسه، ٣٢٨/١٤.

(٢) المائة: ٣.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ١٤/٦.

(٤) إبراهيم: ٣٥.

(٥) البقاعي، المصدر نفسه، ٤٢٤/١٠.

الأصنام^(١)، وقوله: (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق)^(٢). بخلاف ما في سورة البقرة: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً)^(٣)، فنكر هنا وعرف هناك وذلك لأن المقام قفر خرب، فطلب أن يكون بلداً آمناً، وكان ذلك عند تركه هاجر وإسماعيل عليهما السلام في هذا الوادي، كما أن هذا الوادي بعمومه أمن للناس، فناسب لذلك التأكيد فقال: 'بلداً'^(٤).

وقد يدل التعريف 'بال' أيضاً على الكمال كما في قوله تعالى: (ثم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك)^(٥).

فكلمة 'الملك' في هذه الآية محلاة بالآلف واللام إشارة إلى أن الله عز وجل قد أعطى النمرود ملكاً دنيوياً دنيئاً، لكنه كامل بالنسبة للأمميين على جميع الأرض، الأمر الذي يجب أن يكون داعياً إلى الشكر، ولما لم يكن ذلك كذلك جعله سبحانه وتعالى محاجة؛ زيادة في كيده وإرغامه^(٦).

ومن هذا الوادي أيضاً قوله تعالى: (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا)^(٧). يقول الإمام البقاعي: 'أي العرب الذين كانوا حقيرين عند جميع الأمم، فصاروا بك هم الناس، كما دلت عليه لام الكمال، وصار سائر أهل الأرض لهم أتباعاً، وبالنسبة إليهم رعايا'^(٨). فقد أصبحوا هم الناس، وكان غيرهم لا ينطبق عليه هذا، بل يذهب الذهن مع غيرهم كل مذهب، فقد قال ابن يعقوب: قد نص الأئمة على أن الجمع للمحلى يعم الحكم فيه كل فرد، وهو في ذلك أقوى من المفرد^(٩).

وهذا ينسحب على المثال السابق أيضاً، وعلى كل فإن كلمة الناس تكتنز بتعريفها هذا جملاً كثيرة لا حصر لها أهمها: عظم أمر هذا الدين، وعدم التنازل عنه أو التهاون بأي حكم

(١) إبراهيم: ٣٥.

(٢) إبراهيم: ٣٩.

(٣) البقرة: ١٢٦.

(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٥٥/٢، وانظر أيضاً: الرعمشري، المصدر نفسه، ٥٣٦/٢.

(٥) البقرة: ٢٥٨.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٩/٤.

(٧) النضر: ٢.

(٨) البقاعي: المصدر نفسه، ٣١٦/٢٢.

(٩) ابن يعقوب، المنقول، ص ٨٦، وانظر: أيضاً، البقاعي، المصدر نفسه، ٣/٧.

فيه، فهو الكفيل بتغيير الحال، فقد كانوا رعاة إيل، فصاروا به سادة أمم، وما زال الدين هو الدين^(١).

وقد يناسب مجئ التعريف بـ "أل" في سياق ما للدلالة على التحقير والتبشيع. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ، لَا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾^(٢). يقول الإمام البقاعي: "أي جاعوا بأسوأ الكذب؛ لأنه القول المصروف عن منلوله إلى ضده، المقلوب عن وجهه إلى قفاه، وعرف زيادة تبشيع له في هذا المقام، حتى كأنه لا إفك إلا هو؛ لأنه في حق أم المؤمنين - عائشة رضي الله عنها - وهي من أحق الناس بالمدححة؛ لما كانت عليه من الحصانة والشرف والعفة والكرم، فمن رماها بسوء فقد قلب الأمر عن أحسن وجوهه إلى أقبح ألقائه"^(٣).

المطلب الثالث: التعريف بالإضافة

سبق وأن ذكرت بأن لكل أداة من أدوات التعريف طعماً ومذاقاً يختلف عن صوحيباتها، كاختلاف الثمار حسب التربة والمكان عموماً وإن تجانست في نوعها. والحال نفسه مع أدوات التعريف؛ فإن سياق الخطاب هو العمدة في تبيان كل معنى وما يناسبه. ولقد وقف الإمام البقاعي على التعريف بالإضافة، وبين الغرض من ذلك؛ معنى وتناسباً؛ فقد تفيد الإضافة - على سبيل المثال -: تشريفاً وتعظيماً، وقد تفيد في سياق آخر توبيخاً وتهكماً واستهزاءً. قال تعالى: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾^(٤).

نلاحظ أن هذه الناقة قد شرفت بإضافتها إلى لفظ الجلالة، فهي ناقة جاءت بأمر الله، من غير فحل ولا طروقة، بل تم استخراجها بسهولة ويسر من الصخر، ليكون لها شأن عظيم. ونحن نعلم - جميعاً - حسن هذا التناسب، فقد كانت محوراً رئيساً في أحداث قصة قوم صالح عليه السلام كما هو معلوم^(٥).

ومنه أيضاً قوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٦).

^(١) ومثل هذا: الفجر: ١، ٢٢/٢١ والكافرون: ١، ٢٢/٣٠.

^(٢) النور: ١١.

^(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ١٣/٢٢١.

^(٤) الأعراف: ٧٣.

^(٥) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٧/٤٤٤.

^(٦) النصر: ١.

نصر أضيف إلى لفظ الجلالة، فأى وجه للتناسب في ذلك؟

يبدو أنه نصر عظيم، بالغ الأهمية، له شأن يسطر، وذكر يحفر. فهو النصر لكالانتصارات المزعومة إذ به دخل الناس في دين الله أفواجا، فعز الدين، وقويت شوكته، وتحقق به وعد الله -رزقنا الله نصراً قريباً عاجلاً مثله-^(١).

وقد يفيد التعريف بالإضافة -كما سبق ونكرت- توبيخ المخاطب والاستهزاء به، مع غضب شديد يصاحب ذلك، كما في قوله تعالى: «ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم»^(٢). وكقوله: «ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً»^(٣).

فالإضافة في هذين المثالين -كما نرى- ليست على حقيقتها؛ بل هي تبييت وغضب وتوبيخ، لأولئك الذين يزعمون أن الله شركاء، وقد أضيفت إليه سبحانه لتكون أقطع في هذا التوبيخ، وأدل على تناهي الغضب^(٤).

هذا ما أردت تبيانه من أمر التأكيد والتعريف؛ حيث عرفت بكل منهما ثم أردت ذلك بمجموعة من الأمثلة، بينت من خلالها بعض النظرات التناسبية التي كشف عنها الإمام البقلعي، وهو في كل ذلك يعتمد المقام بجميع جزئياته وعناصره.

^(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣١٣/٢٢ هذا وقد جاءت الإضافة التشريفية كثيراً في كتاب الله، وخاصة إضافة النبي صلى الله عليه وسلم وأمه إلى لفظة الجلالة.

^(٢) النحل: ٢٧.

^(٣) الكهف: ٥٢.

^(٤) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ١٤٢/١١، ٧٨/١٣، وانظر أيضاً: الشعراء: ٢٧، ٢٦٠/١٤ من نظم أسرار.

المبحث الخامس: التناسب في الإفراد والجمع

يعد الإفراد والجمع من الأساليب التي وظفها القرآن مع غيرها - لخدمة كثير من الأغراض الدعوية. وقد تنبه الإمام البقاعي - رحمه الله - إلى هذا، فإنه لينظر في الكلمة المفردة، فيبصر من بين ثناياها أسراراً بلاغية تختلف عن تلك التي تنبعث منها مجموعة. وهو إذ يعرض لمثل هذه الأبنية، وما فيها من إشارات بديعة، لمدرک أنه لم يأت إلا على جزء قليل، لا يذكر بالنسبة لكنوزها الجمّة.

أ - التناسب في الإفراد

وقف الإمام البقاعي على قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ... فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجِ كَرِيمٍ، إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

فقال - ما معناه -: أي إن في هذا الأمر العظيم من الإنبات، وما تقمته من العظائم على كثرتة، لعلامة كبيرة وعظيمة جداً لهم ولغيرهم، ممن هو في شك، فإنها علامة وحجة دامغة على تمام القدرة على البعث وغيره، كافية في الدعاء إلى الإيمان، والزجر عن الطغيان. يقول بعد ذلك ما نصّه: "ولعلّه وحدها على كثرتها إشارة إلى أن الدوال عليه متساوية الإقسام في الدلالة، فالراسخون تغنيهم واحدة، وغيرهم لا يرجعون لشيء"^(٢).

هذه لفظة لطيفة من الإمام البقاعي؛ فقد تعورف واشتهر بأن اللبيب تكفيه الإشارة فضلاً عن التصريح، فكيف إذا كان الأمر المتحدث عنه، عليه من الأدلة ما لو التفت المرء يمنة أو يسرة لما أحصى لذلك عدداً؛ إنه الحديث عن قدرة الله وإيداعه. فمن قصد الاتعاظ اتعظ، وغيره لو أتيت به بكل آية ما اعتبر.

وللبقاعي وقفة بديعة أخرى عند قوله تعالى:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

إن الحال ونظم المقال ليلعب دوراً مهماً في تغاير الألفاظ، وعليه يأتي الكلام مرة مجملاً وأخرى مفصلاً، وأحياناً بهيئة الإيجاز، فإذا تبدل المقام ربما ينعطف الأسلوب نحو الإطناب. فقد أفرّد لفظ الرسول في هذا السياق من سورة الشعراء، على حين ثني في سورة طه في سياق قريب من هذا قال تعالى:

^(١) الشعراء: ٣-٨.

^(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١٤/١١.

^(٣) الشعراء: ١٦.

(فَاتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَلَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ، قَدْ جُنْنَاكَ بِآيَةِ مَنْ
رَبِّكَ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَبَعَ الْهُدَى) (١).

هذا التغيير جعل الإمام البقاعي يقف ويقارن بين السياقين، وكيف ناسب آية الشعراء
الإفراد، في حين كانت التثنية في سورة طه أنسب.
يقول مبتدئاً بآية الشعراء:

"أفرده مريداً به الجنس الصالح للثنتين، إشارة بالتوحيد إلى أنهما في تعاضدهما واتفاقهما
كالنفس الواحدة، ولا تخالف: لأنه إما وقع مرتين كل واحدة بلون، أو مرة بما يفيد التثنية
والاتفاق، فساغ التعبير بكل منهما، ولم يثن هنا؛ لأن المقام لا اقتضاء له، للتثنية على طلب نبينا
-صلى الله عليه وسلم- المؤازرة، بخلاف ما مرّ في سورة طه (٢).

فقد توحد اللفظ إذن في سورة الشعراء لأن حكم موسى وهارون -عليهما السلام-
لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة، واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكماً واحداً، فكأنهما
رسول واحد (٣).

هذا -طبعاً- بخلاف ما في سورة طه التي لها نظر عظيم إلى الوزير، والإرشاد إلى
طلبه، ولذلك كانت سبب إسلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وقد صرح سبحانه وتعالى
فيها على لسان موسى عليه السلام بطلب الوزير بلفظه، (واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون
أخي، أشدد به أزري، وأشركه في أمري) (٤). فلذلك كانت العناية بالمؤازرة أكثر، إذ المقام كما
رأينا على معنى المؤازرة (٥).

إن هذه الوقفة لمن الشواهد على اهتمام الإمام البقاعي بالكشف عن وجه التناسب في كثير
من مثل هذه الصيغ، ومع ذلك فقد اخترت مثالين آخرين أود أن أنكرها، لأقف وناقضاً على
مزيد معرفة بحس البقاعي المرفه ونوقه السليم في كشفه النقاب عن التناسب البلاغي في هذه
الأبنية. فقد وقف على قوله تعالى:

(ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت
كلمات الله، إن الله عزيز حكيم) (٦).

(١) طه: ٤٧.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١٤/١٩.

(٣) انظر: الرمحي، المصدر نفسه، ٣/٢٩٥-٢٩٦ فإن له كلاماً وتفصيلاً في هذه المسألة.

(٤) طه: ٢٩-٣٢.

(٥) انظر: البقاعي للمصدر نفسه، ١٢/٢٩٠-٢٩١. وانظر أيضاً: البقاعي، مساعد النظر، ١/١٨٣.

(٦) تسمان: ٢٧.

وقف على هذه الآية ليبين بأن صيغة التوحيد لكلمة "شجرة" فيها من التناسب ما لا يكون في اسم الجنس بعامة، ففي صيغة التوحيد استغراق في جنس الشجر، بل وتقصيه شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وبريت أقلاماً^(١).
وكذلك عند قوله تعالى:

﴿إِيلَافٌ قُرَيْشٍ، إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(٢).

فلقد وقفت على هذه الآية طويلاً، فلم أجد من كتب التفسير - حسب اطلاعي - من عوض لوجه تناسب أفراد الرحلة، إلا ما كان من الإمام البقاعي؛ إذ وقف بحسه الأبي المرفه على هذه اللفظة، وبين حسن تناسبها بهيئتها التي جاءت عليها مع سياقها، فهي لم تأت مثابة، إذ لو جاءت كذلك، لما شملت كل رحلة، ولأعطت معنى محدداً غير معنى الأفراد الذي حمل في طياته من البشارة ما حمل، يقول الإمام البقاعي ما نصّه: "وأفرد الرحلة في موضع التثنية لتشمل كل رحلة - كما هو شأن المصادر وأسماء الأجناس - إشارة [لهم] بالبشارة بأنهم يتمكنون عن قريب من الرحلة إلى أي بلد أرادوا؛ لشمول الأمن لهم وبهم جميع الأرض؛ بما نشره الله سبحانه وتعالى من الخير في قلوب عباده، في سائر الأرض بواسطة هذا النبي الكريم الذي هو أشرفهم وأعظمهم وأجلهم وأكرمهم"^(٣).

وهكذا الحال مع كثير من الأمثلة، فإنك لتجد له - يوماً - وقفات أدبية خلابة، ذات سمات تناسبي خاص، تسيب باقات من اللطائف البلاغية، وما فيها من تناسب يجعلها تتأخي وسياقها. هذا ما كان من أمر الأفراد، فما بال الجمع؟!

ب - التناسب في الجمع

وقف الإمام البقاعي على صيغ الجمع - كما وقف على صيغ الأفراد - وبين بعض تناسبها مع سياقها. من ذلك وقوفه على تبيان وجه تناسب جمع القلة لكلمة "الثمرات" في قوله تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٤).

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ١٩٦/١٥، وانظر أيضاً: الزمخشري، المصدر نفسه، ٤٨٦/٣.

(٢) قریش: ٢-١.

(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٦٥/٢٢.

(٤) انفرة: ٢٢.

'وأتى بجمع القلة في الثمر، ونكر الرزق -مع المشاهدة أنهما بالغان في الكثرة إلى حد لا يحصى- تحقيراً لهما في جنب قدرته، وإجلاله...^(١).

فالثمر على كثرته لا يُحصى وهو لهذا قليل، بل حقير إذا ما قورن بقدرة الله عز وجل، وبالتالي، فإن هذا التناسب الجمعي لهو من الأدلة الواضحة على تفرده سبحانه وتعالى، بل فيه حجة على كل من عاند، فأبى إلا المقارنة بين الخالق والمخلوق، فسبحانه وتعالى عما يصفون. ومن هذا أيضاً تنبيهه إلى مناسبة الجمع في قوله تعالى:

«إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، الحق من ربك فلا تكن من الممترين، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين»^(٢).
فالبقاعي يرى أن فائدة الجمع في هذا السياق هي الإشارة إلى القطع بالوثوق بالكون على الحق، ولهذا فقد ناسب أن يخاطبهم بهذه الصيغة^(٣).

هذا -إن- ما كان من أمر الإمام البقاعي مع الجمع، الذي سأتوج ختامه بمثال جمع بين الصيغتين في تناسب ذي سمت إعجازي خاص؛ حيث أجرى فيه صاحبنا مقارنة بين المقامين من سورتي الأعراف وهود، وخرج لنا منهما بنكات تناسبية بديعة.

ج - موازنة بين الأفراد والجمع في سياقين مختلفين

نظر البقاعي -مركعادته- نظرة ناقبة، وبما أوتي من سلاح بلاغي في أفراد لفظية "دار" مع "الرجفة" في قصة صالح وشعيب من سورة الأعراف. وفي جمع هذه اللفظة مع "الصيحة" في القصتين نفسيهما من سورة هود.

قال تعالى في سورة الأعراف: «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا نَعْمَدْنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ»^(٤).

وقال في السورة نفسها:

«وقال الملائكة الذين كفروا من قومه لنن ابغتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين»^(٥).

^(١) انظر: البقاعي، للصدر نفسه، ١٤٧/١.

^(٢) آل عمران: ٥٩-٦١.

^(٣) انظر: البقاعي، للصدر نفسه ٤٤٣/٤.

^(٤) الأعراف: ٧٧-٧٨.

^(٥) الأعراف: ٩٠-٩١.

وأما في سورة هود فقال: ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾^(١).

وقال في السورة نفسها أيضاً: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾^(٢).

نظر الإمام البقاعي في ذلك فرأى أن مقصود "الأعراف": إنذار المعرضين، والرجفة أنسب من الصيحة في ذلك؛ لقوتها وعدم الإلف لها. بخلاف سورة هود التي من مقصودها النظر إلى الشرح والتفصيل، والديار والصيحة أقرب -بالتالي- لذلك. على أن تفصيل هذا كله هو: أن للزلزلة إذا كانت في شيء واحد (دارهم) فهي أقوى وأمكن، أما الصيحة فمن شأنها الانتشار، وما يتسبب عنه من عموم الموت، وبالتالي فهي في الجمع (ديارهم) أنسب، مع ضرورة الاحتكام في سياق النصين إلى المقام.

يقول الإمام البقاعي: ولعل توحيد الدار هنا مع الرجفة في قصة صالح وشعيب -عليهما السلام- في قوله تعالى: ﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي مساكنهم، وجمعها في القصتين مع الصيحة في سورة هود -عليه السلام- للإشارة إلى عظم الزلزلة والصيحة في الموضعين؛ وذلك لأن الزلزلة إذا كانت في شيء واحد كانت أمكن، فنكون في المقصود من النكال أعظم. والصيحة من شأنها الانتشار، فإذا عمت الأماكن المتباعدة، والديار المتباعدة، فأهلكت أهلها، ومزقت جماعتها، وفرقت شملها، كانت من القوة المفرطة، والشدة البالغة، بحيث تنزعج من تأمل وصفها النفوس، وتجب له القلوب. وحاصله: أنه حيث عبر بالرجفة وحد الدار، إشارة إلى شدة العذاب بعظم الاضطراب، وحيث عبر بالصيحة جمع؛ إيماءً إلى عموم الموت بشدة الصوت، ولا مخالفة؛ لأن عذابهم كان بكل منهما، ولعل إحداهما كانت سبباً للأخرى، ولعل المراد بالرجفة: اضطراب القلوب اضطراباً قطعياً، أو أن الدار رجفت، فرجفت القلوب، وهو أقرب، وخصت الأعراف بما ذكر فيها؛ لأن مقصودها: إنذار المعرضين، والرجفة أعظم قرعاً لعدم الإلف بها، والله أعلم^(٣).

ثم قال:

«وخصت هود بما ذكر فيها -أيضاً-؛ لأن لمقصودها أعظم نظر إلى التفصيل، وكل من الديار والصيحة أقرب إلى ذلك»^(٤).

^(١) هود: ٦٦-٦٧.

^(٢) هود: ٩٤.

^(٣) البقاعي، المصدر نفسه، ٤٤٩/٧-٤٥٠.

^(٤) البقاعي، المصدر نفسه، ٣٢٥/٩-٣٢٦.

هذا ما وسع المقام نكره من أمر الإفراد الجمع، حيث عرضت لكل منهما عند الإمام البقاعي، وذلك من خلال الأمثلة التوضيحية التي أمل أن أكون قد وفقت في اختيارها^(١).

(١) لمزيد من الاطلاع على هذا الباب انظر ما يلي:

- البقرة: ٢١٧، ٢٣٤/٣.
- "الأعراف": ١٦١، ١٣٦/٨.
- "الحل": ٤٨-٤٩، ١٧٤/١١.
- "ص": ٤٩-٥٠، ٤٠١/١٦.
- "الفجر": ١٥-٢٠، ٣٥/٢٢ وإليك ختام هذه الإحالات بهذا الشأن، قال تعالى: ﴿قَوْلًا لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ الماعون: ٤-٥.

يرى الإمام البقاعي في صيغة الجمع لكلمة "المصلين" من الفوائد الدعوية والأخلاقية الشيء الكثير؛ إذ إن الحق حق وإن قسّل أتباعه، كما أن الباطل باطل وإن كثر أتباعه، فالعبارة دوماً بالنوع لا الكم، فليس المطلوب من المساجد بالناس، بل المرجو إعمارها بمن آمن منهم بالله واليوم الآخر... الخ.

﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يحش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ التوبة: ١٨.

يقول الإمام البقاعي:

"وأني بصيغة الجمع تنبيهاً على أن الكثرة ليست لها عنده عزة؛ لأن إهانة الجمع مستلزمة لإهانة الأفراد من غير عكس" ٢٨٠/٢٢. ومنه يوحد أن خطأ فرد في جماعة إسلامية لا يعني بالضرورة خطأ سائر الجماعة كنهها، بخلاف ما لو كان مهاجها حاضراً فإن هذا الغيب ينسحب على كل فرد من أفرادها وإن حاولوا الترويج لطريقتها بكل الوسائل والسليل. وإخالف نفسه لكن ما جاء من عسند القرب فيما يتعلق بمفهوماً عن الحياة، إذ هو منبثق عن عقيدة غير سليمة وبالتالي فكل ما انبثق عنها مردود، وإن صبغوه بصغفات إسلامية، أو بثوه عن طريق بعض الزعامات المأحورة، أو حتى عن طريق بعض من يدّعي العمل الإسلامي.

المبحث السادس: التناسب بين اللفظ والمعنى

إن النظر في ملائمة المفردة وتناسبها مع موضعها، وتام مطابقتها لما يقتضيه مقامها من حيث الاختيار، أو التقديم والتأخير أو غير ذلك من الأساليب البيانية لنظر قديم لمسناه في كثير من بدايات النقد الأدبي؛ فخطاب النابغة لحسان، وطرفة للمتمس، وابن هرمة الشاعر مع من أنشده بيته المشهور، كل ذلك وغيره أشهر من أن يذكر. وأحسب أن هذه البدايات قد نبهت بوضوحها كبار الشعراء وكبار الرواة والنقاد أيضاً إلى ضرورة الاتفاق على أن الفن الأدبي، أو العمل الأدبي الذي يرتفع بصاحبه هو ما جمع وناسب بين اللفظ الشريف والمعنى الشريف. حتى عدّ هذا الكلام أصلاً رئيساً لدراسة نظم القرآن، وإعجازه البياني بعامته فيما بعد^(١).

ومن النظرية في انتلاف اللفظ مع معناه - إشارة إلى ما في الحواشي - إلى الأمثلة التطبيقية من نظم الدرر، فالبقاعي ممن اهتم بإظهار تناسب المفردة وسياقها، وذلك رغم اهتمامه بالجمل أكثر من غيرها، إذ المفردة في تركيبها، ليست بمعضلة عنده، أو حتى قضية تستحق المتابعة الجادة؛ لأن أغلب المفسرين قد برعوا في ذلك، وعلى كل فقد قال في مقدمته مبيناً اختلاف الألفاظ حسب أغراضها، وتغير النظم أيضاً نتيجة لذلك^(٢)، الأمر الذي دعاه - وإن كان قد صرح بسهولة هذا المسلك - إلى الاهتمام بالقيمة الجمالية التعبيرية للمفردة، إذ كيف يرى جمالاً وضاءً، وأنساً ممتعاً ولا يعبر عنه! كلا، بل لقد استحسّن اللفظة وبين وجه استحسانه يياها وكأنه يتمثل بذلك قول الجرجاني:

«وجملة ما أردت أن أبينه لك: أنه لا بد لكل كلام تستحسّنه، ولفظ تستجده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلّة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعينا من ذلك دليل»^(٣). وعلى كل فهذه مجموعة من المفردات، نحاول أن نتعرف من خلالها نظرة البقاعي التناسبية.

٥٣٥١١٣

(١) من المعلوم أن هذا العنوان من المباحث الشائكة الوعرة التي أضنت صناع البيان عن البست للقاطع في أمرها، أو القول لفصل في شأنها - ولا أقول هذا إلا تنبيهاً للقارئ على ذلك -؛ إذ إن استقصاء آراء العلماء في التناسب بين اللفظ والمعنى طريق طويل، وموضوع مستقل يرجع في مظانه. على أنني قد لخصت هذه القضية من أمّهات الكتب القديمة، ثم أثبتتها في حاشية هذا المبحث، ولكن بعد مراجعتي لهذه الرسالة - واستشارة أحد الأساتذة الأفاضل - رأيت أن هذه الحاشية تخيلة على المبحث موضع الدرس، فحفظتها واكتفيت بالتوبة.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١٤/١.

(٣) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٠٠.

١ - التناصب في لفظة (ليلة) من قوله تعالى: ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾^(١).

لقد وقف الإمام البقاعي على لفظة "ليلة" ليبين شيئاً من جمالها وتناسبها مع مقامها، فقد هلك فرعون ونجا بنو إسرائيل، فوعد الله موسى عليه السلام أن ينزل عليه التوراة، وضرب له هذا الميقات، فهو ميقات متميز، بلفظة إعرابها تمييز، وأصواتها ذات صفة تدل على الخفاء والهدوء مع رائحة همس لا إزعاج فيه، بل إن في "الياء" دلالة استغراق في المناجاة، وكأن النوم قد غاب عن تلك المدة، وما أئذ المناجاة في الليل!. يقول الإمام البقاعي في ذلك: "وخص الليل بالذكر إشارة إلى أن أئذ المناجاة فيه، وإلى أنه لا نوم في تلك المدة، بل المناجاة بعامة ليلاً ونهاراً"^(٢).

٢ - التناصب في (إذا و إن) من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾^(٣).
ينظر الإمام البقاعي إلى "إذا" فيرى من خلالها بشارة لا تكون لو استبدلت "إن"، إذ الأولى فيها من الأتس والسعادة ما فيها، حيث أشارت مبشرة إلى أن الأمة مهما عصت وابتعدت عن سبيل الحق، فإن ذلك ليس إلا غيماً لا بد أن ينقشع وإن طال فصله، فالأصل في الأمة الطاعة والامتثال؛ لذا عبّر سبحانه بأداة التحقيق ليؤكد هذا المعنى ويقرره^(٤).

وضدّه ما جاء في قوله تعالى من نفس الآية:

﴿ وإن كنتم جنباً فاطهروا، وإن كنتم مرضى أو على سفر... ﴾^(٥).

ففي هذه الجملة من الآية نرى استخدام حرف للشك "إن" الذي أفاد أولاً: أن الأصل في الإنسان الطهارة، أما الجنابة فعارض يحصل له، فإن وقع فهذا حكمه هنا. وفي الثانية بشارة وإشارة إلى أن الرخاء أكثر من الشدة، وهو الأصل وغيره طارئ لا يقاس عليه، وفي هذا أمل وبت عزيمة لكل من هان وضعف أمام أي مرض مهما كان، جسمانياً، أم نفسياً أم اجتماعياً أم غير ذلك من ضروب الأمراض - عاقبنا الله وإياكم منها ورزقنا السلامة -^(٦).

(١) البقرة: ٥١.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ٣٦٢/١.

(٣) المائدة: ٦.

(٤) انظر، البقاعي، المصدر نفسه، ٣٠/٦.

(٥) المائدة: ٦.

(٦) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٣٤/٦.

٣ - التناصب في لفظة (فأصبح) من قوله تعالى: ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾^(١).

إذ من المعلوم أن للصباح خصوصية تتميز على غيره من الأوقات، من حيث كونه بزوغ فجر جديد، فيه محل توقع ارتياح وهدوء، إذ النفس لم تدب بعد إلى الحياة. قال الإمام البقاعي: "وعبر بالإصباح والمراد جميع الأوقات؛ لأن الصباح محل توقع الارتياح"^(٢). فلما كان جرمه عظيماً، استحق أن تنزل بساحته الهموم في كل حين، وخاصة وقت الصباح؛ وقت مظنة التجدد والارتياح.

٤ - التناصب في لفظة (أكرمي مثواه) من قوله تعالى: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه﴾^(٣).

وقف الإمام البقاعي على هذه الآية ولسان حاله: ما حكمة اختيار "أكرمي مثواه" على "أكرميته"؟ وما وجه التناصب في هذا؟ إن إكرام مقام الرجل أعظم من الأمر بإكرامه نفسه، "فلأجل عين تكرم ألف عين"، وبهذا يكون المعنى متناسباً كل التناصب مع ما يراد منه عليه السلام، وما يراد له كذلك، فأكرميته إكراماً عظيماً بحيث يكون ممن يكرم كل ما لا يبسه لأجله؛ ليرغب في المقام عندنا. وهذا لعمرى من النكات البديعة في إظهار تناسب لفظة دون أخرى^(٤).

٥ - التناصب في لفظة (عوجاً) من قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً، فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾^(٥).

يتساءل الإمام البقاعي عن وجه التناصب في اختيار كلمة "عوجاً" - في هذه الآية - بالكسر مع أن هذه الكلمة تستخدم للمعاني لا للأعيان، والأرض و كذلك مواضع الجبال أعيان. ثم يجيب قائلاً: "إنها استخدمت نفيّاً للعوجاج على أبلغ وجه، بمعنى أنك لو جمعت أهل الخبرة بتسوية الأراضي، لاتفقوا على الحكم باستوائها، ثم لو جمعت أهل الهندسة فحكّموا مقاييسهم العلمية فيها لحكموا بمثل ذلك"^(٦).

(١) المائة: ٣٠.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ١٢٢/٦.

(٣) يوسف: ٢١.

(٤) سفر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٨/١٠.

(٥) طه ١٠٥-١٠٧.

(٦) البقاعي، المصدر نفسه، ٣٤٥/١٢، وانظر أيضاً: الزمخشري، المصدر نفسه، ٨٥/٣.

٦ - التناصب في قوله تعالى: ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾^(١).

عرض الإمام البقاعي لبيان تناسب هذا التعبير بكلام بديع وطويل منه قوله: "ولما كان الزيت يختلف باختلاف شجرته في احتجابها عن الشمس وبروزها لها؛ لأن الشجر ربما ضعف وخبث ثمره بحائل بينه وبين الشمس، بين أن هذه الشجرة ليست كذلك فقال: ﴿لا شرقية﴾ أي ليست منسوبة إلى الشرق وحده؛ لكونها بحيث لا تتمكن منها الشمس إلا عند الشروق؛ لكونها في لحف جبل يظلها إذا تضيقت الشمس للغروب ﴿ولا غربية﴾؛ لأنها في سفح جبل يسترها من الشمس عند الشروق. بل هي بارزة للشمس من حين الشروق إلى وقت الغروب؛ ليكون ثمرها أنضج فيكون زيتة أصفى"^(٢).

وهذا توجيه حسن لتبينه التناصب بين شرقية وبين غربية، بل هو من التوافق الجيد والتناصب الطيب بين المفردات التي أشار إليها الجاحظ حين قال: قال عبيد الله بن سالم لرؤية: مت يا أبا الجحاف إذا شئت. قال: وكيف ذاك؟ قال: رأيت اليوم عقبه بن رؤية ينشد شعراً له أعجبني. قال: فقال رؤية: نعم إنه ليقول، ولكن ليس لشعره قران"^(٣).

فقضية التناصب والقران من القضايا المهمة التي لها أثرها في المتلقي، ولذلك لا غرو أن تجد الجاحظ يكررها أكثر من مرة في بيانه^(٤).

٧ - التناصب في لفظتي (خشى و الرحمن) من قوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين

غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾^(٥). عرضت الآيات قبل ما ذكرت إلى يوم الوعيد، وحساب من غفل وأعرض، وإقامة الحجة عليه... الخ، وبعد ذلك انتقل السياق وقد عطف ثنياه إلى المؤمنين المتقين، والحديث عنهم، ومن ثم فإن السياق أصبح رجاء ورحمة، على حين كان قبل رهبة وخوفاً. وعليه كان اختيار "خشى" على خاف، فالخشية كما يذكر صاحبنا في كتابه أدق وألطف من الخوف، فكأنها قريبة من الهيبة، كما أن السياق هو بيان ستر وخفاء، وليس سياق إعلان وإظهار، ولو كان الأخير لناسبه "خاف" التي توحى بذلك، بخلاف جرس أصوات خشى وما فيها من أنس ولطف؛ ليكون نللك

(١) النور: ٣٥.

(٢) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٧٤/١٣-٢٧٥.

(٣) الجاحظ، البيان والنبين، ٢٠٥/١، ٢٢٨.

(٤) قال الجاحظ في موضعين مختلفين من "البيان والنبين": "قال عمر بن الخطاب لعرض الشعراء: أنا أشعر منك! قال: وم ذاك؟ قال: لأن أقول البيت وأحاه، وأنت تقول البيت وأمن عمه" ٢٠٦/١، ٢٢٨.

(٥) "ق": ٣١-٣٣.

متناسباً غاية التناسب مع لفظة "الرحمن" دون الجبار أو القهار، الأمر الذي يدل على أنها خشية مقرونة بأنس ورجاء وطمع، فهي خشية ممزوجة باستحضار الرحمة العامة للمطيع وللعاصي، وبذلك يكون الخوف مع غيرها من باب أولى.

كما أن عناصر المقام التي يراعيها الإمام البقاعي في توجيهاته تشهد للخشية وما فيها من أنس ورجاء بتناسبها مع الحفظ والإنابة، وبهذا نرى تعانق الخشية في تناسبها مع اسمه سبحانه وتعالى الدال على الرحمة والمغفرة^(١).

٨ - التناسب في (فقدر عليه) من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾^(٢).

نلاحظ مجيء "فقدر عليه" بدلاً من أهانه؛ لتناسب السياق الخارجي خاصة، وذلك صوناً لأهل الله، ومراعاة لحالاتهم؛ لأن أكثرهم مضيق عليه في دنياه، من قبيل الابتلاء والامتحان، كما أن ترك الإكرام لا ينحصر بالضرورة في كونه إهانة. هذا فضلاً عما في هذه اللفظة من تعليم للأدب معه سبحانه وتعالى^(٣).

٩ - التناسب في لفظة (وتواصوا) من قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾^(٤). أختم حديثي في هذا الموضوع بختام السورة التي شملت جميع علوم القرآن، حتى قال عنها الإمام الشافعي رضي الله عنه: "إنها سورة لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتمهم"^(٥). لكني - طبعاً - لا أريد أن أقف على تفسير هذه الآية وما تحمله من دلالات يعجز المرء عن تسطيرها، وإنما سأكتفي بتعليق البقاعي على تناسب لفظة "وتواصوا". نلاحظ أن في هذه اللفظة إشارة واضحة إلى الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستعمال اللين بغاية الجهد. وهذا لا يكون إلا ممزوجاً بالصبر الذي هو خلاصة الإنسان وسره وصفاءه وزينته وعصارته؛ الذي لا يوصل إليه إلا بضغط الإنسان لنفسه وضبطها وقسرها على أفعال الطاعة، وقهرها على لزوم السنة والجماعة، حتى يصير الصبر لها بالتدريب عادةً وصناعة. ونحن لا يخفى علينا أهمية جعل الحق دائماً نصب الأعين، وملازمة ذلك للصبر. ومن الجدير بالذكر

(١) انظر: البقاعي، المصدر نفسه، ٤٣٢/١٨-٤٣٣ وانظر أيضاً: الزمخشري، المصدر نفسه، ٤/٣٨٠.

(٢) الفجر: ١٦.

(٣) انظر البقاعي: المصدر نفسه، ٣٣/٢٢.

(٤) العصر: ٣.

(٥) البقاعي، المصدر نفسه، ٢٣٤/٢٢.

أيضاً أن هذه الكلمة تفيد الاستمرارية التامة دون التوقف أو الملل، وهذا من أساسيات الالتزام والدعوة إلى الله عز وجل^(١).

هذه مجموعة أمثلة رغبت في إثباتها لأدلل - ولو جزئياً - على توجيه الإمام البقاعي لتناسب بعض الألفاظ ومعانيها، بحيث يبرهن رحمه الله على تلازمها وتوافقها مع جيرانها وسياقها، وكل ذلك بحس يتسم بالرفافة وحسن التعليل، فلا نرى بذلك ولا يخيل إلينا لفظة قلقة نابية مثلاً -حاشا- ولا أقل من ذلك ولا أكثر^(٢).

وفي ختام هذا الفصل من الدراسة أقول موجزاً: لقد لاحظنا من خلال استعراض عدد من الظواهر السياقية أن الإمام البقاعي يولي المقام عناية رئيسة في تخريجه لأي وجه من وجوه التناسب. كما لاحظنا - أيضاً - تنبئه لكثير من اللطائف التناسبية الفريدة، وما فيها من إشارات بلاغية في غاية التناسب ومقامها. وكل ذلك من خلال الأمثلة التطبيقية الموضحة - إن شاء الله تعالى - .

(١) البقاعي، انصهر نفسه، ٢٢/٢٤٠.

(٢) ولزبد من الوقوف على أمثلة التناسب بين الألفاظ ومقاماتها وتوجيه الإمام البقاعي لها ينظر على سبيل المثال من نظم الدرر:

- ١- (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا تقلائد)، لئاندة: ٢، ٨/٦.
- ٢- (اعدلوا هو أقرب للتقوى) لئاندة: ٨، ٤٢/٦.
- ٣- (وليضرن بخمرهن على حيوهن) النور: ٣١، ١٣/٢٦٠.
- ٤- (إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) الشعراء: ٤، ٨/١٤.
- ٥- (وأمرنا عليهم مطراً فساء مطر المنزّلين) الشعراء: ١٧٣، ٨٤/١٤.
- ٦- (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) الحجرات: ١، ١٨/٣٥١-٣٥٢.
- ٧- (أفلا يظفرون إلى الإبل كيف خلقت) العاشية: ١٧، ١٣/٢٢-١٥.
- ٨- (وإلى الجبال كيف نصت) العاشية: ١٩، ١٦/٢٢.
- ٩- (والليل إذا يسر) الفجر: ٤، ٢٢/٢٢.
- ١٠- (فصب عليهم ربك سوط عذاب) الفجر: ١٣، ٢٢/٣١.
- ١١- (والضحى) الضحى: ١، ١٠٠-١٠١.
- ١٢- (لم تر كيف فعل ربك) الفيل: ١، ٢٥١/٢٢.
- ١٣- (إلا يلاف فريش) فريش: ١، ٢٦٢/٢٣.
- ١٤- (إنا أعطيناك الكوثر) الكوثر: ١، ٢٨٨/٢٢.
- ١٥- (وامرأته حمالة الحطب) السد: ٤، ٣٤١/٢٢.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بلغني هذا المقام، ويسر لي حتى وصلت إلى الختام، والصلاة والسلام على خير الأنام محمد - صلى الله عليه وسلم - صلاة دائمة عدد ما في كتاب الله من معاني وأسرار.

وبعد،

لا شك أن إعادة التداخل، وتنشيط حركة الانتقال بين المعارف أمر يحتاج إلى ذكاء وفطنة، وجد واجتهاد في حوار الأفكار وتحريكها، ليتبين الباحث من خلال تلك الضوء المناسب للسياق الجديد. وهذا ما ليس عندي لتصور إدراكي، وقلة حيلتي، وضعف بصيرتي. فلست الذي يغوص فيستخرج الدرر، وإنما باحث ذو باع قصير، وبضاعة مزجاة، يصيب أحياناً ويخطئ أخرى، أخطئ ليصيب غيري، إذ لولا تقبلنا هذا لما وضعنا يدنا - فيما أحسب - على صواب. وكما قيل: فإن خطأ السابق في هذا السبيل، ربما يهدي إلى صواب اللاحق. على أنني وقد تجرأت فاقترحت المخاطر، وسرت في طريق غير معبدة لأحسب أنني قنمت شيئاً ذا نفع، ربما ينكر.

أما فيما يتعلق بما درسته من تناسب في هذا السفر العظيم، فقد افتتحتُه معرفاً بعلم التناسب أو المناسبة، في إشارة إلى ترادف التعبيرين في هذا المقام. ثم أردفت ذلك بمجموعة من المباحث الأخرى، تحدثت فيها عن التناسب وفن الإعجاز، وذكر جملة من أدلة هذا العلم، فمناقشة الإشكالات التي أوردها الإمامان - الشوكاني ومن قبله العز بن عبد السلام - ومحاولة ردها بالأدلة العقلية فضلاً عن النقلية. بعد ذلك تشنفت الأذان بسماع شهادات نخبة من العلماء في علم التناسب. ثم ولي ذلك حديث عن تاريخ علم المناسبات والتأليف فيه. إلى أن كان تتويج الختام بالإمام البقاعي وتفسيره.

وفي الفصل الثاني كانت البداية الحقيقية في دراسة علم التناسب؛ حيث جعلت الفصل بعنوان: قواعد منهج البقاعي في بيان التناسب: (شرح وتفصيل)، ثم تناولت بالشرح والتحليل والتعليق - أحياناً - لثلاث من القواعد التناسبية التي اعتنى بها البقاعي فاطردت في جميع كتابه. وذلك في ثلاثة مباحث وجملة من المطالب.

وفي الفصل الثالث من الرسالة: كان لا بد أن أعيد القارئ إلى مجموعة من الظواهر السياقية التي ألفناها في الدرس البلاغي - ولكن في هذه المرة بنكهة غير النكهة الأولى - مع محاولة التعرف على نظرة الإمام البقاعي لها، أو بعبارة أخرى: كيفية تناوله لها. وقد رأينا ما حقه أن يدرس في رسائل مستقلة. لأخرج في النهاية بنتيجة - هي أم النتائج - مفادها أن علم التناسب عند الإمام البقاعي علم عقلي، لكنه يستند إلى وسائل كثيرة تعين عليه، وعلى رأس هذه الوسائل جميعاً: موضوع المقام الذي يُخرَج عليه صاحبنا كل ربط تلاؤمي، أو حتى تناسب فني.

هذا ومن الجدير بالذكر، أن مجموعة من الصعوبات قد اعترضتني في تضاعيف هذه الرسالة؛ منها أن كثيراً من الأسرار البلاغية، واللطائف البيانية بكر، لم أجد أحداً من المفسرين قد عرض لها، ولا حتى أشار إليها، الأمر الذي جعلني وحدي في ميدان البقاعي. هذا فضلاً عن حجم تفسيره، وعدم تحقيقه، وعموم عنوان رسالتي، متوجّهة كلها بغياب أي دراسة علمية جادة - حسب اطلاعي - على هذا الكتاب، الأمر الذي شكل بمجموعه عقبة كؤوداً. ولكنها سرعان ما تحطمت - بعون الله وتوفيقه -؛ إذ كلما يسر الله لي وقطعت شوطاً مع هذا التناسب، كلما شعرت بالمتعة والارتياح، وما ذلك إلا من إعجاز كتابه، فحقاً، وجدت بقدر ما يعطيه المرء يُعطيه، وإن كانت محاولتي، ومن قبل محاولة الإمام البقاعي - مع فارق التشبيه -، ما هما وغيرهما إذا ضُم إليهما إلا فهم يسير لكلام (ولو أتما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمدده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله)^(١). وهو ما قاله التستري (ت ٢٧٣هـ) - رحمه الله - "لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل مقدار ما يفتح الله عليه. وكلام الله غير مخلوق، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهم محدث مخلوق"^(٢).

وقبل أن أختتم يسعدني أن أشير إلى بعض التوصيات المتواضعة، والتي أمل أن تجد أذاناً صاغية: فإنا حيناً لو صُف هذا السفر العظيم على برامج الحاسب الآلي الحديثة المتداولة، فإنه سيخفف على الباحثين، ويريحهم من عبء كبير، ويوفر عليهم الوقت في دراستهم لأي من القضايا اللغوية أو حتى في إحصائه لمصادر البقاعي في كتابه وغير ذلك كثير. هذا بالنسبة لصفه، ثم ويتبعي لهذا التفسير العظيم - أيضاً - فقد وجدت فيه كنوزاً مركوزة حقها أن ترى

(١) لضمان: ٢٧

(٢) انزركشي، انصدر نمسه، ١/ ١٠٢.

النور ليفيد منها الباحثون. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر- لو قامت رسائل علمية بهذه العناوين لكان فيها النفع الكثير:-

- المعجم اللغوي في نظم الدرر: دراسة دلالية أو أسلوبية. أو الحقل الدلالي في نظم الدرر: دراسة دلالية أو أسلوبية.
- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية في نظم الدرر: دراسة دلالية أو أسلوبية.
- التوجيه الدلالي أو الأسلوبى للفاصلة القرآنية في نظم الدرر.
- الصناعة الحديثة في نظم الدرر: دراسة نقدية.
- الإسرائيليات في نظم الدرر: دراسة نقدية.

هذا إضافة إلى أن جل عناوين الفصل الثاني و الثالث من هذه الرسالة يصلح لأن يقوم عليه دراسة علمية مستقلة. على أن جميع ما جاء في هذه الدراسة ما هو إلا محاولة جزئية لخدمة هذا السفر العظيم، والتي أرجو أن تتبع بمحاولات أخرى، فما زال صاحبنا وكتابه ينتظران الأقلام الجادة.

لقد أفنت كثيرا من هذا المركب المزجي بين علوم القرآن وعلوم العربية، وبالتالي فإني أحث غيري من الباحثين أن يقوموا بمثل هذه الدراسات، أو على الأقل بالعودة - دوماً - إلى النصوص التراثية الخالدة، ومحاولة الإفادة منها، والاهتداء بآثار هذه القرائح الشامخة؛ أملاً منا في تصحيح مناهج دراسة هذه اللغة بعامة.

وعلى كل، فهذا جهد المقل، فإن أصبت فبتوفيق الله لي وعونه، وإن كانت الأخرى فأرجو الله أن يغفر لي ويتجاوز عني، فإني امرؤ عاجز لست معصوماً من الزلل. وأن يتذكر قارئني الكريم بأن لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، وأن من صنف فقد استهدف- وإن كانت بذلك تتبين قيمة المرء وتعرف-. و لذلك قلت مرتجراً:

رسالتي هذي وشدَّ العزمًا	الحمد لله الذي أتمًا
مقرَّبًا مما رميت سهمي	مباركاً لي في قليل علمي
في نظمه الغاية في الإبداع	بسبط تناسب لدى البقاعي
مشاركاً له عظيم أجره	عسى أكون نقطةً في بحره
الواهبُ المقربُ المسسندُ	وما أصبت فالهني أحمدُ

فأسبلوا عليه أنيال الغطا
 من في عرين علمه ليس يُرام
 على الذي شرف فعلاً واسما
 من هو في الكمال لا يباهى
 ما جاء بعد الليل بالنهار

وما أتى كعادتي من الخطا
 مبرئاً منه البقاعي الإمام
 ثم الصلاة و السلام الأسمى
 أعني النبي العربي طه
 وآله وصحبه الأخيار

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع

المصادر المطبوعة

القرآن الكريم

- الأكوسي، محمود (ت ١٢٧٠هـ) - روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ١٠م، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ) - إعجاز القرآن، تحقيق وتقديم: أبو بكر عبد الرزاق، مكتبة مصر.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) - صحيح البخاري، ط ٢، دار السلام، الرياض، ١٩٩٠م.
- البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ) - مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، ٣م، تحقيق: عبد السميع حسنين، مكتبة المعارف، الرياض.
- البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ) - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط ١، ٢٢م، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت ٦٩١هـ) - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط ١، ٢م، إعداد وتقديم: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٨م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن سورة (ت ٢٩٧هـ) - سنن الترمذي، ط ١، ٤م، تحقيق: محمد حسن نصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر (٧٩١هـ) - المطول على التلخيص، مطبعة أحمد كامل (طبعة تركية)، ١٣٣٠هـ.
- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) - البيان والتبيين، ٤م، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.
- الجرجاني، عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) - أسرار البلاغة، ط ١، قراءة وتعليق: محمود شاکر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩١م.
- الجرجاني، عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) - دلائل الإعجاز، ط ٣، قراءة وتعليق: محمود شاکر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ) - الخصائص، ٣م، تحقيق: محمد علي النجار.
- الحنبلي، زين الدين عمر بن أحمد (ت ٩٣٦هـ) - انقبس الحاوي لغرر سخاوي، ط ١، ٢م، تحقيق و تعليق: حسن مروة و خلدون مروة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨.

- ابن حنبل، أحمد (ت ٢٤١هـ) — المسند، ط ١، ١٠م، تحقيق: السيد أبو المعاطي وآخرين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٨م.
- الحنفي، أبو السعود محمد بن محمد (ت ٩٨٢هـ) — إرشاد العقل السليم إلى فهم القرآن الكريم، ط ١، ٦م، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف (ت ٧٥٤هـ) — البحر المحيط، ١٠م، بعناية: صنقي جميل، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.
- الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد (ت ٣٨٨هـ) — ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.
- الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٦٩هـ) — عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي، ط ١، ٩م، ضبط وتخرىج: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- خليفة، حاجي (ت ١٠٦٧هـ) — كشف الظنون، ٦م، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- الداوودي، شمس الدين محمد المصري (ت ٩٤٥هـ) — طبقات المفسرين، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) — تنكرة الحفاظ، ط ١، ٣م، وضع حواشيه: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ) — التفسير الكبير، ط ١، ٢، ١١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
- الزبيدي، محمد (ت ١٢٠٥هـ) — تاج العروس من جواهر القاموس، ١٠م، دار ليبيا، بنغازي.
- الزجاج، أبو اسحق إبراهيم (ت ٣١١هـ) — إعراب القرآن المنسوب إليه، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ٣م، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٥م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ) — البرهان في علوم القرآن، ط ١، ٢، ٤م، تحقيق: يوسف المرعشلي وآخرين، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود (ت ٥٣٨هـ) — الكشاف، ط ١، ٤م، ترتيب وضبط: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ) — سنن أبي داود، ط ١، ترقيم وتبويب: هيثم تميم، شركة دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩م.
- السخاوي، شمس الدين محمد (ت ٩٠٢هـ) — الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، ط ١، ٣م، تحقيق: إبراهيم باجي، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٩م.

- السخاوي، شمس الدين محمد (ت ٩٠٢هـ) - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٦م، مكتبة الحياة، بيروت.
- السخاوي، شمس الدين محمد (ت ٩٠٢هـ) - وجيز الكلام في النيل على دول الإسلام، ١م، ٤م، تحقيق: بشار معروف وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥م.
- الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن (ت ٦٨٦هـ) - شرح كافية ابن الحاجب، ١م، ٥م، تقديم وتعليق: أميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- مسيويه، عمرو بن عثمان (ت ١٧٧هـ) - الكتاب، ١م، ٥م، تعليق: أميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) - الإتقان في علوم القرآن، ط ٢، ٢م، تحقيق: عصام الحرساني، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) - تناسق الدرر في تناسب السور، ط ١، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) - طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) - نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحرير: فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ٢٠٠٠م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) - همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ط ١، ٤م، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم (ت ٧٩٠هـ) - الموافقات في أصول الشريعة، ط ٣، ٢م، دار المعرفة، ١٩٩٧م.
- الشربيني، الخطيب علي بن عبد الرحمن (ت ٩٧٧هـ) - السراج المنير، ٤م.
- الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ) - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط ١، ٢م، مطبعة السعادة: القاهرة، ١٣٤٨هـ.
- الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ) - فتح القدير، ط ١، ٥م، تصحيح: الشيخ سمير رجب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٨م.
- الصبان، محمد بن علي (ت ١٢٠٦هـ) - حاشية الصبان على شرح الأشموني، ط ١، ٤م، ضبط وتصحيح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن طباطبا، محمد (ت ٣٢٢هـ) - عيار الشعر، تحقيق: طه الجابري ومحمد زغول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦م.
- العسقلاني، أحمد (ت ٨٥٢هـ) - فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ط ١، ٣م، مكتبة دار

- السلام، الرياض، ١٩٩٧م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ) - الصناعتين، ط٢، تحقيق: د. مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق (ت ٥٤٦هـ) - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط١، ١٥م، تحقيق وتعليق: الرحالي الفاروق وآخرين، النوحة، ١٩٧٧م.
- ابن العماد، شهاب الدين عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط١، ١٠م، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩٣م.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ) - القاموس المحيط، ط١، ٢م، إعداد وتقديم: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
- القاسمي، محمد جمال الدين (١٣٣٢هـ) - محاسن التأويل، ط٢، ١٧م، تصحيح وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار حياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٧م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ) - الجامع لأحكام القرآن، ط٣، ٢٠م، دار القلم، ١٩٦٦.
- القسنطيني، ابن منقذ أحمد بن حسن (ت ٨١٠هـ) - الوفيات، ط٣، تحقيق وتعليق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٣هـ) - سنن ابن ماجه، ط١، ١٦م، تحقيق: بشار معروف، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.
- النيسابوري، مسلم (ت ٢٦١هـ) - صحيح مسلم، ط١، ترقيم وتبويب: محمد تميم وهيثم تميم، شركة دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩م.
- النووي، محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ) - شرح صحيح مسلم، ط٥، ١٠م، تحقيق وتخريج: الشيخ خليل شبحا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن هشام، جمال الدين عبد الله بن يوسف (ت ٧٦١هـ) - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ط١، ٤م، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٩م.

المراجع

- أحمد بدوي — من بلاغة القرآن.
- أحمد سعد محمد — التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ط١، مكتبة الآداب، ١٩٩٨م.
- إنعام عكاوي — المعجم المفصل في علوم البلاغة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- خير الدين الزركلي — الأعلام، ط١٠، ٨م، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م.
- رفعت عبد المطلب — الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ط١، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٦م.
- زكريا المصري — أصول الفقه الإسلامي: دروس وتمرين، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م.
- شاكر مصطفى — التاريخ العربي والمؤرخون، ط١، ٤م، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٣م.
- عائشة عبد الرحمن — الإعجاز البياني للقرآن، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- عادل نويهض — معجم المفسرين، ط١، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ١٩٨٣م.
- عبد الجليل عبد الرحيم — لغة القرآن الكريم، ط١، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ١٩٨١م.
- عبد القادر زمامة وآخرون — معجم تفاسير القرآن الكريم، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ١٩٩٧م.
- عطا أبو الرستة — التيسير في أصول التفسير، ط١، ٢٠٠٠م.
- عفت الشراقوي — بلاغة العطف في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.
- علي العماري — قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تنويع البلاغة العربية إلى عهد السكاكي، ط١، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٩٩م.
- عمر رضا كحالة — معجم المؤلفين، ط٢، ٤م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.
- فضل عباس — إتقان البرهان في علوم القرآن، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٩٧م.
- فضل عباس — إعجاز القرآن الكريم، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٩١م.
- فضل عباس — البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان)، ط٢، دار الفرقان، عمان، ١٩٩٦م.
- فضل عباس — البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ط٤، دار الفرقان، عمان، ١٩٩٧م.
- أبو الفضل الغماري — جواهر البيان في تناسب سور القرآن، مكتبة القاهرة.
- محمد أحمد القاسم — الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، ط٢، ١٩٧٩.
- محمد بركات أبو علي — الآية التفسيرية وموقعها من البيان القرآني والبلاغة العربية، ط١، دار وائل، عمان، ١٩٩٩م.

- محمد بركات أبو علي - دراسات في الإعجاز البياني، ط١، دار وائل، عمان، ٢٠٠٠م.
- محمد الحسناوي - الفاصلة في القرآن، ط٢، دار عمار، عمان، ٢٠٠٠م.
- محمد حسين الذهبي - الإسرائيليات في التفسير والحديث، ط٢، دار الإيمان، دمشق، ١٩٨٥م.
- محمد حسين الذهبي - التفسير والمفسرون، ط٢، ٢٠٠٠م.
- محمد حسين عبد الله - الواضح في أصول الفقه، ط٢، دار البيارق، عمان، ١٩٩٥م.
- محمد الخطيب - نظرة العجلان في أغراض القرآن، المطبعة العصرية، دمشق.
- محمد رشيد رضا - تفسير المنار، ط١، ١٢٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.
- محمد زغلول - موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف، ١١م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- محمد عبد الله دراز - النبأ العظيم، ط١، تخريج وتعليق: عبد الحميد الدخاخي، دار المرابطين، الإسكندرية، ١٩٩٧م.
- محمد محمود حجازي - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار الكتب الحديثة: القاهرة، ١٩٧٠م.
- محمد أبو موسى - الإعجاز البلاغي، ط٢، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٩٧م.
- محمد أبو موسى - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ط٢، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٨٨م.
- محمد أبو موسى - خصائص التراكم، ط٢، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٨٠م.
- مصطفى صادق الرافعي - تاريخ آداب العرب، ط٢، ٣م، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م.
- مصطفى مسلم - مباحث في التفسير الموضوعي، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٩٧م.
- منير سلطان - بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٨م.
- ناصر الخنين - النظم القرآني في آيات الجهاد، ط١، مكتبة التوبة، الرياض، ١٩٩٦م.

الرسائل الجامعية

- أحمد مسعود، منهج الخطيب الشربيني في التفسير، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٨٦م.
- خلدون صبح، التقديم والتأخير في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٩٥م.
- رايق اصعيدي، تحقيق إتقان السيوطي من النوع (٥١-٦٣)، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٢م.
- بن عيسى بطاهر، المقابلة في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٤م.

محمد الدومي، التفسير الموضوعي: دراسة تاريخية نقدية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٨م.

محمد العيد الرتيمة، دراسة لغوية لمفهوم "الآية" في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر.

محمد محمود قاسم، التكرار في القرآن الكريم "دراسة بلاغية"، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، عمان، الأردن، ١٩٩٨م.

الدوريات

خير الله الشريف، الإمام البقاعي ومؤلفاته، مجلة آفاق الثقافة والتراث، س٣، ع٩، مركز جمعة الماجد (نبي)، حزيران، ١٩٩٥م، ص: ٧٧-٨٨.

سليم يوسف، الأعلام المسلمون في البقاع، الفكر الإسلامي، ع٣، لبنان، ١٩٧٩م، ص: ٥٣-٥٦.
عبد العظيم الغباشي، ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، مجلة كلية الشريعة، ع٢، بغداد، ١٩٦٦م، ص: ١٥-٢٨.

عيسى إسكندر المعلوف، البرهان إبراهيم بن عمر البقاعي، مجلة الزهراء، ع٨، ١٣٤٥هـ، ص: ٥١٣-٥١٥.

فضل حسن عباس، بيان إعجاز القرآن للخطابي: تحليل ومقارنة ونقد، دراسات، مج١٤، ع١٠، عمان، ١٩٨٧م، ص: ٢٣٧-٢٨١.

فضل حسن عباس، دراسة إعجاز القرآن للباقلاني: تحليل ونقد، دراسات، مج١٦، ع١٠، عمان، ١٩٨٩م، ص: ١٥٦-٢٠١.

محمد أبو موسى، أمثال سورة النور، مجلة كلية اللغة العربية (الأزهر)، ع٨، ١٩٩٠م، ص: ١١٢-١٢٨.

مصطفى الباجقي، علم المناسبات بين السور والآيات، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع٧، ١٩٩٠م، ص: ٦٤-٨٢.

نور الدين عتر، أثر المناسبة في كشف إعجاز القرآن، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ع١٣، الإمارات العربية، ١٩٩٦م، ص: ٥٩-٩٦.

نور الدين عتر، علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ع١١، الإمارات العربية، ١٩٩٥م، ص: ٦٧-١٠٠.

Abstract

“Quranic Harmony at Imam Al-Biqai’i Rhetorical study “

By
Mashhour Mousa Mashhour Mashahreh

Supervisor
Prof. Mohammed B. Abu-ali

This thesis consists of a preface, three chapters and a conclusion.

In the preface, I stated the reasons why I chose this topic, the implications of the title, the methodology in this thesis and finally the obstacles that faced me while conducting this research.

In the first chapter, I wrote a biography for Al-Imam Al-Biqai’ and some notification about his book “Nazm Al Dorar“ .

After that I proved that the proportionality and congruency both have the same concept and notion. I talked about the relationship between proportionality and the inimitability art. I also talked about some of the equivocally and uncertainty about this science. And general opinions of scholars in it and it’s history.

In the second chapter, I talked about Al- Biqai’s methodology in his clarification of proportionality. This was done at three levels: representation, analysis, and commentary.

At the end of the research, we can see Al-Biqai’s extreme dependence on different aspects of proportionality based on diversity of connections and relationships.

In the final chapter, I studied a number of contextual phenomena in Quranic oration through six topics, namely : preceding and delaying ; stating and ellipsis ; repetition; identification; singular and plural forms, and utterance and meaning.

At the end of these topics it was clear to us the dependency of Al-Imam Al-Biqai’ on the context as a major factor in interpretation of the deferent aspects of the proportionality, to which he added a lot from his opinions and literary touches.

Finally, at the end of this study and after mentioning some obstacle I had encountered mentioned the results I had reached to, suggestions and recommendations. for further research.